علي حسين

كتب ملعونة

ثلاثية الجنس.. الدين.. السياسة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

كتب ملعونة

كتب ملعونة / مقالات

علي حسين

الطبعة الأولى 1442 / 2021

ردمك: 978-1-947836-58-7

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة 29 11 2022

t.me/t_pdf

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

كتب ملعونة

ثلاثية الجنس.. الدين.. السياسة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

علي حسين

أثر

مقدمة

كُتب عليك أن تقرأها قبل أن تموت

حينما يحرق الكتاب، يحرق لاحقًا الإنسان.

هاينريش هاينه

العام 1991 سيجد هارولد بنتر الكاتب المسرحي الشهير يدور بقصيدته «كرة قدم اميركية» بين الصحف دون أن يجد ناشرًا لها ، والقصيدة كتبت بوحي من حرب الخليج 1991: «كانت لندن ريفيو» المكان الأول الذي أرسلت إليه القصيدة ليتلقى بنتر رسالة غريبة تقول أن: «للقصيدة طاقة جبارة وأنهم لهذا السبب بالذات لن يتمكنوا من نشرها» ليرسلها بعد ذلك إلى صحيفة الغارديان ليكون الجواب: «هارولد، أنت تدري بأننا سنواجه متاعب حقيقية ما حاولنا نشرها».. كان جواب الجميع أن اللغة التي كتب بها هارولد بنتر القصيدة تستعيد حقائق مروعة.

لماذا يخاف البعض من الكتب.. هذا السؤال ظل يدور في رأس شاعر تشيلي الكبير بابلو نيرودا الذي قرر في سنواته الأخيرة أن يهدي مكتبته الشخصية إلى المكتبة العامة في تشيلي، وكان يتوقع أن البهجة ستعم المسؤولين، لكن نيرودا سيكتشف أن: «ثمة أناسٌ يسكنهم الكدر ويجافيهم الصفاء بسبب هذه الكتب».

على مر التاريخ حوصرت الكتب، وكانت إما تؤخذ للمحارق أو ترمى

في الأنهار، وطورد أصحابها، وصدرت قوانين تراقب الكتب وتعد على الكُتّاب أنفاسهم، وعلى مر العصور كان الحكام المستبدون يلجأون إلى الرقابة لكي يحددوا للناس نوعًا واحدًا من القراءة.

كتب فولتير: «الكتب تشتت الجهل، هذا الحارس الأمين والضامن الحريص للدول ذات الأنظمة البوليسية» لذا إعتبرت الرقابة جزء من أنظمة الحكم، لا يمكن الاستغناء عنها، وتاريخ الكتب مليء بالحكايات التي لا نهاية لها عن منع الكتب، منذ أن كانت هذه الكتب عبارة عن لفائف من الورق اضطر أبو حيان التوحيدي أن يحرقها وسط أحد أسواق بغداد لأنها جلبت له العداوة وضيق الحال، وحتى القرن العشرين حين قرر هتلر وبحضور آلاف المتفرجين أن يحرق أكثر من 2000 كتاب وسط برلين وكان من بين من شملهم الحرق توماس مان، فرويد، كارل ماركس، جاك لندن، برتولد بريشت، جاك لندن، إريش ماريا ريماك، همنغواي وعشرات غيرهم. ومنع بينوشيه دكتاتو شيلي رواية سيرفانتس «دون كيخوته»، لأنه كان يرى فيها تحريضًا على الحرية وتهاجم الحكام .

في عام 1930 ينشر القاص والروائي الايطالي إيتالو كالفينو قصة بعنوان «جنرال في مكتبة» - ترجمها إلى العربية سماح ادريس - يصور فيها دولة اسمها «باندوريا» يعتقد فيها كبار المسؤولين أن الكتب تحتوي على آراء معادية لهيبة الدولة، وأنها تشيع بين الناس أن المسؤولين الكبار يمكن أن يرتكبوا الأخطاء، والتسبب في حصول الكوارث، فيقررون تشكيل لجنة برئاسة موظف صارم، شديد التدقيق، مهمتها فحص كل الكتب في جميع المكتبات.

تخبرنا المصادر أن الرقابة نشأت أول مرة في القرن الخامس الميلادي بروما، لكن قبل هذا التاريخ بألف عام أُحرقت مؤلفات الفيلسوف اليوناني

بروتاغوراس والذي كان أحد اشهر السفاسطائيين، ولد عام 784 قبل الميلاد. إهتم بالفلسفة في وقت مبكر من حياته، حاول أن ينظم فلسفة خاصة به إهتمت بالانسان فقط. حيث كان يعتقد أن الإنسان هو مقياس كل شيء، أي أن الخير والشر، الصح والخطأ، كلها يجب أن تُحدد بحسب حاجات الكائن. لم تصل لنا كتبه بسبب آرائه الصادمة للمجتمع، فقد كان رافضًا للديانة التي كانت سائدة أنذاك، وقال: «لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة وعلى أي صورة تكون، وذلك بسبب غموض الموضوع، وقصر عُمّر الإنسان». وهو الأمر الذي أدى إلى إحراق كتبه.

ظل بروتاغوراس يلقي الخطب في الأسواق، ويحاول أن يقدم صورة عن الحياة مختلفة وصادمة، فكان يؤكد أن ما يدركه شخص ما هو حقيقة بالنسبة له، وما تدركه أنت هو حقيقة بالنسبة لك، إذ أنه لا توجد حقيقة واحدة للعالم الذي نعيش فيه، ولكن ذلك لا يعني أنه لا توجد حقيقة على الاطلاق، بل بالعكس حيث يؤكد بروتاغوراس أن هناك كّم من الحقائق لكل شيء في الوجود، لأن ما يدركه كل فرد هو حقيقة بالنسبة له.

آمن السفسطائيون بأن الحقيقة نسبية في نظر كل من يؤمن بها، وكان بروتاغوراس يقول أن الحقيقة متناثرة في كل مكان وأن كل انسان يستطيع أن يحصل على قدر منها، ويؤكد مؤرخو الفلسفة أن بروتاغوراس أول من وضع مفهوم «النسبية». وقد إهتم سقراط بأفكار بروتاغوراس فحاول مناقشتها كما دوّنها لنا أفلاطون في محاورته «ثياتيوس» وخصوصًا مفهوم بروتاغوراس للنسبية التي حاول تفسيرها بأنها تعني أن: «أي شيء أرى حقيقته كما يبدو لي أنا وترى أنتَ حقيقته كما يبدو لك أنتَ».. وهو الأمر الذي جلب لسقراط المتاعب مع السلطة حتى قررت التخلص منه باجباره على تناول السم.

وأحرق إمبراطور الصين «هوانغ تي» عام 312 ق.م كل الكتب في مملكته،

وفي القرن الأول الميلادي تم حرق كتب الشاعر أوفيد، كما أمر الإمبراطور كاليغولا بحرق مؤلفات هوميروس وفيرجيل،.. ويذكر أن الشاعر الألماني غوته شاهد في مقتبل حياته احراق عدد من المؤلفات وقد كتب آنذاك جملته الشهيرة: «إن رؤية عقاب يفرض على شيء جامد لشيء يُرعب النفس». وفي روما منتصف القرن الميلادي الأول لم تكن مهمة الرقيب آنذاك مراقبة الكتب، بل مراقبة الأخلاقيات العامة، والتدقيق في أملاك المواطنين.. وكانت دائرة الرقابة تملك صلاحية اعتقال أي مواطن مشكوك في أخلاقه.. وفي عام 335 ميلادية أصدر الإمبراطور البيزنطي «جستينيان الأول» مجموعة من القوانين أراد من خلالها كسب ود الكنيسة ودعمها، وفي هذه القوانين أوامر مشددة بمنع المواطنين من اقتناء مؤلفات «نسطور» والتي كانت تثير حفيظة الكنيسة وإعتبرتها هرطقات.

وقد سعت الكنيسة إلى متابعة الكتب ومؤلفيها، حيث كان رجال الكنيسة في القرن السادس عشر يقومون بزيارة محلات بيع الكتب، للتحقق من أنها لا تطبع أي كتاب ضد الأخلاق والدين. وفي القرن الثامن عشر شكلت الكنيسة في فرنسا لجنة تضم 50 مراقبًا مهمتهم فحص الكتب قبل نشرها، وكانت اللجنة مشكلة من شخصيات دينية، تدقق في هذه الكتب لترفض منها ما هو فاسق أو فاضح.

وكما يقول روبرت نيتر في كتابه تاريخ الرقابة: «كان عليهم رفض طباعة الكتب التي تتعلق بمواضيع حساسة حول الدين والعلم والسياسة، وأيضًا عدم الموافقة على المخطوطات التي يجدون أنها غير مفيدة، أو المحشوة بعلم غامض».

كانت الكنيسة في حربها ضد الكتب، تهدف إلى السيطرة على تطور منافذ الفكر، وكبح جماح الفلاسفة والعلماء الذين بدأوا يثيرون شكوك الناس

حول مصداقية نظريات الكنيسة العلمية، ويثبتون تناقضها في معركة مفتوحة للصراع المحتدم بين العلماء والفلاسفة من جهة والكنيسة من جهة أخرى. توجت في آخر مراحلها بالإصلاح الديني اللوثري، ثم الثورة الفرنسية التي أصدرت النظريات والقوانين التي تضمن بقاء وانحصار الباباوات ورجال الدين داخل أسوار الكنيسة فقط.

أحرقت روما مئات الكتب الممنوعة، لكن التفكير الحر لم ينتهي أو يتوقف، وكانت كلما تزداد ضراوة الرقابة، تزاد محنة التفكير الحر.

«كتب ملعونة» يتحدث عن اللعنة التي يسببها الشغف بالورق، وينضم إلى أشقائه السابقين الذين ظهروا خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وهم «في صحبة الكتب» و«دعونا نتفلسف» و«سؤال الحب» و«غوايات القراءة» وهو يضيف إلى تجاربهم في الأدب، والفلسفة، تجربة أخرى مع الكتب، وإذا كانت الكتب السابقة حاولت أن تسلط الضوء على حكايات لأدباء وفلاسفة مع الورق، فإنها حاولت أيضًا أن تبين للقارئ أن التأمل في الكتب لا يغني عن حب القراءة، وهذا الكتاب الذي يواصل الرحلة نفسها يحاول أن يقدم للقراء حكايات جديدة مع الكتب. يكتب تشيخوف في إحدى رسائله: «أية فرحة نجدها في الحكم على الناس! عندما أرى كتبًا، لا يهمني معرفة كيف أحب مؤلفوها أو كيف لعبو بالورق. إنني لا أعرف إلا أعمالهم الرائعة».

الكتب العظيمة التي تمتلئ بها أرفف المكتبات، تسعى إلى هدف أكبر من سرد حكايات أو مناقشة مسائل معقدة أو مثيرة للاهتمام.. بل إنها تملك قوة هائلة على التغيير.. ففي تاريخ البشرية نجد أن الحكومات وذو السلطة كلما أرادوا اجهاض المعارضة والرأي الآخر، اتجهوا إلى منع الكتب أو إتلافها، وفي أحيان كثيرة إلى تغييب مؤلفيها..

يكتب ألبرتو مانغويل في كتابه «تاريخ القراءة» أن ملاحقة الكتب لن

تنتهي أبدًا، وأن السلطة المطلقة ترى «أن كلام الحاكم يكفي»، ولهذا تتحول الرقابة إلى لازمة ترافق السلطة دائمة.

هذا الكتاب محاولة جديدة لقراءة هذه الكتب التي ساهمت في تغيير مجرى الأحداث في العالم سواء في مجال السياسة والإقتصاد والدين والفكر العلمي منذ المعركة التي خاضها سقراط حول الحرية والعدل، إلى آلاف الكتب التي أحرقت في الساحات ومنعت من التداول على مر العصور .

مكتبة
t.me/t_pdf

1

أيها الإنسان لست إلهًا!

كتب وصيته قبل موته بعشرة أعوام، وطالب بأن يوضع جثمانه في تابوت مغلف بالحديد، يظل مفتوحًا لمدة يومين كاملين، ثم ينقل بعد ذلك إلى أطراف إحدى الغابات ليدفن تحت شجرة بلوط، وبأن لا يقام مجلس عزاء له، ولم يتحقق للماركيز دي ساد ما أراد، فعندما توفي في الثاني من كانون الأول عام 1814م في إحدى المصحات العقلية، أصرّ معارفه أن يقيموا طقوسًا مسيحية لجنازته، وقد كلفت طقوس دفنه 75 جنيهًا. ولم تمضِ أيام حتى قام عدد من الأشخاص بفتح القبر وسرقة جمجمة دي ساد، لتنقل إلى ألمانيا حيث اشترتها مجموعة تؤمن بالسحر، كانت تعتقد أن الماركيز واحد من كبار السحرة في العالم.

في العام 1801م تقع بيد نابليون بونابرت نسخة من رواية بعنوان (جوستين)، كان مؤلفها قد كتبها في السجن عام 1987م عندما كان معتقلًا بتهمة نشر الرذيلة، وقد أثارت الرواية التي أعاد دي ساد كتابتها ثلاث مرات ولم تتعد صفحاتها الـ180 صفحة في نسختها الأولى، اشمئزاز الإمبراطور الذي وصفها بأنها «أوضع كتاب ظهر على الإطلاق بخياله المنحرف المريض». فأصدر أمرًا بإلقاء القبض على مؤلفها الماركيز دي ساد، حيث أودع السجن دون محاكمة ولم يخرج منه إلا إلى المصحة التي توفى فيها بعد ثلاثة عشر عامًا.

عندما نشرت رواية (جوستين) عام 1791م استقبلها القراء بنفور، واتُهمت بالإباحية، لكن كثيرين يرونها اليوم واحدة من الأعمال الكلاسيكية في الأدب، خصوصًا بعد أن أضاف لها الماركيز دي ساد حكاية شقيقتها جوليت. كتب دي ساد الرواية في أقل من أسبوعين، وفيها يروي حكاية الفتاة جوستين ابنة مصرفي أفلس، مات وترك ابنتين هما جوستين وجوليت. وتجد جوستين نفسها في مجتمع يشجع على الرذيلة، إلا أنها ترفض العيش فيه، بينما نجد أختها جوليت تقيم علاقات مع المشاهير والسياسيين، وتقع في الحب مع أحد رجال الدولة الكبار، في محاولة لإشباع رغباتها بالمال والسلطة.

أما جوستين، فقد اختارت أن تسلك طريقًا مختلفًا، فتبحث عن عمل، لكنها تقع في يد صاحبة دير تقنعها بالعمل عند رجل غني، لكنها سرعان ما تفاجأ بنزواته الجنسية فتهرب من جديد، لتعمل عند تاجر بخيل، يلفق لها تهمة سرقة، فتدخل السجن للمرة الأولى. وتتعرف هناك على سجينة تخطط للهروب، وتتفقان على الهرب سويةً، لكنها تجد نفسها تقع في شرك عصابة تديرها المرأة التي هربتها من السجن لتشارك معها في عدد من الجرائم. وهكذا في الوقت الذي اختارت فيه جوليت طريق الشر والرذيلة، نجحت جوستين في أن تخدم الفضيلة على الرغم مما تعرضت له من عذاب، فهي بعد أن تساعد أحد الأشخاص على الهرب من أيدي اللصوص، تتعرض للاغتصاب على يديه، مما يؤدي هذا الفعل الشرير إلى زعزعة إيمانها بالفضيلة. وعندما تضطر للعمل عند رجل شاذ، يحاول إغراءها بالمال، لتقتل عمّته الغنية التي تسكن معه، ثم تعيش نوعًا من الصراع بين الخير والشر، مما يدفعها إلى الهرب لتقع بين يدي طبيب يتلذذ في التعذيب، وعندما تحاول مساعدتها تتعرض إلى التعذيب.

وهكذا في كل مرة تحاول فيها جوستين أن تنتصر للفضيلة على الرذيلة تجد

نفسها في مواجهة عالم شرير، حتى الكنيسة التي تلتجأ إليها أملًا في الخلاص من عذاب المجتمع، تجدها بؤرة للرذيلة. فالقس يناديها بالعاهرة، وفي زاوية من الكنيسة تجد الآباء الأربعة وقد احتجزوا عددًا من الفتيات ليمارسوا معهن الفجور. ولم تنتهِ معاناتها بالهرب من الكنيسة حيث تجد نفسها وقد وقعت بين يدي رجل يستمتع بمرأى الدم يسيل من زوجته، وعندما تحاول مساعدة الزوجة تتعرض للاغتصاب، وفي النهاية تقع في قبضة الرجل الذي اغتصبها المرة الأولى، وقد أصبح تاجرًا للرقيق. وهكذا على مدى صفحات الرواية نجد جوستين تنتقل من عالم شرير إلى آخر أكثر رذيلةً وبغضًا، لتنتهي حكايتها بعد أن تصيبها صاعقة، أما جوليت فإنها لتأثرها بهذا الإنذار الرباني تنسحب من الحياة إلى أحد الأديرة مصممة على أن تكفّر عن حياتها الشريرة السابقة.

هكذا يأخذ الكاتب القراء في سلسلة من قصص التعذيب والعنف والجنس والشذوذ، لكي يتعرفوا بعد ذلك على فلسفة الماركيز دي ساد التي تتلخص في أن الإنسان عبد لغرائزه. حيث نجد دي ساد يؤكد على فكرة واحدة وهي أن الفضيلة دائمًا ما تنتهي بالأسى والخيبة. إن جوستين كما يؤكد دي ساد لا تنال لذة من أعمال القسوة التي تُمارس عليها، بل إنها ترتفع فوق هذا العذاب والفجور من أجل نصرة الفضيلة. تكتب سيمون دي بوفوار أن جوستين ليست رواية واقعية، لكنها أقرب إلى الحكايات الفلسفية التي كتبها فولتير وديدرو. إنها رواية أخلاقية أراد دي ساد أن يقول خلالها إنه ليس هناك عدالة، وإن الخير والشر ليسا أكثر من موضوعات ساذجة لا يلتزم بها سوى المعتوهين. يكتب دي ساد: «لقد تخيلت كل ما يمكن تخيله في هذا الميدان، ولكنني لم أفعل بالتأكيد كل ما تخيلته، وبالتأكيد لن أفعل ذلك مطلقًا في المستقبل». كان دي ساد مدركًا كل الإدراك لمقدار الضجة التي تحدثها كتاباته الصريحة، وهي في نظره لم تكن دعارة ولا مجونًا، فقد

تجاوز هذه المفاهيم بعرضه المُبالغ به للرذيلة وسخريته الحادة من الفضيلة. يكتب على لسان أحد أبطال روايته جوستين: «ما أقل ما يدرك الناس مقدار الفائدة الناجمة عن هذه الأوصاف لنمو العقل، ربما كان جهلنا الحالي لهذا العالم مرده فقط إلى الاحتشام السخيف الذي يبديه من حاولوا الكتابة بشأن هذه المواضيع. وإذ سيطرت عليهم مخاوف شنيعة فإنهم لا يذكرون لنا سوى الأمور المبتذلة التي يعرفها كل مجنون، فهم لا يتوغلون بجرأة في القلب الإنساني من أجل الكشف عن انحرافاته الهائلة لإبصارنا».

كان تمرد دي ساد ضد المجتمع قد لعب أحد الأدوار المهمة في اندلاع الثورة الفرنسية، فإضافة إلى رواياته الفاضحة، كتب دي ساد العديد من المقالات السياسية التي دافع فيها عن الفقراء ضد استغلال الطبقات الحاكمة، وكان يتمتع بمكانة كبيرة باعتباره واحدًا من المنتمين إلى تقاليد التنوير الفرنسي الذي كان على الضد من رجال الدين.

في إحدى مقالاته يكتب فولتير: «الكتب تشتت الجهل، هذا الحارس الأمين والضامن الحريص للدول ذات الأنظمة البوليسية». لم تكن الرقابة على الكتب وليدة العصور الحديثة، وتاريخ القراءة مملوء بالكتب التي طاردتها اللعنة وتم تجريم أصحابها. ففي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حاول الفيلسوف أفلاطون أن يمارس دور الرقيب، فطلب من تلامذته ألا يقتربوا من أشعار هوميروس لما تحويه من البذاءات. وبسبب قصيدته الشهيرة (فن الهوى) تعرض الشاعر الروماني أوفيد إلى المطاردة والنفي. كان أوفيد يقول إن الهدف من قصيدته تلقين الحب لمن ليس له خبرة أو دراية به: «فالعشق مهارة ينبغي على الإنسان حذقها وإتقانها شأنها شأن سائر المهارات مثل التجديف والملاحة»، ويذهب أوفيد أبعد من ذلك حين يضع عددًا من النصائح الجنسية التي على المرأة اتباعها، وقد ظل كتاب أوفيد ممنوعًا حتى

عام 1920م، حين أصدرت دائرة البريد الأميركية أمرًا بمنع دخول نسخ من الكتاب إلى الولايات المتحدة.

يكتب الماركيز دي ساد في مقال بعنوان (فكرة حول الروايات) أن «الروائي هو ابن الطبيعة، ورسالته أن يصف العالم كما هو ويمتد بخياله إلى جميع الآفاق التي يمكن أن ترتادها تجربة الإنسان. ومن أجل هذا فهو يحب الحياة ويحرص على كل نبضة في أشيائها وأحيائها. إن الاحمق يقطف الوردة وينثر أوراقها، أما العبقري فإنه يتنسم عبيرها ويصورها وهذا ما يفعل الروائي».

***

.كان في السبعين من عمره عندما وقف أمام القضاة، بتهمة عدم احترامه آلهة المدينة والسعي لإفساد عقول الشباب وتأليب الأبناء على آبائهم. وأمام المحكمة التي تشكلت من خمسة أعضاء، قال سقراط إنه سمع صوتًا إلهيًا بداخله، وإن هذا الصوت أشبه بالضمير الذي يشير إليه بما هو صائب. فالذي يعرف الخير يفعل الخير. وإن الرؤية الصحيحة للأشياء تقود إلى الأفعال الصحيحة، فالذي يفعل الصواب هو فقط الذي يستحق تسمية «الإنسان الصحيح»، وعندما نتصرف بشكل سيء، فذاك لأننا على خطأ. لذلك يصبح من المهم السعي إلى الحصول على المعرفة الكاملة. يكتب هنري برجسون أن «سقراط يعطي تعاليمه لأن كاهنة دلفي كانت قد تكلمت، لقد تلقى منها رسالة، وهو فقير. وعليه أن يظل فقيرًا ويجب عليه أن ينخرط في صفوف الشعب وأن يصنع من نفسه شعبًا وأن تكون لغته هي لغة الطبقات الشعبية. إنه لم يكتب شيئًا وذلك لكي تلتقي أفكاره الحية مع العقول التي ستنقلها إلى عقول أخرى».

العام 399 ق. م. تقدم أحد أعيان أثينا ويدعى ميليتوس بعريضة إلى المحكمة يطالب فيها بإعدام سقراط وكان الاتهام كالآتي: «أنا ميليتوس بن ميليتيوس أتّهم سقراط بن سوفونيسك بارتكابه جرائم بحق الآلهة، مكونًا بذلك خطرًا عظيمًا على الجيل الصاعد». كان ميليتوس يعمل تاجرًا للجلود، جرب أن يصبح شاعرًا ففشل. ويشبّه هيغل سقراط بالذبابة التي تزعج الآخرين أثناء نومهم الكسول، الذبابة التي كانت تمنعهم من الراحة والاطمئنان إلى حلولهم الأخلاقية والاجتماعية الجاهزة التي اعتمدوها في حياتهم، لقد كان بالنسبة لهم النقيض المزعج للراحة الفكرية والضمير الوادع. لقد كانت أسئلته وإجاباته مصدر شقاء للسعادة المطمئنة الساذجة. وقد كان سقراط في بعض الأحيان حادًا في توجيه اللوم لسكان أثينا الذين يجب عليهم أن: «يشعروا بالخزي والخجل من انشغالهم بجمع أكبر قدر ممكن من المال وببناء السمعة الحسنة والشرف والانصراف عن الانشغال بالحقيقة وكمال الروح».

كانت المحكمة التي سيق إليها سقراط عبارة عن مبنى ضخم بمقاعد خشبية للمحلفين ومنصة للادعاء العام، ومكان يقف فيه محامي الدفاع. المحكمة التي حضرها 500 مواطن شكلوا هيئة المحلفين، بدأ فيها الادعاء بإثارة قضية: «إن هذا الذي يدّعي الفلسفة والماثل أمام المحكمة رجل شرير، يشكك في الأشياء التي تحت الأرض وفي السماء، عدا كونه مارس تأثيرًا فاسدًا على الشباب». كانت هيئة المحلفين قد جاءت محملة بآراء ضد سقراط، كانوا قد تأثروا بما يقال من أن هذا الرجل الرث الثياب قد لعب دورًا في الكوارث التي حلت بالمدينة، ولهذا أدرك سقراط منذ البداية عدم وجود فرصة للنجاة أمامه، ورغم أنه كان يمكنه التراجع عن أفكاره وإعلان التوبة وإنقاذ حياته، لكنه رفض مثل هذه الفرصة: «أشك أنكم ستستيقظون من

سباتكم في وقت قريب، وستلجؤون بفعل انزعاجكم إلى نصيحة ميليتوس لتنهوا حياتي بضربة واحدة، ثم ستعاودون سباتكم». عندما طلب القاضي حكمًا نهائيًا صوت 360 عضوًا من المحلفين لصالح إعدام الفيلسوف. عاد المحلفون سعداء إلى بيوتهم بعد أن قبض كل واحد منهم على أجر مناسب، فيما أودِع المحكوم عليه في السجن بانتظار تنفيذ الحكم.

في العام 1559م دخل الأدب حيز الرقباء، فقبل ذلك كان عمل الرقابة يقتصر على الكتب التي تخالف العقائد الدينية. ففي عام 1557م، طالب أحد القساوسة بحظر كتاب (الديكاميرون) لبوكاشيو، فوجد الإمبراطور بيوس الخامس أن الأمر مضحك لأن الكتب الأدبية: «لا تقرأ على أساس كونها أشياء يجب الاعتقاد فيها، بل كخرافات». لكن بعد ذلك بعامين صدرت الأوامر بإعادة تنقيح نسخة (الديكاميرون) قبل إعادة نشرها من جديد، فقد نصت التوجيهات الإمبراطورية على أنه: «غير المسموح بأية طريقة كانت، التحدث بشكل سيء أو مخجل عن الرهبان، والأساقفة، أو عن موضوعات أخرى مقدسة، ويتحتم تغيير الأسماء والتدخل بأي طريقة أخرى تبدو أفضل». في العام 1588م، أصدرت الكنيسة أمرًا بمنع طبع الكتاب ومنعه من التداول لاحتوائه على حكايات ونوادر ووصفات لتصرفات جنسية، تشجع على التحرر من المحظور، وتنبه العامة إلى أساليب محرمة وممنوعة. ولعل حكاية جيوفاني بوكاشيو كانت أيضًا مليئة بالغرائب مثل كتابه (الدكاميرون)، فهو ابن غير شرعي لبوكاشيو دي تشبلينو، أحد تجار إيطاليا، وفتاة فرنسية. ولد في باريس عام 1313م، وأمضى سنوات شبابه في مدينة نابولي يعمل بتجارة والده وفي الوقت نفسه يدرس القانون. في تلك الفترة قرأ هوميروس فهام به، وحفظ أشعار فيرجيل وأوفيد. وفي نابولي وقع في حب ماريا داكوينو، وهي التي عرفها القراء فيما بعد باسم «فاميتا» والتي

أصبحت الشخصية النسائية الرئيسة في عمله الكبير (الديكاميرون) حيث يصف لنا مغامراته العاطفية والجنسية معها. وبعد علاقة دامت أكثر من عشر سنوات أصيبت ماريا بمرض الطاعون، وبعد وفاتها يقرر أن يتفرغ للأدب، فيذهب في رحلة لزيارة قبري هوميروس وفرجيل، حيث ينذر أمامهما نفسه للأدب. وفي ذكرى وفاة محبوبته، يبدأ بكتابة (الديكاميرون) يروي فيه ذكرى الطاعون الخبيث الذي ما يزال عالقًا في ذاكرته، من خلال حكاية أبطالها ثلاثة من الرجال وسبع نساء يهربون خارج مدينة فلورنسا، خوفًا من الطاعون، حيث يصلون إلى مكان آمن، لكنهم لا يجدون ما يفعلون فيقضون الوقت برواية الحكايات فيما بينهم. وخلال عشرة أيام يروي كل واحد منهم عشر حكايات، ليكون مجموع الحكايات مئة حكاية، حيث يستخدم بوكاشيو فعل رواية الحكاية للهروب من خطر الطاعون وهروبًا من الموت. والرجال الثلاثة هم ثلاثة وجوه لشخصية واحدة هي شخصية المؤلف بوكاشيو، والنساء السبع صور متفرقة لحبيباته وأبرزهن ماريا التي أحبها أكثر من غيرها. ولعل كتاب (الديكاميرون) أول كتاب أدبي فاضح يعرف الطباعة، طبع عام 1371م، فقبله كانت مثل هذه الأعمال لا تعدو أن تكون مخطوطات محدودة الانتشار.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

إضافةً إلى الكتب الأدبية التي كانت تتناول موضوع الجنس والدين، قررت الكنيسة أن تضع الكتب العلمية تحت مقصلة الرقابة أيضًا، حيث تم منع العديد من الكتب الفلسفية والعلمية. ففي عام 1616م صدر قرار بحظر كتب كوبرنيكوس، كان كتاب (ثورة الأجرام السماوية) لكوبرنيكوس قد صدر عام 1543م، وتم تداوله لعقود طويلة بحرية، حتى

جاء عام 1615م حيث أصدر الإيطالي باولو أنطونيو كتابه (خطاب حول أفكار الفيثاغوريين وكوبرنيكوس)، وفيه يؤيد نظرية مركزية الشمس، مما أثار انتباه الكنيسة التي استخدمته في الخامس من آذار عام 1616م كحجة لفرض الحظر على كل مؤلف سابق وحاضر ومستقبلي. في العام 1610م واجه صدور كتاب (رسول من النجوم) الذي كتبه غاليليو اعتراضات علماء اللاهوت، وقد أزعجهم أن يُنشر كتاب يعارض النص المقدس، وقد طلبت الكنيسة من غاليليو أن يتوقف عن نشر أفكاره التي تتعارض مع الكتاب المقدس، لكنه لم يمتثل للأمر. وفي النهاية استدعي إلى المحكمة التي عقدتها الكنيسة وهناك عرضت عليه أدوات التعذيب، ثم طلب منه نفي النظرية التي تقول إن الأرض تدور حول الشمس، فأذعن. كان غاليليو قد تجاوز السبعين من عمره حين فرضت عليه إقامة جبرية في منزله ليصاب بالعمى.

في نفس العام الذي تمت فيه محاكمة غاليليو كان رينيه ديكارت ينوي نشر أول كتبه (انسجام العالم)، لكنه في اللحظات الأخيرة يقرر إتلاف الكتاب ويقول لأحد مقربيه: «ليس من الحكمة أن يفقد المرء حياته عندما يكون بإمكانه إنقاذ حياته دون خزي». بعد هذا التاريخ بثلاثين عامًا تصدر الكنيسة عام 1663م قرارًا بإدانة أعمال ديكارت، لأنها تتعارض مع ما جاء في النصوص المقدسة وتثير الشك في نفوس المؤمنين. وفي العام 1679م يصدر أمر بإدانة كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) لسبينوزا، ويمنع تداوله. في العام 1734م تقرر السلطات في إنكلترا منع تداول (مقال حول الفكر الإنساني) لجون لوك، وبعدها تتم إدانة مونتسكيو لنشره كتاب (روح القوانين). وفي التاسع من حزيران عام 1751م، يسجن الفرنسي دينيس ديدرو بعد نشر كتابه الشهير (رسالة إلى العميان)، الذي دافع فيه عن فلسفته الماديّة، مجاهرًا بإلحاده، حيث أراد أن يثبت من خلاله أن أفكارنا عن الصواب

والخطأ ليست مستمدة من الله، بل من خبرتنا الحسية، بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضًا مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة. في العام 1762م، تتم مصادرة كتاب (أميل) لجان جاك روسو، حيث تقدّم أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي بشكوى يتهم روسو فيها بالإلحاد وإفساد عقول الشباب، فأصدر المجلس عام 1762م قرارًا بحرق الكتاب والقبض على مؤلفه الذي كان في ضيافة إحدى الأميرات، التي سارعت إلى إيقاظ ضيفها في منتصف الليل، تتوسل إليه أن يرحل قبل أن تُدهم الشرطة القصر، فخرج متخفيًا منتصف الليل، ليبدأ رحلة المنفى إلى سويسرا.

وفي العام 1782م، يكتب الماركيز دي ساد الصيغة الأولى لروايته الأكثر إثارة (120 يومًا في سادوم أو مدرسة الفجور)، وتروي قصة أربعة مرضى عصابيين يسجنون 42 ضحية في قلعة ويجرون عليهم شتى طرق التعذيب الجنسية، وقد خبأها في جدار زنزانة بسجن الباستيل. الشخصيات الرئيسة الأربعة في الكتاب هي: دوق، وأسقف، وقاض وممول، وهم يمثلون الجماعات التي شكلت معًا النظام الأخلاقي والسياسي في فرنسا، وهي بالتالي الجماعات المسؤولة عن حفظ ساد في السجن. وقد ارتقى هؤلاء في المكانة الاجتماعية والثراء أثناء عهد لويس الرابع عشر، ولكنهم تراخوا بسبب انغماسهم في الإثارة الجنسية، وتحقيقًا لهذه الغاية، أغلقوا على أنفسهم لمدة أربعة أشهر في قلعة منيعة في سان مارتن دي بيلفيل بفرنسا، مع ست وأربعين ضحية، معظمهم من الذكور الشباب والإناث المراهقات، ويدخلون معهم أربع مديرات لبيوت دعارة ليروين قصص ومغامرات حياتهن.

ولد المركيز دي ساد في الثاني من حزيران عام 1740م لأسرة غنية، يعمل أفرادها في الجيش، والبعض الآخر منهم رجال دين. أرسلته عائلته وهو في الرابعة إلى جنوب فرنسا، لكي يشرف على تعليمه عمّه رجل الدين لكنه

يكتشف أن العم كان ماجنًا، ولم ينسَ دي ساد ما قاله له يومًا عمه هذا: «هل تصدق أنني أدعو إلى ملكوت الرب كل صباح، لكني أسهر في الليل مع عشيقتي؟ وهل تعلم إنني أعشق هذه المرأة وابنتها ومع ذلك فأنا قس؟» يعود إلى باريس سنة 1750م لإكمال دراسته الجامعية، ليصبح عام 1755م ملازمًا في فوج مشاة الملك. وما بين 1757 - 1763م، يشترك في حملات حرب السنوات السبع، وينال ترقيات عديدة. يتزوج عام 1763م، ولكنه بعد بضعة أشهر على الزواج، يحبس بسبب تحرشه الجنسي بفتاة قاصرة، ثم يُبعث إلى الإقامة الجبرية في نورماندي. بعدها يقوم بجلد شابة اسمها روس كيلر فيُغرم بمائة جنيه، وفرضت عليه الإقامة في قلعته في لاكوست التي سيتركها في عام 1796م إلى هولندا. في عام 1772م يتداول الناس فضيحته الكبيرة في مارسيليا، حيث قام بجلد أربع نساء بالسياط فقدمن شكوى ضده ليهرب إلى إيطاليا، وفي الثالث من أيلول يصدر حكم الموت غيابيًا عليه. في عام 1775م، يكتب (رحلة داخل إيطاليا أو طروحات قديمة تاريخية وسياسية وفلسفية فيما يتصل بمدينة فلورنسا وروما ونابولي). يعود سنة 1777م لرؤية أمه المحتضرة، فيعتقل ويسجن في فنسان. يهرب من السجن لكن هروبه لم يدم أكثر من 39 يومًا، إذ يلقى القبض عليه وهذه المرة يبقى في السجن لمدة 12 سنة. ومن داخل هذا السجن تبدأ مغامراته الكتابية. حيث ينجز العديد من الأعمال الأدبية التي خلدت اسمه بين كبار أدباء فرنسا وفلاسفتها، من بينها (محاورة بين كاهن ومحتضر) في 1782م، وهو نص أقرب ما يكون إلى المسرح، وأراد فيه أن يترك نصًا فلسفيًا لمجمل تفكيره في الدين.

في الرابع عشر من تموز سنة 1789م يتم احتلال سجن الباستيل فيطلق سراحه في الثاني من آذار 1790م. وفي عام 1791م، ينشر (خطاب مواطن باريسي إلى ملك الفرنسيين). في الثامن من كانون الأول عام 1793م يعتقل

بتهمة الانتماء إلى الثوار ويُحكم عليه بالموت، لكن من حسن حظه يُطلق سراحه بأمر من الثوار أنفسهم. وفي منتصف 1795م، تصدر روايته (الفلسفة في المخدع) ويضمّن دي ساد، في هذه الرواية، فصلًا يحرض فيه الفرنسيين على التصدي الحازم للدين وقساوسته المجرمين. وفي العام 1799م تصدر روايته (جوستين) يتبعها بـ(قصة جوليت)، أختها وهما روايتان تكملان الواحدة الأخرى. كان رجال الكنيسة هم أبغض البشر بالنسبة إلى الماركيز دي ساد، وبسبب موقفه منهم تعرض للملاحقة والمحاكمة، وقد كتب يخاطب البابا بابيوس الخامس قائلًا له: «يا سيدي البابا، هل تستطيع أن تدلني على العبارة الحكيمة التي نعيش في ظلها الآن، إن المسيحية دعوة إلى الزهد والتقشف، بل إنها تحقد على الأغنياء، وهي تقول إن السماء لا يدخلها غني واحد، وكان المسيح فقيرًا، وأتباعه فقراء، أما أنت والقساوسة فتعيشون في رخاء ونعيم، وأريد منك أن تدلني على العبارة في الإنجيل التي تنص على هذا الرخاء. أنت أمام الناس ظل الله على الأرض، ولكنك في بيتك هنا ظل الشيطان على الأرض». وعندما التقي دي ساد بجان جاك روسو نصحه الأخير قائلًا: «يجب أن تعكف على دراسة الفلسفة والأدب والفن ويجب أن تؤمن بالطبيعة، فهي مصدر الخير والفضيلة والجمال»، ولم يؤمن بما قاله روسو فقد كانت الطبيعة عنده تساوي الشر والرذيلة والقبح، والطبيعة مجرمة والطبيعة لا تخطئ في تطبيق قواعدها، إن الطبيعة تقتل الآلاف والملايين لا لشيء إلا لأنها تجد لذة كبرى في ميلادهم من جديد.

تصف سيمون دي بوفوار، الماركيز دي ساد بأنه أخلاقي بامتياز، «يشجع الناس على الفضيلة والأخلاق بإثارتهم نحو بشاعة الشر، حتى يقوموا بالتمرد عليه، لأنه يحاول إذلال القارئ باقتياده إلى أقاصي الفساد».

2
للذين يدركون جيداً معنى الحياة

كان أهم إنجاز شعري في القرن التاسع عشر، واحتاجت ولادته إلى خمسة عشر عامًا، لكن ديوان (أزهار الشر) الذي صدر عام 1857م بإهداء إلى تيوفيل جوتيه، جلب لشارل بودلير الشهرة ومعها المتاعب وملاحقة المحاكم. استنكره العديد من النقاد والسياسيين الذين رأوه «قذارة»، بينما قال غوستاف فلوبير الذي أصدر في نفس العام رواية (مدام بوفاري) إن الديوان كُتب «للذين يدركون جيدًا معنى الحياة». يرسل نسخة بخط يده من الديوان إلى أمه مع رسالة يخبرها فيها إن:

الكتاب الذي بين يديك والمعنون بأزهار الشر أنجزتُه بجنون وصبر، وقد توخّيت بداية الأمر عدم الكشف عنه، لكن عندما فكّرت في الأمر مليًا، بدا لي، بما أنكِ سمعت أحاديث عن هذه المجموعة، على الأقل من خلال الملخصات التي سأرسلها، فإن خجلي سيكون أكثر حمقًا من احتشامك المتطرّف.

لقد أبقيت لنفسي ست عشرة نسخة، مكتوبة على ورق عادي، ثم أربع أخرى دونت على ورق رفيع، احتفظت لكِ بواحدة منها، وإذا لم تصلك بعد، فلأني ارتأيت إرسالها في شكل مجلد. تعلمين بأني لم أعتبر قط الأدب والفنون كمطاردين لغاية غريبة عن المزاج وتكفيني جمالية المفهوم والأسلوب. غير أن هذا الكتاب المعنون بأزهار الشر،

الذي يقول كل شيء، اكتسته مثلما ستلاحظين جمالية كئيبة وباردة، وقد أنجزتُه بجنون وصبر. إضافة إلى هذا، يكمن الدليل على قيمته الإيجابية، في كل الشر الذي تضمنه. عمل يبعث لدى الأشخاص هيجانًا، بل ذعرت بدوري من الرعب الذي استلهمته، فحذفت منه الثلث مع توالي تعديلات مسوداته. لقد استنكروا لديّ كل شيء، فكر الإبداع وكذا معرفة اللغة الفرنسية. أسخر من كل هؤلاء الأغبياء، وأعلم بأن هذا العمل بمميزاته وهفواته، سيرسم طريقًا في ذاكرة الجمهور المثقف، إلى جانب أفضل قصائد فيكتور هوغو وتيوفيل جوتييه بل وحتى بايرون.

قبل صدور الديوان، كان بودلير قد نشر في الخامس والعشرين من أيار عام 1845م عددًا من القصائد في إحدى المجلات الأدبية، وفي عام 1846م ظهر إعلان عن ديوان للشاعر بودلير بعنوان (الأعراف)، ثم تكرر الإعلان عام 1849م لكن الاسم تغير من (الأعراف) إلى (أزهار الشر)، ولم يجد بودلير ناشرًا لديوانه إلا عام 1856م حيث غامر به أحد أصحاب المطابع، وكان يهدف إلى نشر بعض الأعمال الجديدة. وقد كتب الناشر على الغلاف الخلفي للديوان: «إننا في نشرنا لهذه الأشعار، ما نحسبه جديرًا بالاهتمام هو تلك المكاشفة الفياضة العجيبة حتى في عنفها، عن نوبات الاستضعاف وخور العزيمة، وأزمات الألم النفسي، التي لا يسعنا إلا الحرص على معرفتها بوصفها سمةً من سمات عصرنا». طبع من الديوان على نفقته الخاصة 1300 نسخة وبسعر ثلاثة فرنكات للنسخة الواحدة، اشتكى صاحب المطبعة من بطء الشاعر، فقد كان يرسل كل يوم صفحتين، ثم يدخل عليها تعديلات جديدة، يقول لصاحب المطبعة إن الدقة مطلوبة: «لتتذكر أن علامة الترقيم تستخدم لا في تحديد المعنى فحسب، ولكن أيضًا في تحديد الإلقاء».

في الخامس من تموز عام 1857م، تكتب صحيفة لو فيجارو أن هذه القصائد دمرت سمعة الشعر الفرنسي، وتدعو إلى ملاحقة الشاعر قضائيًا، وفي مقال شديد القسوة يكتب الناقد غوستاف بوردان: «هناك لحظات يشك فيها الإنسان في قوى بودلير العقلية. إن هذا الكتاب مستشفى مفتوح أمام جميع أنواع الخلل العقلي، وجميع أنواع عفن القلب، ونحن نفهم أن يندفع خيال شاب في العشرين من عمره إلى طَرق موضوعات كهذه، ولكننا لا نجد أي مبرر لرجل تجاوزت سنه الثلاثين أن يروج في كتاب لمثل هذه الانحرافات». يكتب بودلير لأمّه: «إني سعيد تقريبًا لأول مرة في حياتي. فالكتاب جيد تقريبًا، ولسوف يبقى هذا الكتاب شهادة على قرفي وحقدي على سائر الأشياء». وسرعان ما يتحول الهجوم على الديوان إلى نفاد معظم نسخ الطبعة الأولى، وينبه بودلير إلى صاحب المطبعة: «أسرع فلتُخبئ جيدًا بعض النسخ، ولتبقِ فحسب على خمسين نسخة لتغذية الحارس الشرس، العدالة».

في السابع من تموز عام 1857م، يتم تقديم شارل بودلير ومعه صاحب المطبعة التي طبعت ديوان (أزهار الشر) إلى المحاكة بتهمة انتهاك الأخلاق العامة. ويصف أحد الحضور هيئة الشاعر داخل قاعة المحكمة: «كان شاردًا، لا يلبس رباط عنق، رأسه محلوق، ويبدو وكأنه محكوم عليه بالإعدام». ويطالب المدعي العام الذي سبق له أن ترافع ضد رواية (مدام بوفاري) بمنع الديوان ومصادرته بحجة إهانة الأخلاق العامة والسعي لنشر الرذيلة والتعرض للقيم الدينية، بعد أن يقرأ على القضاة عددًا من القصائد يقول: «أيها السادة، أعتقد بأنني سردت ما يكفي من المقاطع لأؤكد على ما فيها من إهانة للآداب العامة وتجاوز للحدود التي يفرضها الحياء العام بوقاحة صريحة والإساءة إلى الدين، وبالتالي أنا أعذر هذا الحشد من الحضور على

هتافه بتلك الكلمات النابية لعلمي اليقين بأنهم لا يعلمون بعد ما تعنيه تلك الكلمات سوى رغبتهم الشديدة بالجنس الإيحائي فقط. سوف تقدرون بأنفسكم أيها السادة إذا ما كان بودلير قد أقدم على التجديف أم كان يعي بأنه يجدف فعلًا. وبالتالي ليكن حكمكم على تلك الميول غير الأخلاقية المتنامية التي تحمل أصحابها على أن يرسموا كل شيء ويقولوا كل شيء إلا إذا كانت عقوبة الإساءة إلى الآداب والدين قد ألغيت ولا وجود لها أمام العدالة».

تقضي المحكمة بأن بودلير مذنب، وتصدر قرارًا بتغريمه 300 فرنك مع حذف القصائد المتهمة بنشر الرذيلة. تأتيه النجدة من فكتور هيجو الذي يكتب إليه رسالة إعجاب وتقدير: «أزهارك تشع وتتألق كالنجوم، ولسوف تتلقى أحد الأوسمة النادرة التي يمنحها النظام الحقيقي.. وما يقال من أن القضاء قد أدانك باسم ما يقال إنه الأخلاق لهو إكليل إضافي لك». يكتب في رسالة إلى غوستاف فلوبير: «بدأت بكتابة (أزهار الشر) الجديدة، فالمحكمة لا تطلب إلا استبدال بعض القصائد، ربما سأضع عشرين. والأساتذة المحتجون سيكتشفون أنني كاثوليكي غير قابل للتقويم. وسأحاول أن أكون مفهومًا تمامًا: تارة بالغ الهبوط وتارة بالغ السمُو. وبفضل هذا النهج سأستطيع الهبوط حتى العواطف المقززة. ولن يكون هناك سوى ذوي سوء النية المطلقة الذين لن يدركوا لاشخصانية شعري المقصودة».

في العام 1861م ظهرت الطبعة الثانية من (أزهار الشر)، وهي آخر طبعة أشرف الشاعر بنفسه على إعدادها وأضاف إليها بدلًا من القصائد المحذوفة، خمسًا وثلاثين قصيدة جديدة، وقد ظهرت الطبعة بعد عام من وفاة بودلير الذي كتب قبل وفاته بأيام: «أيجب أن أقول إنني وضعت في هذا الكتاب العنيف كل قلبي، وكل حياتي، وكل ديني، وكل بغضائي؟».

***

كان حرس الإمبراطور أوغسطس قد وصلوا إلى منزل الشاعر أوفيد يحملون تعليمات من الإمبراطور تنص على وجوب نفي الشاعر إلى مقاطعة نائية على البحر الأسود، ليبقى فيها حتى وفاته. كان الشاعر قد التقى في إحدى الحفلات بالجميلة «آرلان» حفيدة الإمبراطور، فقرر أن يرتبط بها، وأن يتزوجها بالسر، لأنه يدرك أن الإمبراطور لن يقبل أن يتزوج شاعر بإحدى حفيداته. وكان المقربون من الإمبراطور قد أخبروه أن أوفيد كتب كتابًا بعنوان (فن الهوى) يسعى من خلاله إلى إفساد أخلاق الشباب. فيأمر الإمبراطور بحرق الكتاب، فالشاعر حسب التقرير الذي قُدّم إلى الإمبراطور يريد أن يلغي الفوارق الاجتماعية بين الطبقات، ويشجع على العاطفة التي كانت بالنسبة إلى الروماني فحشٌ. فقد اعتبر أوفيد العاطفة أمرًا متبادلًا بين الرجل والمرأة، وكتب: «أكره العناقات التي لا يعطي فيها كل طرف نفسه للطرف الآخر».

ولد أوفيد ناسو سنة 43 ق. م. في بلدة شرقي روما وتوفي في المنفى عام 18م، وكان أبوه التاجر الميسور قد أعده ليشغل إحدى الوظائف الإدارية المهمة في الدولة، لكنه أحس منذ صباه أنه لم يولد إلا ليكون شاعرًا. يسجل أوفيد في كتابه (فن الهوى) كل فلسفته في الحب، فهو يرى أن العاشق المثالي ليس بالصبي الحالم ولا بالذي يسمح لنفسه أن تفقد اتزانها في حضرة المحبوب. والكتاب يضم ثلاثة كتب، في أولها يشرح كيف يستطيع العاشق الاستيلاء على قلب محبوبته، وفي الثاني يعلمه كيف يحتفظ بهذا الحب أطول مدة ممكنة، والكتاب الثالث مخصص للمرأة وبه يقدم لها نصائح في كيفية المحافظة على حب الرجل.

و(فن الهوى) كُتِب على شكل قصيدة طويلة تميزت بالوضوح وحب الدعابة، وفي افتتاحية الكتاب يصف لنا كيوبيد إله الحب بـ«الصبي الغض»،

ثم ينتقل ليشبه الحب بالحرب، وأن مركبته لا تعدو حدود هذا الميدان الممتع:

بأهازيج النصر اُشدُ يا فتى

ثم اصدح مهلّلا أنّى مضيت

فها هي ذي من كنتُ أطاردها تقع فريسة في الشراك

وليتّوج بإكليل الغار جبيني من سَعِدَ في عشقه

ويحاول أوفيد أن يأخذ دور المعلم وهو يلقي على تلامذته دروسًا في العشق، ويضع لهم وصفات مفيدة تناسب الجميع، سواء كان العاشق مستجدًا أو متراخيًا أو مترددًا، ويقدم لقرائه الخطط التي تجعلهم يكسبون قلب حبيباتهم: «عليكم بفنون القول الرفيعة، لا تقصروها على موكليكم المتوجسين في ساحات القضاء، فليست المرأة أقلّ استسلامًا لسحر البلاغة من القاضي الجاد أو الشيوخ المنتخبين أو جموع المستمعين». وبعد أوفيد بألف عام يتعرض الفقيه الشاعر والأديب محمد بن حزم الأندلسي لمحنة النفي وإحراق الكتب، بسبب كتابه الشهير (طوق الحمامة)، حيث يودع السجن بأمر من حاكم أشبيلية المعتمد بن عباد لأنه كتب كتابًا يثير الغرائز ويفسد الأخلاق فقرر أن يحرقه، وفي ذلك يقول ابن حزم:

دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ

وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس إذ هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي

وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري

في صباح التاسع من نيسان عام 1821م، وفي بيت قديم من بيوت ضواحي باريس، ولد شارل فرانسو بودلير، لأب يشغل منصب أستاذ مساعد للبلاغة، وأمّ من عائلة فقيرة كانت تصغر زوجها بأربعة وثلاثين عامًا. في السادسة من عمره يتوفى والده فيتعلق بأمّه، ونجده يكتب بعد ثلاثين عامًا: «كان عندي ميل مبكر للنساء، كنت أخلط رائحة الفراء مع رائحة المرأة، لقد كنت أحب أمي لأناقتها». وفي مكان آخر من يومياته يكتب: «في صغري تعلقت بالحرير والعطور وسيقان السيدات»، ونجده يخبرنا أنه حين كان يفكر بأبيه يشعر بالراحة لغيابه، إن أمّه تشغل كل قلبه، وهي ملك له وحده لا ينازعه فيها إنسان مطلقًا، وإنه ليحبها ونجده سعيدًا بهذا الحب: «إن في طفولتي مرحلة من الهوى الجموح، اسمعي واقرئي دون خشية. أنا لم أحدثك عن ذلك بهذا المقدار، كنت دائما حيًا فيك، وكنت لي وحدي، لعلك تدهشين لأني أستطيع أن أتحدث بهوى عن زمن سحيق جدًا».

إلا أن هذه السعادة لم تدم طويلًا، وها هي أمّه تخونه، بعد أن قررت الزواج. كانت امرأة جميلة جدًا لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها، وكان الابن يصر على أن تكرس نفسها له لوحده: «عندما يكون للأمّ ابن مثلي، فهي لا تتزوج مرة ثانية مطلقًا». كان الزوج الجديد عسكريًا لامعًا، خاض معارك في النمسا وإسبانيا، في التاسعة والثلاثين من عمره، وفي لحظة ما تقرر الأمّ أن ترسل ابنها إلى مدرسة داخلية، فزوجها العسكري يريد للابن أن يتعود على حياة شبه عسكرية ومنظمة. وفي المدرسة يعتقد رفاقه أنه مصاب بمس من الجنون، كان يقرأ عليهم أشعارًا لهيجو ولامارتين. في عام 1836م يعين زوج الأمّ في منصب رفيع، حيث يتطلب نقله إلى وسط العاصمة باريس، كان شارل قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، يتمتع بذكاء حاد، ويصر السيد أوبيك على إدخاله إلى معهد لويس لوغران قائلًا لمدير المعهد: «سيدي، هذه هدية أقدمها لك، تلميذ سوف يشرف معهدك».

وفي السنة الأولى يفوز بالجائزة الثانية للشعر اللاتيني، ورغم تفوقه في الدراسة إلا أن المدرسين كانوا يشتكون من تمرده وعناده، وعندما يجتاز المرحلة الثانوية بنجاح، يقرر زوج الأمّ أن يدخل شارل في السلك الدبلوماسي، لكنه يعلن أمام أمه وزوجها أنه يريد أن يكرس حياته للشعر، وأن يؤلف كتبًا ويصير كاتبًا، إنه يريد «الطيران بأجنحته الخاصة». وبسبب مغامراته الجنسية يصاب بمرض الزهري، ويخبر الجنرال زوجته بالحال التي وصل إليها ابنها قائلًا: «فليكن شاعرًا إذا أراد، ولكن يجب ألا يضيع إلهامه في المجاري». تقرر العائلة أن ترسله إلى بلدة كريل حيث يوضع تحت المراقبة الشديدة الصارمة، ويخبرنا في يومياته أنه تعرض في تلك الفترة لأسوأ معاملة: «في ذلك الحين كنت رقيق المظهر، أنيق الهندام مثل امرأة تقريبًا. آه أولئك الوحوش كانوا يضيقون علي الخناق». وستصبح هذه الرحلة التربوية الإجبارية مصدرًا للعديد من القصائد، حيث تمنح شعره مذاقًا خاصًا.

يعود بودلير بعد أشهر إلى باريس بعد أن اتخذ قرارًا أن لا مهنة تصلح له سوى الأدب، وفي نيسان عام 1842م يترك رسالة إلى أمّه يقول فيها: «من المستحيل أن أكون مثلما يريدني زوجك، وبالتالي فأنا سأسرقه إنْ بقيت عنده فترة أطول، وأخيرًا، فلا أجد من اللائق أن يعاملني كما يريد، لا شك أني سأضطر إلى أن أعيش حياة قاسية، لكني سأكون أفضل حالًا». لم تستمر حالة الغياب عن المنزل طويلًا إذ سرعان ما يعود إلى سلطة زوج الأم بسبب افتقاره إلى المال، بعدها بعام يبلغ الحادية والعشرين من عمره وهي السن القانونية التي يستطيع من خلالها أن يحصل على جزء من ميراث أبيه، فيغادر المنزل وينتقل للسكن في شقة وسط باريس. يعيش حياة بوهيمي ثري، مع النساء والأفيون، يشارك في حضور اجتماعات «نادي الحشاشين»، وسيبدأ بكتابة القصائد الأولى من ديوانه (أزهار الشر). وبسبب تبذيره يفقد نصف

ميراثه في عامين، فتقرر أمّه رفع دعوى قضائية تطالب بوضع ما تبقى من ميراثه تحت رقابة وصي تعينه المحكمة، والمحكمة تحكم لصالحها، وهكذا تبدأ العائلة بمعاقبة الابن العاصي، وسيعاني بودلير من آثار الوصاية، إلا أنه لن يغير شيئًا من طباعه، وسيعاني طوال حياته من مطاردة الدائنين، وكتابة رسائل لأمّه للحصول منها على بعض المال.

في الثلاثين من حزيران عام 1845م يحاول الانتحار بالسكين بعد كتابة وصية يوصي فيها بأن تتولى جميع ممتلكاته إحدى عشيقاته اسمها جين لوميه، يكتب إلى أمّه: «إنني أموت في حالة قلق مرعب»، فيُنقل إلى المستشفى ويتولى زوج أمّه تسديد ديونه. بعد ثلاث سنوات يشارك بالانتفاضة الشعبية في باريس ويصدر مع اثنين من أصدقائه نشرة بعنوان (الخلاص العام) يكتب فيها: «إن في كل تبدل شيئًا سافلًا، ولذيذًا في آن، شيئًا مستمدًا من الخيانة والارتجال. وهو ما يكفي لتفسير الثورة الفرنسية». في عام 1852م يعثر على الأعمال الكاملة لإدغار آلن بو، وينشر أول نص هام بالفرنسية عن الشاعر الأميركي. يكتب إلى أمّه: «لقد عثرت على الكاتب الذي أثار في داخلي تعاطفًا لا يصدق». كان بودلير في هذه المرحلة من حياته مواظبًا على الكتابة، ينشر العديد من القصائد، إلا أن علامات المرض تبدو واضحة عليه حيث يصاب بالدوار بين الحين والآخر، يكتب إلى أمّه: «منذ أمد بعيد وأنا أقف على حافة الانتحار، وما يمنعني هو سبب بعيد عن الجبن وحتى عن الأسف. إنها الكبرياء التي تمنعني». بعدها يكتب في يومياته: «أثمة وقت بعد للسعادة، أربعون سنة ومجلس وصاية وديون ضخمة وأخيرًا، وذلك أسوأ شيء، إرادة ضائعة وفاسدة؟ من يدري ربما يكون الفكر نفسه قد فسد». ونجده يكتب إلى أمّه ثانية يقول لها: «بخصوص كتابي الجديد الذي حلمت به كثيرًا سيكون كتابًا من الأحقاد، إنني أريد أن أدفع إلى الإحساس بلا هوادة

بأني أشعر كغريب عن العالم ومعتقداته، سأوجّه ضد فرنسا كلها موهبتي الحقيقية في التضارب. إنني بحاجة إلى الانتقام مثلما يكون الرجل المرهق بحاجة إلى الاستحمام». بعدها بعام يتوجه إلى بلجيكا لإلقاء محاضرات في الأدب، فيصاب بحالات من الدوران والغثيان وآلام عصبية. بعد معرفته بالمدائح التي وجهها إليه الشبان مالارميه وفرلين يكتب: «هؤلاء الشباب يبثون فيَّ الخوف من الكلاب، لا أحب سوى البقاء وحيدًا».

في الحادي والثلاثين من آب عام 1867م، يُصاب من جديد بحالة إغماء، كان قبلها قد أصيب بالشلل، فقررت أمه العناية به، بعد ساعات من حالة الإغماء. في الثالث من أيلول من نفس العام يدفن في مقبرة مونبارناس.

يكتب جان بول سارتر في دراسته عن بودلير: «موقف بودلير الأصلي هو موقف العاكف على نفسه يتأملها. فليس لديه شعور مباشر لا تخترقه نظرة مرهفة. نحن عندما نتأمل مثلًا شجرة أو بيتًا نستغرق في هذه الأشياء وننسى أنفسنا، أما بودلير فإنه لا ينسى نفسه أبدًا. فهو يتأمل نفسه عندما يتأمل الأشياء، وهو ينظر إلى نفسه ليرى نفسه يُنظر. إنه يتأمل شعوره بالبيت وبالشجرة لذا لا يراها إلا أشد ضآلة وأقل وقعًا كما لو كان ينظر إليها من خلال عدسة مصغرة. فلا تدل إحداهما على الأخرى كما يدل السهم على الطريق أو الإشارة إلى الصفحة».

ويضع سارتر مقارنة بين طفولته وطفولة بودلير، فالشاعر مات أبوه، فتعلق بأمه، ورأى فيها مصدر وجوده وقوته، فلما تزوجت الأم، أحس بودلير أنه ضائع، وأنه في عالم عدمي لا قيمة لوجوده «لقد كان زواج أم بودلير تصفية للوجود». لذلك أحس بودلير أنه لم يعد شيئًا، لم تعد قيمة لوجوده، فلا أهمية له، ولا أهمية للعالم كله، فقد أصبحت الدنيا عبثًا. وخطأ بودلير أو كما يسميه سارتر «غلطة بودلير» أنه جعل من أمه إلهًا، جعلها

الشيء المطلق في عالمه، فقد قرر ألا يكبر، وأن يظل معتمدًا على أمه، وهذا الاعتماد في رأي سارتر أفقد بودلير حريته، أي جعله غير مسؤول، فبودلير من وجهة نظر سارتر هو الذي رفض الحرية، واختار أن يظل سجينًا داخل قفص صنعته له أمه.

في خاتمة ديوانه (أزهار الشر) يكتب بودلير:

إني استخلصت من كل شيء الجوهر

أعطيتني طينك فصنعت منه الذهب

وعلى سرير الموت يكتب في دفتر يومياته:

أنا الجرح والسكين

أنا الصفعة والخد، أنا الأعضاء وآلة التعذيب

والضحية والجلاد.

مكتبة 1049

3
كان يريد أن ينثر الشك في كل الاتجاهات

العشرون من آذار عام 1932م، الحكومة المصرية تعقد اجتماعًا طارئًا، لم يكن على جدول أعمالها سوى قضية واحدة، وبعد ربع ساعة من الاجتماع خرج رئيس الوزراء إسماعيل صدقي إلى مندوبي الصحف الذين تجمعوا بانتظار قرارات المجلس ليعلن لهم: «استنادًا إلى الصلاحيات المخولة لنا، قرر مجلس الوزراء فصل الموظف بوزارة المعارف العمومية طه حسين أفندي من خدمة الحكومة». بهذه الكلمات اعتبرت الحكومة المصرية أن الأزمة التي استمرت ست سنوات كاملة، قد انتهت.

كان طه حسين قد بدأ بكتابة (في الشعر الجاهلي) في كانون الأول عام 1926م، وأنجزه بعد شهرين لينشر في أيار من العام نفسه، وبعد خمسة أشهر من توزيع الكتاب أصدر رئيس نيابة مصر القرار التالي: «بتاريخ 30 أيار سنة 1926م تقدم بلاغ من الشيخ خليل حسنين الطالب بالأزهر لسعادة النائب العمومي يتهم فيه الدكتور طه حسين بأنه ألف كتابًا أسماه (في الشعر الجاهلي)، وفيه طعن صريح بالقرآن الكريم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوي الكريم». وبتاريخ 5 حزيران أرسل فضيلة شيخ الأزهر لسعادة النائب العام خطابًا يُبلغ به تقريرًا رفعه علماء الجامع الأزهر عن كتاب ألفه طه حسين المدرس بالجامعة المصرية أسماه (في الشعر الجاهلي) كَذّب فيه القرآن صراحة وطعن بالنبي (ص). وأهاج بذلك ثائرة

المتدينين، وأتى بما يخل بالنظم العامة، ويدعو الناس للفوضى. وطلب اتخاذ الوسائل الفاعلة الناجعة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمي وتقديمه للمحاكمة.

وبتاريخ 14 أيلول سنة 1926م، تقدم إلينا بلاغ آخر من حضرة عبد الحميد البنان أفندي عضو مجلس النواب، ذكر فيه أن «الأستاذ طه حسين المدرس بالجامعة المصرية نشر وعرض للبيع في المحافل والمحلات العمومية كتابًا أسماه (في الشعر الجاهلي) طعن وتعدى فيه على الدين الإسلامي بعبارات صريحة واردة في كتابه. وحيث إنه نظرًا لتغيب الدكتور طه حسين خارج القطر المصري، قد أرجأنا التحقيق إلى ما بعد عودته». هكذا توالت البلاغات على النائب العام حيث وصل عددها إلى أكثر من ثلاثين بلاغًا جميعها تطالب بتقديم طه حسين إلى المحاكمة وحرق كتابه (في الشعر الجاهلي) بالساحات العامة.

كان طه حسين آنذاك في السابعة والثلاثين من عمره، يقضي إجازة الصيف في فرنسا، لكنه فوجئ ببرقية مستعجلة يرسلها صديقه محمد المرصفي يخبره فيها بأن كتابه في الشعر الجاهلي عرض على البرلمان، وأن البرلمان «ناقش طردك من الجامعة. وقد هدد رئيس الوزراء بالاستقالة. تدخل سعد زغلول، أحيل الموضوع إلى النيابة العامة. النيابة تطلب حضورك للتحقيق معك».

لم يخبر المرصفي صديقه طه حسين بأن أمورًا أخرى جرت خلال الأيام الماضية، فطلبة الأزهر ومعهم بعض المشايخ نظموا تظاهرة توجهت إلى بيت سعد زغلول تطالبه بالاقتصاص من طه حسين، ويتحدث أحد المشايخ نيابة عن المتظاهرين ليقول لسعد زغلول: «نعلن إليك يا مولانا أننا كما اتخذناك سلاحًا نحارب به المغتصبين، فستتخذك سلاحًا نحارب به الملحدين».

في مجلس النواب كان هناك مشهد آخر، جلسة عاصفة وقف فيها النائب

مصطفى الغاياتي ليقول: «ما كان المظنون به أن يوجد بين المسلمين في مصر من يجرؤ على الدين إلى هذا الحد الذي وصله طه حسين أفندي» ثم يطالب بحرق الكتاب ورجم المؤلف. ويتحدث رئيس الجامعة أحمد لطفي السيد ليخبر المجلس أن الجامعة منعت انتشار الكتاب، بأن اشترت جميع النسخ وحفظتها في مخازنها. كما اتخذت إجراءات لمنع طبع نسخ أخرى.

في السادس من تشرين الأول عام 1926م، يقطع طه حسين إجازته ويعود إلى مصر، وفي اليوم التالي يذهب إلى النيابة العامة، فيجد القاعة الكبرى وقد امتلأت بمراسلي الصحف، وبعدد من علماء الأزهر وطلبته، وقد انحصر التحقيق في أربع نقاط أساسية:

1- مسألة وجود النبي إبراهيم وولده إسماعيل في الجزيرة العربية

2- مسألة القراءات السبع للقرآن

3- الحديث حول قريش

4- وجود الإسلام في البلاد العربية

مكتبة
t.me/t_pdf

ويبدأ التحقيق:

س: لماذا حاولت في كتابك التعرض إلى الدين الإسلامي؟

ج: لم أُعرِض بالدين، وقد اقتصر بحثي على العلم والاستدلال بالعلم.

س: هل تعتقد أن القرين وحده كاف لإثبات الوقائع التي وردت فيه؟

ج: تنقسم الوقائع إلى قسمين: الحوادث المعاصرة لنزول القرآن، وهو صحيح، والحوادث التي حدثت قبل نزول القرآن وهي عبارة عن قصص أراد الله بها إقناع عبيده وهدايتهم.

لم يكن طه حسين يتصور أن كتابه يمكن أن يثير كل هذه الضجة، فهو

يعتقد أن منهجه في البحث العلمي يتيح له أن يطبق نظرية الشك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي ديكارت على تاريخ الأدب العربي، ولهذا نراه يكتب في مقدمة كتابه (في الشعر الجاهلي): «إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًا، ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة الجاهليين. ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًا لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي».

لعل الجزء الخطير في هذا المقطع، هو إثارة الشك فيما يتعلق بالتراث العربي، إن طه حسين يشك في كل شيء، ويريد لهذا الشك أن يصبح منهجًا يُدرس في الجامعة، فهو يكتب في بعض صفحات الكتاب: «نحن بين اثنين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قاله القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو من كل بحث، وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث. لقد نسيت فلست أريد أن أقول البحث، وإنما أريد أن أقول الشك».

***

منذ شبابه تملكته رغبة في التعرف على أصل الكون وطبيعة عقل الإنسان وعمل الطبيعة، قال لوالدته أريد أن أبحث عن الحقيقة، وأن أبدأ من الصفر. يكتب في مقدمة كتابه (المقال عن المنهج)، إنه يسعى من خلال الفلسفة إلى: «معرفة واضحة ومؤكدة عن كل ما هو نافع في الحياة». ويذهب رينيه ديكارت المولود عام 1596م، في مدينة صغيرة بالجنوب الفرنسي إلى المناداة بالاعتماد على الحجج العقلية لإدراك الأشياء، الأمر الذي استفز الكنيسة التي كانت ترى في هذا القول نوعًا من الهرطقة، فديكارت يعلن أن الحكم على الأشياء

لا يجوز أن يرتقي إلى مرتبة المعرفة، ما لم يبرهن عقليًا، يعني ما لم يثبت صحته اعتمادًا على مدركات واضحة، وهذا يعني أن القول بأن اللاهوت وحده هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحقائق ليس كافيًا، وإن الفلسفة ليست مجرد خادمة أو تابعة للاهوت كما تريد الكنيسة، بل هي وسيلة أسمى، ويتعين عليها أن تعمل بمعزل عن تعاليم الدين.

بنى ديكارت صورة العقل الجديدة بعد أربع سنوات من إدانة غاليليو غاليلي، كان لا بد أن يصبح العقل فاتحًا لعالم جديد، ولم يعد «العقل السليم مسؤولًا إلا أمام نفسه». كانت المعرفة في زمن ديكارت مزيجًا غريبًا من الحقيقة والخيال، من الأسطورة والغيبيات والعقائد الدينية. في تلك السنوات وبالذات عام 1629م انتهى ديكارت من تأليف كتاب عن الظواهر الطبيعية بعنوان (العالم) ذهب فيه إلى أن الشمس توجد في مركز الكون، لكنه وهو يسعى لنشر الكتاب، كانت الكنيسة تحاكم غاليليو بسبب الفكرة نفسها عن الشمس والأرض. أدرك ديكارت أن طرقه الجديدة في البحث ربما تثير عليه نقمة رجال الدين، فقرر أن يعتزل الناس ويبحث في شؤون الفلسفة بعيدًا عن عيون رجال الكنيسة: «ابتعد عن عيون الناس إذا أردت أن تحيا سعيدًا».

في عزلته بهولندا التي استقر فيها، وضع ديكارت أولى خطوات منهج الشك الذي اشتهر به، ورغم أن هذا المذهب موجود منذ القدم، حيث كانت تعيش في اليونان القديمة مجموعة فلسفية أطلق عليها اسم «الشكاك» يعتقدون أن الإنسان ليس في استطاعته الوصول إلى الحقيقة إلا من خلال الشك في صحتها. فذهب هيراقليطس إلى أنه لا يمكن معرفة العالم تمامًا لأنه دائم التغير، حتى أنه كان يعتقد أن جميع الظواهر خادعة ومضلِّلة ومن ثم فهي مثار شك وسؤال، لأننا إذا ما قبلنا شيئًا على أنه معرفة، فإن علينا أن نعثر على برهان أو ضمان لهذه المعرفة، وهذا البرهان نفسه يحتاج إلى نوع ما من الضمان أو البرهان. وهكذا إلى ما لانهاية.

بدأ ديكارت يطبق منهج الشك من خلال كتابه (التأملات) الذي كتبه عام 1639م، حيث كان يعيش حياة شبه منعزلة، وفي هذا الكتاب يسجل يومياته على شكل تأملات بلغت ستة تأملات، ويخبرنا أن كل تأمل استغرق منه يومًا كاملًا. في خطاب يرسله إلى أحد أصدقائه يوضح ديكارت منهجه في الشك: «تخيل أن لديك مجموعة من التفاح تريد حفظها في سلة، إن الرجل الحكيم لا بد أن يتأكد أن جميع التفاح سليم، إذ لو كانت إحدى التفاحات معطوبة، فسوف تفسد في النهاية جميع التفاحات الأخرى، ومن ثم فإن أي تفاحة يكون فيها أدنى شائبة، لا بد من استبعادها بلا هوادة على أنها لا تصلح». وهذا هو بالضبط ما يفعله الشك الديكارتي. فديكارت يريد أن يخبرنا أن تفاحة المعرفة التي تبقى في نهاية العملية سوف تكون متميزة للغاية، وستكون من الشيء الحقيقي المضمون، وهو المعرفة التي لا يمكن الشك فيها. لقد عمل ديكارت على بناء فلسفته على أساس المنهج الذي وضعه: «أصبحت على يقين بأنه ينبغي أن أتخلص مرة وإلى الأبد من كل الآراء التي سلمت بها من قبل، وأن أبدأ البناء من جديد من الأساس إذا أردت أن أضع بناءً ثابتًا للفلسفة والعلوم». ولما كان الشك في الأشياء تفكيرًا، كان التفكير هو الحقيقة الوحيدة اليقينية الثابتة التي اتخاذها ديكارت كنقطة انطلاق في بناء هيكل المعرفة الذي تأسست عليه فلسفة الشك. يكتب ديكارت في كتابه (التأملات): «أفترض إذًا أن كل الأشياء التي أراها كاذبة وأميل إلى الاعتقاد أنه لا وجود لكل ما أتذكره، لأن ذاكرتي تخطئ وأحسب أني خالٍ من الحواس وأتصور أن الجسم والشكل والامتداد والحركة والمكان، إنما هي وهم من أوهام عقلي، فما عسى إذًا أن يكون صادقًا؟ لعل شيئًا واحدًا لا غير صادق، وهو إنه لا وجود في العالم لشيء يقيني».

لقد كانت صياغة المنهج بالنسبة لديكارت خطوة أولية وأساسية، فقد

كان يطمح إلى اكتشاف ما عساها أن تكون معرفة الأشياء الموجودة التي يمكن بلوغها باليقين، وكان يعتقد أن الكثير من المعلومات التي حصل عليها زائفة، ولم تكن لديه وسيلة لتمييزها، حتى وجد منهجًا خاصًا به. وعندما أصبح لديه منهج بادر باستخدامه في التأمل الأول من كتابه (التأملات)، حيث شرع بالشك في كل شيء يمكن الشك فيه، لكي يكتشف ما هو على يقين منه بصورة مطلقة، لأنه لا يستطيع أن يشك فيه بدون أن يفترض وجوده. لقد وجد أن الحواس تخدع الإنسان باستمرار، ولذلك من الأفضل عدم الثقة بها، لقد تذكر أنه حلم في ليلة إنه يرتدي عباءته ويجلس قرب النار، بينما كان نائمًا في فراشه، فربما هو يحلم الآن، وقد لا يكون على الإطلاق في المكان الذي يفترض نفسه فيه في الواقع. لذلك وجد ديكارت أنه من الممكن نظريًا الشك في شهادة حواسه، وذاكرته وأفكاره ووجود العالم الخارجي، لكنه وجد شيئًا لا يمكن الشك فيه، وهو واقعة وجوده الخاص: «أنا أفكر إذًا أنا موجود»، ويسأل ديكارت بعد ذلك «ما عساي أن أكون؟» وإجابته أنه شيء يفكر، أعني شيئًا يشك ويفهم ويتصور وينكر ويريد ويرفض ويتخيل ويشعر، إن الذي يفعل ذلك كله لا بد أن يكون نفسًا، أي جوهرًا روحيًا يكون التفكير صفته الأساسية، فلا يمكن أن تكون هناك أفكار بدون مفكر، ولا يمكن لصفة مثل التفكير أن توجد، إذا لم يكن هناك جوهر يلازمها.

أدرِجت كتب ديكارت في قائمة الكتب الملعونة والمحرمة قراءتها من قبل الكنيسة عام 1663م، والقساوسة الذين حاول ديكارت تجنبهم كانوا في طليعة المطالبين بحظر أعماله، وكان قرار حظر أعمال ديكارت هو الأول ضمن سلسلة من قرارات الحظر التي بلغت ذروتها عام 1691م، حيث صدر أمر ملكي يمنع تدريس أي شيء عن الفلسفة الديكارتية في أية مؤسسة في فرنسا.

تذكر سوزان زوجة طه حسين، الأزمة التي أثيرت حول كتاب (في الشعر الجاهلي)، فتكتب في مذكراتها: «الضجة التي اقترنت بهذا الكتاب، وثورة الجهل والتعصب التي أعقبت صدوره نعرفها جميعًا، أما ما لا نعرفه فهو ما كانته هذه المحنة في نظر زوجي الذي كانت رزانته الثابتة تمنعه من الشكوى، لقد بدأ كتابة هذا الكتاب في كانون الأول عام 1926م وأنجزه في آذار من العام نفسه».

ولم يشأ طه حسين أن يرد على سيل الهجوم الذي كان يزداد يومًا بعد آخر، إلا أنه أجاب فيما بعد على أسئلة وجهها له صديقه أحمد حسن الزيات ونشرت في مجلة (الرسالة) في عددها الصادر في أيار عام 1926م.

- أية عاصفة تلك التي أثرتها يا دكتور؟

يجيب طه حسين:

- ضجة كبيرة لأمر تافه، إن الأستاذ الذي يلقي دروسه بأمانة كثيرًا ما تُعرض له في المادة التي يُدرسها ملاحظات ومباحث شخصية كما تُعرض له في بعض الأحيان نظريات أيضًا، وطبيعي جدًا أن يجمع هذه الملاحظات ويصوغها في قالب تحليلي يعرضه مع شيء من التفصيل.
- ولكنك تعرضت لمسائل تُعرف أنها شائكة.
- نعم، ولكني طلبت مدفوعًا بشغف مهنتي إلى أولئك الذين لا يعرفون مناهج النقد الحديثة والبحث الحر ألا يقرأوا كتابًا لم يكتب لهم، إن كتابي جدير بما هو جدير به، وقد لا تكون له قيمة إلا في نزاهة بحثه.

يذكر الدكتور طه حسين في كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلي، فيذكر البواعث الدينية والسياسية، وأثر القصاص والشعوبية والرواة في هذا الانتحال، ثم يستعرض الشعراء مؤكدًا ما ذهب إليه من أن أكثر ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول، رافضًا الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن؛ لأن لليمن لغة تُخالف لغة قريش.

ويقول: «إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولًا، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيًا، فالشعر الذي يضاف إلى (جُرهم) وسواهم من الذين عاصروا إسماعيل منحول، وليس لليمن في الجاهلية شعراء، أما ربيعة وهي من عدنان، وتسكن في الشمال، فشعرها دون شعر المضريين، وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنًا، فالشعر أصلًا في مضر دون اليمن أو ربيعة، فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة، فالشعر إنما كان في مضر ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية منها، وهم ربيعة ثم إلى القبائل البعيدة، كاليمن، ثم إلى الموالي وليس كما يقول علماء العربية من أن الشعر كان في اليمن، ثم انتقل إلى ربيعة، ثم إلى قيس من مضر، ثم إلى تميم، وشعراء المدينة ليسوا يمنيين، بل هم مضريون».

ويبدو أن طه حسين كان يضع صورة ديكارت الذي أغرم به أمامه وهو يحاول أن يثير الشك في تراث الشعر الجاهلي، متخلصًا من كل أفكاره القديمة التي عرفها من قبل، ولذلك رأى أن هذه الوفرة في الشعر الجاهلي بالفعل لا يمكن أن يقبلها عقل أو منطق، نظرًا لأن هذا الشعر كان يُنقل شفاهة ولم يتم تدوينه، كما أن الكثير من الرواة ماتوا في الحروب وغيرها، وبالتالي لا يمكن أن يُنقل إلينا كل هذا التراث بهذه الوفرة، حيث لم تُعرف الكتابة والتدوين إلا قبل الإسلام بقرن واحد فقط من الزمان، وهو ما ينفي أن يكون كل ما وصل إلينا بالفعل من تأليف شعراء عاشوا في العصر الجاهلي.

وفي مواجهة كتاب (في الشعر الجاهلي) صدرت كتب عديدة منها: (نقد كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد فريد وجدي، و(الشهاب الراصد) لمحمد لطفي جمعة، و(نقض كتاب في الشعر الجاهلي) للشيخ محمد الخضر حسين، و(محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي) للشيخ محمد الخضري، و(تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعي و(النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي) للدكتور محمد أحمد الغمراوي، وعشرات بل مئات غيرها من الكتب والمقالات والأبحاث.

والغريب أن مطاردة طه حسين لم تتوقف حتى بعد صدور قرار فصله من الجامعة، فكانت هناك دعوات تطالب برجمه. حيث نشر أحد علماء الأزهر قصيدة بعنوان (طريد الدين)، طالب فيها بإعدام طه حسين:

لو أن شرع الله يجري حكمه

لقضى بإعدام الشقي الملحد

وهو الأمر الذي أثار أحمد لطفي السيد رئيس الجامعة الذي قدم استقالته إلى رئيس الوزراء، لأنه كان يرى في الهجمة على طه حسين إساءة لكرامة البحث العلمي وكرامة الجامعة.

4
الرجل الذي جعل الكون يصرخ من الألم

في عام 1610م أعلن غاليليو غاليلي أن منظاره الذي صنعه بنفسه استطاع أن يكشف عن أقمار «جوبيتر» والذي سميَّ «المشتري»، وما أن انتشر الخبر حتى أعلنت الكنيسة أن هذا الاكتشاف يريد أن ينفض التراب عن كتاب (دورات الأجرام السماوية) للملحد نيكولاس كوبرنيكوس. كانت الكنيسة قد وضعت أسس ما يسمى بالعلم السلمي، حيث إن الطريق القويم الذي رسمه الدين لكي يكون وسيلة للوصول إلى الحقائق المتعلقة بعلم الفلك، هو طريق التفكير اللاهوتي المدعم على أساس النصوص المنزلة في التوراة والإنجيل، التي أكدت على أنه لا يمكن أن يوجد أكثر من سيارات سبع، وبرهانًا على ذلك وجود تلك المنابر السبع التي ذكرت في سفر يوحنا، ثم المنابر السبع التي جاءت في قصة سليمان في التوراة.

أما ما يذهب إليه غاليليو فيترتب عليه أن تتهدم الحقائق الكنسية وتزول، وعبثًا حاول غاليليو أن يبرهن على وجود الأقمار من حول المشتري بأن يريها للمشككين من خلال منظاره، فإنهم كانوا لا ينظرون فيه على اعتقاد أن النظر من خلاله كفر، وأن ما يظهر في منظار غاليليو ما هو إلا خيالات يصورها الشيطان.

كان غاليليو قد وقع في يده قبل أعوام كتاب (علم الفلك الجديد) ألفه أحد الفلكيين الألمان المعاصرين اسمه جوهانز كبلر، قرأه بعناية وعندما

انتهى منه شعر كما لو أن الكتاب يتحداه لأن: «يكتب أفضل منه»، فأصدر بعد سنوات أول كتبه بعنوان (رسول النجوم)، ووضع في الصفحة الأولى منه الإهداء التالي: «عظماء كثيرون نالوا شرف إقامة تماثيل لهم في الميادين، وآخرون أطلقت أسماؤهم على الشوارع والأبنية الضخمة. بدوري أهديكم شرف اكتشاف أقمار المشتري الأربعة.. الأبنية والتماثيل ستفنى وتزول مع الزمن، لكنها الأقمار في السماء التي ستظل مضيئة إلى الأبد».

ولم يكتف غاليليو بذلك، فقرر أن يستمر في خوض المعركة حيث أراد وهو يقدم كتابه الثاني (حوار حول النظامين الرئيسين للكون) أن يثبت أن تفسير الآيات المقدسة تفسيرًا حرفيًا لا يجب أن يطبق على حقائق العلم، فأصدرت الكنيسة ردًا أكدت فيه أن ذلك الكتاب يؤكد على هرطقة غاليليو، وأنه أشد إفسادًا من كوبرنيكوس.

كانت الحرب ضد نظرية كوبرنيكوس قد هدأت بعد أن أعلنت الكنيسة أن أعظم برهان على فسادها أن الكتب السماوية أثبتت أن دعائم الأرض مثبتة تثبيتًا بحيث لن تتحرك أو تتحول عن مكانها، وأن الشمس تجري كل يوم من أحد طرفي السماء إلى الطرف الآخر. إلا أن منظار غاليليو وكتاباته كانت تجوب أنحاء السماء، وسرعان ما أعلن غاليليو أن هناك جبالًا ووديانًا في القمر، وأنه يستمدّ نوره من انعكاس ضوء الشمس. وخرجت الكنيسة من جديد لتعلن أن ما كتبه غاليليو يتناقض مع الإنجيل الذي أكد أن القمر عبارة عن ضوء عظيم.

لقد رافق صدور كتاب (رسول النجوم) موجة شديدة من اعتراضات قادها رجال الدين، وقد أزعجتهم إمكانية أن تترك تلك القراءة التجريبية والمبتكرة للطبيعة، والمغرضة لتفسير النصوص المقدسة، آثارًا غير متوقعة على المفهوم الأرسطي الجامد للعالم. ولهذا كان لا بد من أن يصدر مرسوم

من الفاتيكان عام 1616م يطالب بعدم الابتعاد عن التفسيرات الوحيدة التي يتيحها الكتاب المقدس، موزعًا الاتهام بالهرطقة على كل الذين يخالفون ما جاء في التوراة والإنجيل، وصدرت الأوامر بأن تصبح الرقابة على الكتب العلمية ضرورة لا غنى عنها. واضطر ناشرو الكتب إلى تبني مزيد من الحرص، وقد تعرض ناشر كتاب (رسول النجوم) إلى الملاحقة القضائية ما دفعه إلى التوجه بشكل كامل إلى طبع الأعمال الدينية واللاهوتية، وبعد عام شكل الفاتيكان ما سمي آنذاك «مجمع القائمة» مهمته إصدار تعليمات بالنشر، وقد أصدر المجمع قائمة بالكتب الملعونة ضمت أعمال كلبر وغاليليو وكوبرنيكوس وديكارت وهوبز.

***

في سنة 150 للميلاد وضع الفلكي المصري بطليموس مجموعة من المبادئ الفلكية حاول من خلالها تبني نظرية تفترض أن الأرض مركز الكون. وقبل ذلك بأربعة قرون عرض أرسطرخس وهو فلكي يوناني، النظرية القائلة بأن الشمس مركز الكون، وكان أرسطرخس أحد الفلاسفة السفسطائيين، يؤمن أن مهمة الفيلسوف أن يعالج عقول الناس بدلًا من بطونهم، وأن يدلّهم على معتقدات أصح من معتقداتهم تكون أنفع لهم وأجدى. بعد ألفي عام على نظرية أرسطرخس وبالتحديد سنة 1540م أدرك عالم الفلك والرياضيات البولوني نيكولاس كوبرنيكوس أن الحركات المعقدة الظاهرية للكواكب يمكن تعليلها بأن الشمس ثابتة في حين أن الأرض والكواكب الأخرى تدور في مدارات حول هذا النجم الباهر.

ولد نيقولا كوبرنيكوس يوم التاسع عشر من شهر شباط عام 1473م في مدينة بولونية تدعى تورون، ومات عام 1543م في مدينة تدعى فرومبورك.

وكانت ولادته في عائلة من التجار والموظفين الكبار، فقد كان والده قاضيًا، لكنه توفي مبكرًا عندما كان عمر نيقولا عشرة أعوام، فتبناه خاله القس وأخذه ليعيش معه في مدينة كراكوفيا حيث حرص على إدخاله إلى أفضل المدارس. وفي عام 1491م دخل إلى جامعة كراكوفيا، حيث درس الصناعات والحِرف، ولكن من دون أن ينال أي شهادة.

وقبل أن يترك مدينة تورون عينه خاله كاهنًا قانونيًا في مدينة فرومبورك، حيث أشرف على الشؤون المالية للكنيسة، ثم سافر بعد ذلك إلى إيطاليا، حيث درس القانون الشرعي المسيحي والطب في جامعة بولونيا الإيطالية. كما درس بعد ذلك علم الفلك. بعدها أقنع خاله أن دراسة الطب أمر له أهميته لخدمة الكنيسة، وكانت دراسة الطب في تلك السنوات مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بدراسة علم النجوم، فقد كانت الفكرة السائدة أن هنالك روابط غامضة بين أعضاء الجسم وحركة النجوم. أتمّ كوبرنيكوس دراسة الطب بعدها عاد إلى بلدته لرعاية خاله المسن، وأثناء عمله مستشارًا قانونيًا للكنيسة أخذ يقرأ كل ما يتعلق بعلم الكواكب، وقد استقر في أحد أبراج سور الكاتدرائية منشغلًا بدراسة مقاسات الأفلاك من خلال استخدام أجهزة بسيطة صنعها بنفسه ليصدر عام 1543م كتابًا بعنوان (دورات الأجرام السماوية)، كتب عنه غاليليو فيما بعد إن «الدنيا كانت في أمَسّ الحاجة إليه».

لم ينجز كوبرنيكوس كتابه (دورات الأجرام السماوية) إلا عام 1530م ولم يُنشر إلا يوم 24 أيار عام 1543م، كان قد بلغ السبعين من عمره. ويقال إن نسخة من الكتاب وضعت بين يديه أثناء احتضاره حيث كان في غيبوبة المرض يعاني من الصرع ونزيف في المخ، ليتوفى بعدها بساعات. ويقال إنه تأخر في نشر كتابه خوفًا من غضب الكنيسة، فقد كان يعرف أنه بهذا الكتاب سيزعزع الأفكار السائدة في عصره، فقد كانت الكنيسة تتبنى آراء أرسطو عن

الكون، وهي النظرية التي تقول إن الأرض هي مركز الكون، وإن الشمس تدور حولها كما هو ظاهر للعين المجردة. وخلعت الكنيسة على هذا الاعتقاد طابع القداسة، حيث سيتعرض كل من يشكك فيه إلى الملاحقة القضائية. وكان كوبرنيكوس قد أهدى كتابه إلى البابا بولص الثالث، حيث كان يحاول أن يتجنب الصعاب والملاحقة، وجاء في الإهداء: «نصحني أصدقاء بأنه يجب عليّ أن أنشر كتابي القابع في حوزتي مختفيًا، وأخبروني بأنه ينبغي لي ألا أهتم بقلقي، ولا أمنع مؤلفي عن الظهور أكثر من ذلك».

ينقسم كتاب كوبرنيكوس (دورات الأجرام السماوية) إلى ستة أقسام، حيث يضم القسم الأول النظرية القائلة بأن الشمس مركز الكون، وفكرة دوران الأرض حول الشمس، ويتناول القسم الثاني حركات الأجرام السماوية محسوبة رياضيًا، حيث يقدم كوبرنيكوس قائمة يبين فيها موقع كل واحد من هذه النجوم في السماء، وتضم الأقسام الأربعة الأخرى شرحًا مفصلًا لحركة الأرض والقمر والكواكب.

كان القبول بكتاب كوبرنيكوس بطيئًا جدًا حيث لم تُبع منه سوى نسخ قليلة، ولأن الكنيسة عارضته بشدة، هاجم بعض طلبة الجامعة المكان الذي طبع فيه الكتاب، وحاولوا تحطيم المطبعة وتمزيق النسخ المتبقية وإتلاف النسخة الخطية، إلا أن عمال المطبعة وضعوا حواجز بينهم وبين المهاجمين. وقامت إحدى الفرق المسرحية التابعة للكنيسة بتقديم مسرحية للسخرية من كوبرنيكوس، حيث صورته بالفلكي الذي يبيع نفسه للشيطان، بعدها قامت الكنيسة بإصدار بيان جاء فيه أن هذا الفلكي الذي يريد البرهنة على أن الأرض هي التي تدور وليست السماء والشمس والقمر، كما لو أن شخصًا ما يجلس في عربة متحركة أو في سفينة سائرة، ويظن نفسه ثابتًا والأرض والأشجار هي التي تتحرك، يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها

رأسًا على عقب. ولكن يقرر الكتاب المقدس أن الشمس وليست الأرض هي التي أمرها يسوع بأن تقف لأنها كانت تتحرك». وفي سنة 1616م وضِع كتاب كوبرنيكوس في قائمة الكتب المحرّمة، وفي نفس الوقت صدر قرار من البابا بإدانة جميع الكتابات التي تؤيد حركة الأرض. وظل كتاب (دورات الأجرام السماوية) في القائمة السوداء لمدة قرنين، حيث أزيلت عنه لعنة التحريم في عام 1835م.

يكتب الشاعر الألماني غوته: «لم يُحدث أي اكتشاف أو رأي، أو كتاب - من جميع الاكتشافات والكتب - أثرًا على الروح البشرية أعظم مما أحدثه كتاب كوبرنيكوس (دورات الأجرام السماوية). من النادر أن الناس كانوا سيعرفون أن العالم مستدير وكامل الاستدارة لولا هذا الكتاب المدهش، لأنه بهذا الكتاب اختفت أمور كثيرة في الضباب والدخان، ولا عجب أن معاصريه لم يرغبوا في أن يتركوا كل هذا يمر بسهولة، وقاموا بكل مقاومة ممكنة لكتاب حوّل كل المهتدين به إلى حرية الرأي وعظمة التفكير اللتين لم تعرفا حتى ذلك الوقت، والحقيقة إنه لم يحلم بها أحد قط».

أزاح كوبرنيكوس الأرض عن عرش مركز الكون وسيكتب أينشتاين عام 1910م إن «كوبرنيكوس بكثير من الصبر ألغى محورية الأرض وبدأ يجعلها تدور وكأنها رصاصة تنطلق من بندقية ويطلقها في الظلام نحو هدف مجهول مقدس، ثم يعثر على القوس كي يصيب الكون العتيق المثالي بجرح آخر أليم يجعله يصرخ».

***

مكتبة
t.me/t_pdf

«أنا غاليليو غاليلي من فلورنسا، في السبعين من عمري، ماثل للمحاكمة، أقلع عن الفكرة الخطأ بأن الشمس ثابتة وأنها مركز الكون، وأقر أنني لن أتمسك بهذه النظرية الخطأ، أو أعلّمها أو أدافع عنها بأي وجه من الوجوه».

كانت هذه الكلمات التي حاول من خلالها غاليليو أن ينجو من عقوبة الموت حرقًا، مثلما حدث مع قارئ مثير للجدل مهتم بقراءة الكتب المحرّمة يدعى جوردانو برونو أصر على إلقاء محاضرة عن كوبرنيكوس في جامعة أكسفورد، حيث حاول أن يرفع من شأن النظرية الكوبرنيكية ويتهم معارضيها بالجهل: «إن معارضي كوبرنيكوس حمقى أغبياء. لأن الأرض تتحرك بالفعل». وسرعان ما أصدرت الكنيسة بيانًا شديد اللهجة تحذر فيه الذين يصرون على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطة الروح القدس. إن برونو يريد تدمير العالم الأرسطي تمامًا وإفساح المجال لعلم جديد يتجاوز ما قاله كوبرنيكوس، فقد دأب كتاب كوبرنيكوس على التأكيد بأن الكون متناه، في حين يريد برونو أن يثبت أن الكون لامتناه. في العام 1592م تبدأ محاكمة برونو بتهمة الهرطقة في مدينة البندقية، بعدها بعام يتم تسليمه إلى روما وعلى مدى السبع سنوات التالية يتم نقله من سجن إلى آخر، حتى تصدر إدانة البابا له. وفي الثامن من شباط عام 1600م يقول للواقفين قولته الشهيرة: «لعل خوفكم من إصدار الحكم علي أعظم من خوفي من تلقيه»، وبعدها بتسعة أيام أحرقوه على الخازوق، بعد أن وضعوا على فمه لجامًا حتى لا تُسمع صرخاته.

قبل هذا التاريخ بسبعة أعوام كتب جوهانز كبلر رسالة بحثية عن القمر والأرض، وطلب أحد زملائه من هيئة التدريس عقد مناظرة حول هذا الموضوع، إلا أن الجامعة رفضت الطلب، ولم يمض وقت طويل حتى صدر قرار بحظر نشر كتاب كبلر (الغموض الكوني) لأنه يعارض تفسيرات

الكتب المقدسة، ونجد كبلر يرضخ للأمر فيؤجل النشر، لكنه في عام 1611م يجد نفسه مطرودًا من الجامعة لأنه يثير قدرًا كبيرًا من الاضطراب في نفوس الطلبة. وفي عام 1619م تُدرج كتب كبلر على لائحة الكتب الملعونة والتي يمنع تداولها، وتتم محاكمة أمه بتهمة ممارسة أعمال السحر، لكنه يعترف في خطاب يرسله إلى الكنيسة قائلًا: «جميع كتبي كوبرنيكية».

عندما كتب غاليليو غاليلي كتابه الشهير (حوار بين النظامين الرئيسين في العالم) عام 1632م بموافقة البابا، لم يكن يعرف أنه سوف يفتح على نفسه أبواب الجحيم. لقد تم توجيه تهمتين إلى غاليليو من قبل الكنيسة، الأولى هي إصراره على تأكيد نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض حول الشمس، والثانية وكانت الأخطر وهي أنه ألف كتابًا باللغة الإيطالية وليست اللاتينية، حيث لم يكن مسموحًا نشر كتب باللغات المحلية لمنع انتشار العلوم والأفكار الحديثة، والتي كانت تعتبر بنظر الكنيسة أفكارًا هدامة. ولهذا كان كتاب غاليليو إذن هو أول كتاب علمي يكتب من أجل الناس، وأصبح يشكل ظاهرة استمرت إلى الآن وهي الكتابة العلمية لعامة الناس.

كان غاليليو المولود عام 1564م قد قام بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول حركة الكواكب، وقام بذلك عن طريق التلسكوب الذي صنعه، حيث استطاع إظهار كون لم يعهده العالم. في سن الخامسة والعشرين، عثر على كتاب أرسطو (ما وراء الطبيعة) وقال لأحد مقربيه إنه يسعى لطرد الأرواح الشريرة التي تسكن عالم أرسطو، ويكتب في رسالة إلى الأب كريستوفر كلافيوس إن «الفلاسفة الإغريق يظنون أن الأجسام تتحرك بدافع من مشاعر ورغبات تشبه مشاعر ورغبات البشر، ولهذا أسعى لأن أقدم تفسيرًا جديدًا يوضح لنا كيف تتحرك الأشياء في هذا الكون». وحين يحذره صديقه من الخوض في هذه المسائل الشائكة يعود ليكتب إليه: «الإنسان الذي يدعي

عدم استعداده لتقبل الفلسفة بعد، يشبه الإنسان الذي يقول إنه صغير جدًا أو كبير جدًا على الحقيقة». وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه غاليليو إلى التفسير العلمي للطبيعة، كان الطبيب البريطاني وليم هارفي يقوم بدراسة الأوعية الدموية وانتهى إلى المبدأ الذي بنى ديكارت عليه قراره في أن الجسم البشري ذو تركيب ميكانيكي، وأنه شبيه بالأجسام التي تركِّبُها صناعاتنا، عندها طلبت منه الكنيسة أن يتوقف عن نشر أفكاره التي تتعارض مع الكتاب المقدس، لكنه لم يمتثل للأمر، لأنه كان مقتنعًا بما يقوله.

كان غاليليو أحد مهندسي نظرية الشك، وفي رسالته التي وجهها إلى رجال الكنيسة ابتدأها بالكلمات التالية: «منذ سنوات وكما تعلمون اكتشفت في السماوات أشياء كثيرة لم نشاهدها من قبل». وفي النهاية استدعي إلى المحكمة التي عقدتها الكنيسة وهناك عرضت عليه أدوات التعذيب، ثم طلب من نفي النظرية التي تقول إن الأرض تدور حول الشمس، فأذعن، لكن القصة لم تنته، فقد همس أثناء خروجه من بناية المحكمة «لكنها مع ذلك تدور». كان غاليليو تجاوز السبعين من عمره حين فرضت عليه إقامة جبرية في منزله ليصاب بالعمى، لكنه لم يصب باليأس فيقرر أن ينشر كتابه (عامان جديدان) وهو أول عمل عظيم في الفيزياء الحديثة على حد وصف نيوتن الذي كتب في مقدمة كتابه الشهير (حول حركة الأجسام): «أنا لا أعرف كيف أبدو للعالم، غير أني أرى نفسي كصبي يلعب على شاطئ غاليليو، الذي ترك لنا محيطًا كبيرًا من الحقائق». بعد خمسة أعوام يموت غاليليو في عزلته المفروضة عليه، فيصدر البابا قرارًا بمنع إقامة قداس له، لأن أية كلمة عليه ستكون إساءة لسمعة الكنيسة.

كان جوهانز كبلر المولود عام 1571م في جنوبي ألمانيا، قد أصيب في طفولته بمرض الجدري فتركه هذا المرض ضعيف النظر عاجز اليدين،

كان والده جنديًا مرتزقًا، وكانت أمه تعمل بوابة في فندق، ولأنه كان مجتهدًا في دراسته وقع عليه الاختيار ليصبح قسًا، فدخل إحدى المعاهد الدينية ليدرس اللاهوت، وحصل بعدها على منحة من جامعة توبنجن. وهناك قرأ كتاب كوبرنيكوس (دورات الأجرام السماوية)، فهجر مهنة القس، وقرر أن يدرس الفلك حتى استطاع بعد دراسات كثيرة أن يكتشف الكواكب التي تسير حول الشمس، وأخذ يحسب الوقت الذي يستغرقه أي كوكب في الدوران حول الشمس، وابتكر الأسس التي اعتمد عليها غاليليو في صنع منظاره.

كان كوبرنيكوس يهمس لغيره من العلماء قائلًا: «مشكلتنا أن نعثر على القوس الذي يمثل نصف التراجع»، غير أن غاليليو يصرخ بأعلى صوته: «إن الأرض تتحرك».

عام 1616م يصدر بيان من الكنيسة بعد حظر كتاب كوبرنيكوس (دورات الأجرام السماوية) ومنع كتاب كبلر (خلاصة الفلك الكوبرنيكي): «إذن ها نحن أخيرًا، عدنا من جديد نقف على أرض صلبة، ولم نعد مضطرين للطيران معها مثل كم هائل من النمل الذي يزحف على سطح منطاد يطير».

5

لكنّ الطُّغاة ذهبوا، وبقيت الكتب

لم يسبق أن رأوا والدهم في وضع بائس كهذا، فعندما توالت الأحداث العاصفة في ألمانيا بداية عام 1933م، كان توماس مان في رحلة خارج البلاد، وقد استقر رأيه بأنه لا يستطيع العودة إلى بلاده، فقد أصبح هتلر مستشارًا لألمانيا. قبل هذا التاريخ بثلاثة عشر عامًا كان هتلر قرر أن يغير اسم حزب العمال الألماني إلى حزب العمال الألماني الديمقراطي الاشتراكي، معلنًا صعود تيار القومية، وقبل هذا التاريخ كان توماس مان قد أصدر روايته الشهيرة (آل بودنبروك) وفيها يتنبأ بانهيار المجتمع الألماني. كان توماس مان قد هاجم صعود هتلر وحزبه من خلال الانتخابات، فقد كان يرى أن هناك اشتراكية عسكرية في الأفق. كتب في إحدى الصحف: «بنفاق الجماهير.. بالكذب على الخصوم.. بالألعاب والهدايا.. بالتهديدات والضربات.. وقبل كل شيء بالأموال، المال هو الذي ينظم العملية لصالح من يملكونه، وتصبح لعبة الانتخابات سابقة الإعداد، وتقدم على أنها تقرير مصير».

كانت رواية توماس مان تقدّم حكاية عائلة باعتبارها قصة ألمانيا والصراع الدائر فيها بين المبادئ والمصالح، وتوماس مان يدرك أن السلطة ستصل إلى أيدي مجموعة مغرورة من المغامرين والجنرالات المتسللين والقادة المزيفين. يعتقد كما كتب في العام 1922م أن أحد هذه النماذج ظهر في شخص أدولف هتلر، كان النازيون كلهم تصميم على إخضاع الثقافة لسيطرتهم، وهو الأمر

الذي بدأوا تنفيذه بالفعل بعد صعود هتلر للسلطة عام 1933م، حيث أصبح منظرًا مألوفًا حرق الكتب وطرد أساتذة الجامعة. ففي شهر واحد طُرد ألف وسبعمائة من أساتذة الجامعات بحجة أنهم يساريون، فيما قرر عدد كبير من الأدباء والمفكرين الهجرة خارج ألمانيا هربًا من مضايقات كتائب الشباب بقمصانهم البنية وأشرطة الأذرع المرسوم عليها الصليب المعقوف.

بدأت مخاوف توماس مان تزداد بخصوص عدد من الدفاتر التي خبّأها في درج مكتبه في ميونخ. كانت الدفاتر تحوي يومياته التي يخشى عليها من أن تقع بيد النازيين. وبعد ثلاثة أسابيع من القلق بعث توماس مان مفاتيح الأدراج لابنه غولو الذي بقي في ميونخ، طالبًا منه أن يقوم بشحن تلك الدفاتر بعد أن يضعها في حقيبة محكمة الإغلاق ويرسلها عن طريق القطار. يكتب لابنه: «إنني واثق من حسن تصرفك، وبأنك ستكون حريصًا على سرية الأمر». في السابع عشر من آذار عام 1933م، يرسل الابن الحقيبة إلى محطة القطار بيد أحد معاونيه «هانز هولستنر» الذي اتضح فيما بعد أنه مخبر نازي. والغريب أنه ذهب بها إلى محطة القطار بعد أن بعث تقريرًا إلى الشرطة السياسية، وفي محطة القطار كانت هناك تعليمات من الشرطة الحدودية بتفتيش الحقيبة، فقد كان يُعتقد أن بها منشورات سياسية، أما الدفاتر فقد نظر إليها بوصفها مسودة لرواية. توماس مان يتلقى في ذلك الوقت خبرًا جديدًا، الشرطة السرية تستعد لتفتيش منزله. في الثاني من أيار وبعد انتظار طويل، جاء الخبر القاطع بأن الحقيبة موجودة في الأراضي السويسرية. يكتب توماس مان: «راحة عميقة وقوية أن تشعر بأنك نجوت من خطر محدق، يصعب وصفه، ولعل مثيله لم يوجد من قبل».

كان حامل جائزة نوبل - حصل توماس مان على الجائزة عام 1929م - يعد نفسه ألمانيًا يعيش في الخارج، لكنه بين الحين والآخر يطلق تصريحات

ضد نظام الحكم. وصف النازيين منذ وقت مبكر بأنهم: «أعداء الفكر، ولا يهمهم أن يعلموا أو يتعايشوا مع أية فكرة، بل يفضلون أن يروا الجماهير سادرة في الغباء. إنهم يمرغون بالتراب ويدوسون على كل ما نعرفه مما له صلة بالحقيقة والكرامة». لكن برغم ذلك فإن كتبه ما تزال تُباع في المكتبات الألمانية، كانت ثمة مجموعة من نظام الحكم تريد ترك توماس مان وشأنه، إلا أن غوبلز ظل يثير حفيظة الفوهرر ضد الكاتب «المشاغب»، وبعد مداولات وخلافات بين أعضاء الحزب النازي ينتصر الجناح المتشدد. بعد سنوات وفي العام 1938م تتخذ السلطات الألمانية قرارًا بحرق مؤلفات توماس مان ومنعها من التداول.

في رواية (فهرنهايت 451) يروي لنا الكاتب راي برادبري قصة مدينة واقعة تحت إرهاب النار، حيث مهمة رجال الإطفاء فيها ليس إخماد النار وإنما إشعالها، والغاية من ذلك هي إحراق أي أثر للكتب. ولأن المدينة تشعر بالخطر على ذاكرتها الثقافية، يجتمع المثقفون والكتّاب ومحبو الكتب للتباحث حول أفضل طريقة لحماية هذه الكتب من النسيان والضياع، فيقررون الفرار إلى الغابة، بشرط أن يحفظ كل واحد منهم كتابًا واحدًا على الأقل عن ظهر قلب. وفي الغابة يقومون بترديد ما حفظوه حتى لا ينسوه مع مرور الزمن، وليلقنوه أيضًا لأبنائهم من بعدهم، وتحصل المفاجأة حيث يهرب أحد رجال الإطفاء ممن كانوا يوقدون النيران لحرق الكتب، ليصبح في النهاية كتابًا في الغابة.

كتب توماس مان في أحد رسائله إلى صديقه الكاتب المسرحي برتولت بريشت:

«وصيتي الشخصية في غاية البساطة، أرجوك أن تحافظ على كل ورقة تكتبها، إنها ملك لمن سيأتون من بعدنا».

في السابع والعشرين من شباط 1933م، صرخ رجل كان يسير مسرعًا في أحد شوارع برلين: «احترق الرايخستاغ». في الثامن والعشرين من شباط يَحزم برتولت بريشت حقائبه، ليصبح أول الهاربين من النظام النازي، وفي العاشر من أيار عام 1933م تحرق كتب بريشت أمام الرايخستاغ.

***

صبيحة الثامن عشر من كانون الثاني عام 1933م، يستيقظ إريك ماريا ريمارك على نشرات الأخبار تعلن تعيين أدولف هتلر بمنصب مستشار ألمانيا، وها هو عدوّه القديم غوبلز يؤدي اليمين وزيرًا للدعاية. ما يزال ريمارك يتذكر مقال غوبلز عنه والذي طالب فيه بمنع كتاباته لأنها تحرض على الاستسلام، وتنادي بألمانيا ضعيفة تجاه الأعداء، وطافت في ذهنه صور وزير دعاية هتلر عام 1930م، وهو يقود مع رفاقه في برلين الهجوم بالقنابل على دار السينما التي عرضت الفيلم المقتبس من روايته (كل شيء هادئ في الميدان الغربي)، وإجبار الرقابة على إصدار قرار بمنع الفيلم، وما تزال مشاهد كتائب النازية وهم يلوحون بنسخ من روايته وهي تحترق. آنذاك قال له غوبلز: «هذا أول انتصار أحققه ضدك، وأتمنى أن تنتظر الانتصار الثاني». وكان قرار غوبلز بمنع معظم روايات ريمارك، حيث ظهر وزير دعاية هتلر من على شاشات التلفزيون يبتسم وهو يرمي بنسخة من رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) في كوم كبير من الكتب المحترقة. كان ريمارك قد غادر ألمانيا إلى منفاه في سويسرا، بعد أن شعر بقرب وصول الحزب النازي إلى السلطة. في تلك الأيام كانت رسائل مجهولة تصله باستمرار تهدده بالموت، ولم ينته الأمر بهروبه وحرق كتبه، فلا بد من قرار جديد يعاقب الكاتب الذي باع وطنه للأجانب وخان مبادئ ألمانيا. ففي العاشر من حزيران عام 1933م

صدر الأمر بإمضاء أدولف هتلر: «سحب الجنسية الألمانية من إريك ماريا ريمارك».

في العام 1927م يقرر ريمارك أن يكتب رواية عن هواجس الخوف التي ترافق الإنسان وهو يواجه الموت، رواية عن الذل والهزيمة اللذين تليا استسلام ألمانيا خلال تلك الحرب العالمية الأولى، وقد تحولا إلى نزعة عسكرية ألمانية خطيرة وشديدة الشعبية في الوقت نفسه. وهذا ما يحدث عادة مع الشعوب التي تهزم ويتلو هزيمتها جرح عميق لكرامتها فتتحوّل إلى شعوب تنتظر اللحظة المناسبة للسير في دروب العنف ولتثأر لا لكرامتها، بمقدار ما تثأر من وجودها كأمة مهزومة. ويضيف ريمارك: «لقد كتبت رواية عن الحرب، من الذي يشعلها؟ ومن الذي يستفيد منها؟»، رواية أشبه بصدمة توقظ المواطن الألماني من سباته وتقدم له صورًا مفزعة عن الحرب، كانت ألمانيا آنذاك تعد العدة للثأر من هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، والأحزاب اليمينية ترفع شعار ألمانيا أولًا. وعندما صدرت رواية (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) قال ريمارك للصحفيين إن: «ما قدمته من مشاهد مخيفة عن الحرب لم يكن من الخيال، بل هو حقيقي». بسبب موقفها من الحرب لم يوافق أحد من الناشرين الألمان على طبع الرواية التي أرسلها إلى توماس مان ليقرأها، فيرسل إليه الأخير خطابًا يطالبه بإعادة كتابتها لأنها في صيغتها الحالية عبارة عن ضباب من الكلمات. ولأن ريمارك يدرك أنه يسير ضد التيار السائد للرواية الألمانية آنذاك، لم يبالِ كثيرًا لكلمات توماس مان رغم تقديره الشديد له، فقد كان يدرك في قرارة نفسه أنه مصمم على أن تكون روايته الجديدة مثل حجر ضخم يلقى في بحيرة الأدب الراكدة.

لم يجد أمامه سوى المجلة التي يعمل فيها (الرياضة المصورة)، فربما يقتنع رئيس التحرير بطبع الرواية، لأن دار النشر تطبع الكتب أيضًا. ولكن من

يغامر بشراء رواية لكاتب مبتدئ في زمن يعاني فيه الناس من أزمة مالية صعبة؟ يسأله رئيس التحرير عن موضوع الرواية فيجيب:

- الحرب

- أنصحك بأن تمزقها، من يريد اليوم قراءة رواية حربية؟ يقول له رئيس التحرير.

يكتب لوالده: «الظاهر أن مغامرتي الأولى في الأدب لن ترى النور». الصدفة تلعب دورًا كبيرًا في مستقبله، كان قد أرسل نسخة من الرواية إلى دار نشر في بون، وقد وصلت النسخة إلى يد أحد الفاحصين في الدار، الذي جلس ذات يوم ليقلب ملفاته فعثر على المسودات فقرر أن يقضي معها بعض الوقت. وبعد صفحات قليلة، يكتشف أن بين هذه الأوراق رواية عجيبة ومؤثرة، يضطر إلى أن يعرض الأمر على مسؤولي الدار:

«لقد وَجَدتُ هذه الرواية مؤثرة بشكل غير طبيعي. أنصح بطباعة عشرة آلاف نسخة منها»، قال الفاحص فورتيس.

التردد يصيب الجميع.. إلا فورتيس الذي يكمل: إذا وجدتم في الأمر مجازفة، فالخسارة سأتحملها أنا.

وبعد مناقشة دامت أيامًا، وافقوا على طبع الرواية، لكنهم اقترحوا أن تنشر في البداية على شكل سلسلة حلقات في جريدة (فويس) التي تصدر عن دار النشر. المسؤولون عن الصحيفة يعترضون، فالرواية في نظرهم غير مشوّقة، والناس تكره الحديث عن الحرب، والأهم أن الصحيفة لا تنشر إلا لكبار الكتاب من أمثال توماس مان وهاوبتمان وبعض قصص هيرمان هيسه، لكن رأي الخبير انتصر في النهاية وظهرت الحلقة الأولى من الرواية في العاشر من تشرين الثاني عام 1928م، ولم يصدق أصحاب الصحيفة ردود

أفعال القراء غير المتوقعة، الجميع لا حديث له سوى حكايات الميدان الغربي، وما أن صدرت الحلقة الثانية حتى تجاوز طبع الصحيفة المئة ألف نسخة.

أصحاب دار النشر يعقدون اجتماعًا طارئًا ليتخذوا قرارًا بوقف نشر الحلقات، وطبع الرواية كاملة وبمئة ألف نسخة، لكن هذا الرقم يخيّب تقديرات الناشرين فقد نفد خلال ساعات، الكتاب يباع بسرعة مذهلة، وتضطر دار النشر أن تستعين بمطابع أخرى. في بداية عام 1929م تتجاوز المبيعات المليون نسخة، بعد عام تباع خمسة ملايين، لكن الناشر والكاتب يواجهان مشكلة جديدة، فقد تعرضا لموجة شديدة من الكراهية، ريمارك يُتهم بمعاداة ألمانيا، وتنشر بعض الصحف مقالًا بقلم غوبلز - وزير دعاية هتلر فيما بعد - يصف الكتاب بالقذارة. وأن مؤلفه غير ألماني ينتحل اسمًا غير معروف، بل ويشكك كاتب المقال بمشاركة ريمارك في الحرب. الهجمات التي تشنها الصحف الرجعية، تتحول إلى أفضل دعاية للكتاب الذي تتجاوز مبيعاته العشرة ملايين نسخة ويترجم إلى معظم لغات العالم. الكتاب يباع بنجاح كبير، ويضطر الناشر أن يستعين بمطابع أخرى لتساعده في الطبع. في عام 1930م تباع منه في ترجماته العديدة أكثر من 30 مليون نسخة.

***

بدأ توماس مان حياته قوميًا متحمسًا للثقافة والفلسفة الألمانيتين المحافظتين، لكن نزعته الإنسانية جعلته فيما بعد يتخلى عن المعتقدات القومية المتعصبة. ولد في مقاطعة لوبيك بألمانيا عام 1875م لأب تاجر حبوب غني وعمدة للمدينة، ولأمّ أصولها من أميركا الجنوبية كانت مولعة بقراءة الروايات الرومانسية. عندما بلغ السادسة عشرة من عمره توفي والده، فقررت العائلة المكونة من ستة إخوة وأخوات فضلًا عن الأمّ الانتقال إلى

ميونخ، حيث اشتغل في شركة للتأمين. وبعد أن أمضى فترة في الجامعة توفرت لديه قناعة بترك العمل في شركة التأمين والتفرغ للأدب، فأصدر عام 1898م أول مجموعة قصصية له بعنوان (قصص من الحياة)، وكانت إحدى قصص المجموعة تمهد لروايته الكبيرة (آل بودنبروك) التي صدرت بعد عامين. كان توماس مان يريد أن يكتب رواية عن عائلته التي تدهورت أحوالها بعد رحيل الأب، حيث ستدور الأحداث عن الصبي «هانو» ابن العائلة البرجوازية اللامعة «بودنبروك». إن هذا الصبي كما يخبرنا توماس مان لم يخلق لهذه الحياة، هانو سيكون محور الرواية، والأشخاص الآخرين: العائلة الأقارب الأصدقاء سيكونون الخلفية والظلال. هانو يشكل نهاية عائلة، عائلة تحتضر، تمحى من الأرض، إنه لشيء محزن بالنسبة للذي عاصر ازدهار هذه العائلة وتفتحها، ومصير الصبي هانو هو مصير توماس مان وهو يشاهد ألمانيا تنهار. لن يروي توماس مان قصة «هانو»، بل سيبدأ قبلها بكثير، سينقب في التاريخ، سيكون السؤال: لماذا يرفض هانو فكرة الاستمرار في الحياة؟ لقد وضع توماس مان لائحة بأسماء الشخصيات، أما صفاتها فسيأخذها من سجلات عائلته، إنه يؤلف رواية أشبه بالتاريخ، صورة تولستوي يضعها على المكتب يؤطرها بالزهور وإلى جانبها نسخة من (الحرب والسلم)، كان قد أهداها له صديقه هرمان هيسه.

يحوّل غرفته البسيطة في ميونخ إلى أرشيف لتاريخ ألمانيا، إنه يريد معرفة كل شيء، سمع مثل صديقه شبنجلر بموت نيتشه، كانت الرواية في طريقها إلى النهاية، لكن أسرة «بودنبروك» لا تريد أن تنهار، إنها تقاوم مصيرها، لكنها تشيخ ببطء، كل مقومات اليأس موجودة. عام 1900م يكتب الصفحات الأخيرة، يقوم بحزمها وإرسالها إلى إحدى دور النشر، في هذه الأثناء يتم استدعاؤه إلى الخدمة العسكرية. إنه لا يحب طريقة الجيش في الحياة، المارشات العسكرية تثير فيه الاشمئزاز، يصاب بالمرض، أشبه

بكآبة تخللتها حالات من الفرح حين أرسل إليه الناشر رسالة يقول فيها إن الرواية جميلة جدًا لكنها طويلة، ويقترح الناشر اختصارها إلى النصف. اقتراح مرفوض فهو أراد أن يكتب تاريخًا كاملًا لا يمكن اختزاله، قد يكون الناشر محقًا لكنه لن يرضخ لشروطه، لا يمكن الاستغناء عن أية صفحة من صفحات الرواية. ويعفى توماس مان من الجيش بسبب مرضه، الناشر يرضخ أمام إصرار المؤلف لتصدر (آل بودنبروك) عام 1901م مع عنوان فرعي (سقوط عائلة)، ويقرأها الشاعر ريلكة فيكتب في إحدى الصحف: «هذه الرواية ستعيش مع الزمن». خلال الحرب العالمية الأولى ستكون على قائمة الأفضل مبيعًا لتصل مبيعاتها إلى ثلاثة ملايين، إنها ألمانيا التي على وشك السقوط، يكتب توماس مان بعد سنوات ليجيب عن سؤال طرحه عليه شبنجلر حول نبوءته بتفسخ العالم القديم كما جاء في (آل بودنبروك): «لم يخطر لي بأي حال أني في هذا الكتاب قد أعطيت شيئًا هامًا يتخطى حدود الفن وحدود السيرة الذاتية، وأني قد قدمت صورة للحياة في هذه المدينة في القرن التاسع عشر، أي شيء من التاريخ، ولم يخطر لي أن إنجاز هذا العمل يعود إلى ما يتضمنه في نفسي الآن من التاريخ الذهني للبرجوازية الألمانية على وجه الإطلاق. شيء ثالث لم أتخيله في أية صورة من الصور، وهو أن الاهتمام بهذا الكتاب سيتجاوز موضوعيًا وذهنيًا حدود ألمانيا، وأن قصة انحلال عائلة قد تثير أشجان البرجوازية وأنها قد تتعرف على نفسها في هذا الكتاب من جديد، وبالاختصار لم أكن حين وضعت هذا الكتاب الألماني من حيث الشكل والموضوع أني ربما صوّرت شيئًا من القصة النفسية للبرجوازية الأوروبية».

في يومياته التي نشرت بعد وفاته يعود توماس مان دائمًا إلى الحديث عن (آل بودنبروك) حيث نجده يكتب في آذار عام 1900م: «أمس فكرت في مصير روايتي (آل بودنبروك)، مثلما فكرت في مصير ألمانيا التي يريد لها

البعض أن تذهب إلى الهاوية، أريد أن أجعل من هذه الرواية عالمًا كاملًا». كان توماس مان يحرص على أن يقرأ أفراد عائلته كتاباته قبل نشرها، قالت له والدته بعد أن انتهت من قراءة (آل بودنبروك): «حذاري، إنك تثير من حولك الغبار». كان توماس مان يريد أن يندب حظ ألمانيا التي خسرت الحرب. كتب عام 1918م: «لماذا يريدون أن يحرمونا من خبرة غوته ولوثر وبسمارك، لنكيف أنفسنا للديمقراطية؟!»، لكن توماس مان لن يلبث أن يتخلى عن نعرته القومية ويتغنى بنعمة الديمقراطية. عام 1936م يكتب أندريه جيد: «في حين يعمل ويناضل خيرة المثقفين الفرنسيين إلى جانب فرنسا، فإن خيرة مثقفي ألمانيا يقفون ضد تلك العناصر الشوفينية التي تزج بألمانيا في أتون الحرب». في يومياته يكتب توماس مان عام 1935م: «مع كل الإجراءات النازية الشمولية، فإنهم [النازيين] لا يستطيعون تغيير قناعاتي».

في عام 1934م ينشر مقالًا عن الروح الجديدة البغيضة التي انتشرت بين الألمان بسبب الحزب النازي، في تلك الأيام أصدر هتلر تعليمات جديدة: «إن حق النقد يفترض أن يقترن بقول الحقيقة». لا شك أن الحقيقة التي يقصدها هي غير الحقيقة التي يبحث عنها توماس مان، لقد رفع غوبلز شعار «إن من لا يكذب الآن ليس سوى وغد».

في إيطاليا كان موسوليني يكره توماس مان، ونراه يعلق على أحدث كتاب صدر للفيلسوف الإيطالي بنديتو كروتشه، قائلًا: «إنه أهلٌ لكتابة مثل هذا الكتاب، لكن ما أثار غضبي هو أنه صدر بإهداء لتوماس مان». وعلى مائدة الطعام قال هتلر للحاكم الإيطالي موسوليني: «إن توماس مان لا يمثل ألمانيا بأي شكل من الأشكال، لم يأت بشيء يخوله بأن يدعي ذلك».

في التاسع عشر من نيسان عام 1933م، تنشر الصحف الألمانية بيانًا ضد توماس مان بعنوان (احتجاج من ميونخ، مدينة فاجنر). كان مذيلًا بالعديد

من التواقيع، يكتب توماس مان ردًا على البيان: «كانت عودة البربرية في الأزمنة القديمة تُفرض من قبل شعوب بدائية من الخارج، أما الآن فهي تفرض عمدًا (كثورة) بمعونة شباب مكيفين للتفكير بسذاجة، إنهم يختزلون كل المصائب إلى بعبع العنصرية والقومية». في الثلاثين من نيسان عام 1933م تعرّض منزل توماس مان للتفتيش بحجة البحث عن السلاح، وتصادر سيارته الشخصية مع بعض المقتنيات. في اليوم التالي يقرر هتلر طرد توماس مان من الأكاديمية الألمانية واعتباره كاتبًا فاشلًا حيث يلقي خطابًا حول الثقافة، يهاجم فيه الكتاب الألمان الذين هربوا من ساحة المعركة. في اليوم التالي يكتب توماس مان مقالًا يصف به هتلر بأنه نموذج لإنسان من الطبقة الجاهلة: «لا يملك سوى ثقافة محدودة، إنه ظاهرة تثير الاستغراب. إن الأفكار التي يطرحها بطريقة بائسة ومثيرة للشفقة، ومكررة على الدوام، لا تتجاوز مستوى طالب ثانوية محدود الأفق».

6
إننا نناقش: كيف ينبغي أن يعيش الإنسان

في الرابعة والخمسين من عمره وجد نفسه منفيًا إلى فرنسا، فالأحوال السياسية في البلاد لا تطمئن، والكنيسة والبرلمان يلاحقان كل من يطرح رأيًا مخالفًا، كان توماس هوبز آنذاك يخطط لإصدار كتاب ضخم عن السلطة وعلاقتها بالناس بعنوان (اللوياثان)، وفي هذا الكتاب أراد أن يُشبه السلطة المطلقة بالتنين ذلك: «الحيوان الضخم الذي يرهبه الجميع، ولا يكاد يشبه أي مخلوق آخر على سطح الأرض».

في سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه، يخبرنا توماس هوبز أن والدته التي وضعته في العاشر من حزيران عام 1588م، وضعت معه توأمًا آخر اسمه الخوف، وهو الذي رافقه طوال حياته التي امتدت لأكثر من تسعين عامًا.

كان والده قسًا، اختفى من المدينة بعد مشاجرة حدثت بينه وبين أحد القساوسة، فضربه واضطر إلى أن يغادر المدينة ولم يره أحد بعد ذلك، فقرر أحد أعمامه أن يتولى تربيته، فأدخله إحدى المدارس الدينية، إلا أن الصغير لم يجد رغبة في هذا النوع من التعليم، فانتقل بعد أن بلغ الخامسة عشرة من عمره إلى أكسفورد ليدرس المنطق وعلم الطبيعة. لكنه أيضًا لم يجد في الفلسفة ومقولات أرسطو وأفلاطون أجوبة عن أسئلة كانت تدور في ذهنه عن الدولة المدنية، وفلسفة الحكم والعلاقة بين الدين والسياسة. يكتب في كتابه (اللوياثان): «كانت الفلسفة الطبيعية التي تعلمها المدارس حلمًا أكثر

منها علمًا، فضلًا عن أنها تصاغ في لغة ميتة لا معنى لها.. وأنا أعتقد أنه يندر أن تجد شيئًا أشد سخفًا يمكن أن يقال في الفلسفة الطبيعية أكثر مما يسمى باسم ميتافيزيقا أرسطو، ولا شيء أشد نفورًا عن الحكومة أكثر مما قاله في كتابه السياسة، ولا أشد جهالة من القسط الأكبر من كتابه الأخلاق». يقرر أن يغادر الجامعة ليعمل معلمًا خاصًا لأحد أبناء كبار اللوردات الإنكليز، وقد أتاح له عمله هذا أن يسافر مع عائلة اللورد إلى الكثير من بلدان أوروبا، ويطلع على أحدث الكتابات الفلسفية. وأثناء إحدى سفرياته إلى باريس وقع بين يديه كتاب (هندسة إقليدس)، فوجد نفسه لأول مرة إزاء علم دقيق أثار اهتمامه، حيث لم تكن لديه أية فكرة عن علم الرياضيات، فمناهج التعليم في إنكلترا آنذاك كانت تعد الرياضيات بمثابة بدعة شيطانية، وقد ساعدته دراسته للرياضيات على أن يقرر إن المعرفة قوة، وأن للفلسفة قيمة علمية، وإن الطبيعة والإنسان - لا الله - هما موضوعا البحث الفلسفي.

في العام 1634م يسافر إلى إيطاليا حيث يلتقي بالعالم غاليليو غاليلي الذي أوحى إليه بفكرة تطبيق المنهج الهندسي على علم الأخلاق، أما في باريس التي وصل إليها بعد الانقلاب على الملك تشارلز الأول، وعاش فيها حوالي أحد عشر عامًا، حاول أن يدرس أسباب الثورة التي قامت في بلاده. وهناك ينضم إلى مجموعة من المفكرين، حيث وجد نفسه وجهًا لوجه أمام الفيلسوف رينيه ديكارت فيكتب نقدًا عن كتابه (تأملات في الفلسفة الأولى)، ينكر فيه على ديكارت بعض أفكاره اللاهوتية، فقد كان هوبز ماديًا ولم يكن يتصور الكون كله إلا مادة أو جسمًا يتحرك، وعلى ذلك لم يقبل ثنائية ديكارت بين الروح والمادة. في باريس أيضًا خاض معركة مع أحد الأساقفة حول موضوعة حرية الإرادة، وقد لخص هوبز هذه المعركة بأبيات من الشعر جاء فيها:

كانت المشكلة ولا تزال،

أنختار بإرادتنا أم بإرادة الله،

وكانت مشكلة ناتجة عما تقدم،

أما هو فقد اتبع المدارس، أما أنا فاستخدمت عقلي.

مكتبة
t.me/t_pdf

في عام 1642م يصدر هوبز كتابًا صغيرًا بعنوان (الدولة أو المجتمع السياسي)، يؤكد فيه تعارض حالة الطبيعة أو الفطرة مع الحالة الإنسانية، ونادى فيه بضرورة إعطاء السلطة السياسية الحق في تنظيم الأمور الدينية وعمل الكنيسة. وقد سبّب له هذا الكتاب عداء رجال الدين في إنكلترا وفرنسا، الذين وجدوا فيه تعريضًا بسلطة البابا. عام 1651م تنتهي سنوات النفي ويعود هوبز إلى إنكلترا، ليتفرغ لإكمال مؤلفاته، يصدر له كتاب عن المادة يتضمن آراءه في الظواهر الطبيعية، وبعدها بثلاث سنوات يصدر كتابًا آخر بعنوان (في الإنسان) يدرس فيه سيكولوجية اللغة والعواطف. بعدها يصدر كتابه الأهم (اللوياثان أو التنين) الذي أثار حفيظة البرلمان الإنكليزي والكنيسة بنفس الوقت، فصدر قرار يمنع هوبز من إصدار أي مؤلفات أخرى في الفلسفة أو السياسة، ليضطر في آخر أيام حياته إلى العودة للاهتمام بالدراسات الأدبية، يترجم إلى الإنكليزية الإلياذة والأوديسة، وينشر سيرته الذاتية، ليتوفى في الرابع من كانون الثاني عام 1679م. يطلق جون لوك لقب الفيلسوف المغامر على هوبز ويكتب:

«لقد أبدى هوبز شجاعة ملحوظة في نشر أفكاره، كان يعلم إنها ستثير ضده السلطات الكنسية والسياسية معًا. والحق أنه لم يرتعد قط وهو يدخل معارك فكرية بالغة العنف والقوة، ولم يشعر بوهن وهو يكيل الضربات المتلاحقة للكنيسة ورجال الدين والفكر الأرسطي وأنصاره».

عندما قرر دينيس ديدرو وضع أول موسوعة في العالم عن العلوم والفنون، طلب من صديقه الشاب روسو أن يكتب مقالات في الموسيقى والاقتصاد السياسي، مقابل فرنكات تعينه على دفع أجرة الفندق البائس، إلا أن الحال لم يستمر طويلًا حيث سجن ديدرو بتهمة الإلحاد بعد نشر كتابه الشهير (رسالة إلى العميان)، الذي دافع فيه عن فلسفته الماديّة، مجاهرًا بإلحاده، حيث أراد أن يثبت من خلاله أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله، بل من خبرتنا الحسية، بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضًا مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة، وأن وجود الله مشكوك فيه لأن البرهان على أصل الوجود فقد كثيرًا من قوته.

وقد أثار الكتاب ضجة، دفعت فولتير إلى أن يرسل له رسالة حماسية يقول فيها: «قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحي بشيء أكثر. وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير، بقدر ما أحتقر أولئك الأغبياء الذين ينقصون من قدر ما لا يفهمون، ولكني أعترف لك أني لست من رأي صاحبك الأعمى الذي ينكر وجود إله، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئًا، ولكن لو أني في مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبني إضافات كثيرة تكمّل البصر. أود من كل قلبي أن أتحدث إليك، وليس يهمني أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية. وقبل مغادرتي لونفيل أرجو أن تشرفني بتناول عشاء فلسفي معي، في داري بصحبة بعض الحكماء».

ويرد عليه ديدرو قائلًا: «سيدي الأستاذ العزيز: إن اللحظة التي تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة، ليس يهمني مطلقًا أن تؤمن بالله أولا تؤمن به، لقد قال مونتاني إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها». وبسبب هذا الكتاب قامت الشّرطة باقتياد

ديدرو إلى السّجن، فقرر روسو أن يزوره، ولأنه لم يكن يملك أجرة الباص قرر أن يذهب مشيًا، وفي الطريق يقف عند أحد بائعي الصحف فتقع عيناه على إعلان عن مسابقة طرحتها أكاديمية الفنون، وكان الموضوع عبارة عن جواب للسؤال التالي: «هل أسهم تقدم العلوم والفنون في إفساد الأخلاق أم في تهذيبها؟» يخبرنا روسو في اعترافاته: «في لحظة قراءة هذا السؤال، رأيت عالمًا آخر، وغدوت إنسانًا آخر».مكتبة سر من قرأ

ولد دينيس ديدرو في الخامس من تشرين الأول عام 1713م في مدينة لونكريه بفرنسا. وكان ذلك بعد سنة من ميلاد جان جاك روسو. أدخله والده إحدى المدارس الدينية ليصبح قسًا، لكنه تركها بسبب سوء معاملة رجال الدين للطلبة، بعدها اتجه إلى دراسة القانون، لكنه لم يستمر به طويلًا، وقال لوالده إنه لا يريد أن يصبح محاميًا، وحين سأله ما هي المهنة التي يرغب بها، أجاب: «إني أهوى المطالعة، ولا شيء سواها اقترحه لنفسي، لأني لا أطمع بشيء أكثر»، بعدها يعمل في التدريس، وكانت مهنة متعبة بالنسبة له، فتركها ليعمل في عدد من المهن. عام 1741م يصبح حاسمًا في حياته حيث يلتقي بشاب جاء إلى باريس من الريف ليجرب حظه في المسرح، كان هذا الشاب اسمه جان جاك روسو الذي ارتبط معه بصداقة وثيقة منذ ذلك التاريخ.

كان ديدرو يشبه نفسه بالريح، فهو دائم الاندفاع نحو الاطلاع على أي نوع من أنواع المعرفة. عام 1749م ينشر مقالًا يتساءل فيه عن العمى لمنفعة من يبصرون، وفيه يطرح موضوعًا مهمًا حول أهمية أن تعود المعرفة الإنسانية إلى التجربة، وأن الأفكار ليست مقياسًا للوجود، كما أن فهم رأي من الآراء وإدراكه لا يمكن أن يصبح برهانًا عليه، وأن التجربة الإنسانية لا يمكن أن تكون الحد النهائي لحقيقة وجود الكائنات، وهي الأفكار التي

دفعت السلطات الفرنسية إلى إلقاء القبض على ديدرو وإيداعه السجن. وفي السجن كان يخطط لإصدار موسوعته الشهيرة، التي كانت فكرتها قد ظهرت لأول مرة عندما اقترح عليه أحد تجار الكتب القيام بترجمة قاموس فلسفي من الإنكليزية إلى الفرنسية، لكن ديدرو أقنعه بجمع مقالات مختلفة بأقلام رواد الفكر في ذلك العصر وإصدارها في مجلدات متسلسلة لتصبح موسوعة تمثل الآراء الجديدة في الفلسفة والعلوم والآداب، ليصدر الجزء الأول عام 1748م ولتستمر في الإصدار أكثر من ثلاثين عامًا، حيث صدر منها خمسة وثلاثين مجلدًا، كتب فيها روسو عن الموسيقى وعن الاقتصاد، وقدم مونتسكيو مقالًا عن الذوق، ونجد فولتير يكتب في القسم الأدبي، فيما كتب ديدرو عن الطبيعة، حيث طرح آراء في النشوء والتطور سبقت نظرية داروين. وقد أثارت الموسوعة حفيظة الكنيسة، التي وجدت فيها موضوعات علمية تستهدف الهجوم على الدين، الأمر الذي دفع مجلس الدولة إلى إصدار أمر بمنع الموسوعة عام 1752م. كانت الموسوعة صرحًا للمعرفة شاركت فيه أكبر العقول، حيث سعى ديدرو من خلالها إلى إبراز المعارف الجديدة، مستهدفًا زعزعة مجتمع مدفون في ماضي مغبر، وقد بلورت الموسوعة فلسفة الأنوار التي شهدت بروز النهضة الأوروبية الحديثة، بعدها أصدر ديدرو كتابًا بعنوان (اعترافات راهبة) وجه فيه نقدًا شديدًا للأديرة. وقد أثار الكتاب سخط الكنيسة فتم منعه وسحبه من المكتبات، ولم يُعد طبعه إلا بعد الثورة الفرنسية حيث اعتمده رجال الثورة في إصدار مرسوم الأديرة.

عام 1784م، يعاني ديدرو من آلام في المعدة لم تمهله طويلًا، وأثناء مرضه زاره أحد القساوسة طالبًا منه أن يعلن توبته، فقال له باسمًا: «إني أوافقك أيها السيد الخوري، لكن ذلك سيكون من جانبي كذبة وقحة لا يصدقها أحد»،

ثم أضاف: «اسمع أيها السيد، إني أفهم جيدًا ما تعني، لقد رفضت حضرتك من قبل دفن فولتير لأنه لم يكن يعتقد بألوهية (الابن)، وهذا حسن، فإذا مت أنا، فليدفنوني أنّى شاءوا، غير أني أعلن للدنيا هنا بأني لا أؤمن، بالإضافة إلى ما لم يؤمن به فولتير، لا بألوهية (الأب)، ولا بالروح القدس، ولا بأي فرد من أفراد هذه العائلة كلها». في الثلاثين من تموز عام 1784م يتوفى ديدرو وهو جالس إلى منضدة الكتابة.

***

شكّل هوبز صداعًا مزمنًا لمعاصريه الذين أطلقوا عليه لقب «وحش مالمسبري» نسبة إلى مسقط رأسه، ووصفه رجال الدين بأنه «زعيم الملاحدة ورسول الكفر»، فيما اعتبره رجال السياسة مصدر إزعاج في البلاد لا حد له، والغريب أن الكنيسة والبرلمان اعتبراه سببًا في انتشار الطاعون عام 1665م، وحريق لندن الكبير عام 1666م، وكانت الناس تبحث عن سبب لهذه الكوارث، فقدم لهم رجال الكنيسة كبش الفداء إنه «هوبز الملحد» حيث أشاعت الكنيسة أن كتبه وما فيها من إلحاد وهرطقة هي سبب غضب الرب ونقمته. وقد اضطر البرلمان أن يشكّل لجنة لإعداد قائمة بالكتب الملحدة، وكان كتاب (اللوياثان) على رأس القائمة بل ذهب بعض النواب إلى المطالبة بحرق الكتاب ومؤلفه لولا تدخل الملك الذي أنذر هوبز بالتوقف عن الكتابة في أي موضوع يثير حفيظة الكنيسة، وفي سيرته الذاتية نتعرف على السنوات الأخيرة من حياته التي حُرِم فيها من الكتابة فقد كان يستيقظ في السابعة صباحًا، حيث يمارس رياضته المفضلة المشي وخلالها يبدأ بمناقشة بعض الأفكار في ذهنه، ثم يذهب إلى البيت ليدونها بشكل سري، وفي المساء يمارس رياضة صعود بعض التلال، ليعود بعدها يغلق عليه باب حجرته

ويبدأ بالغناء بصوت عال، فقد كان يعتقد أن الغناء يفيد الرئتين ويؤدي إلى إطالة العمر.

يعتبر كتاب (اللوياثان) من الكتب المؤسِّسة لنظرية فلسفة الدولة، ولعله الأكثر تأثيرًا في السياسة بعد كتاب (الأمير) لمكيافيلي، وتقوم فكرة الكتاب على أن البشر أنشأوا تقاليد سياسية للحكم والدولة استنادًا إلى قدراتهم ومخاوفهم وطبائعهم الخاصة، وليس بناءً على الغيب أو تعاليم الدين، ونجد هوبز يجعل الإنسان موضوعًا أساسيًا للقسم الأول من كتابه، فالإنسان:

> في سعيه لأن يعيش في سلام ووحدة، وفي تطلعه وميله إلى السعادة فكّر في السلطة، ولكنها (السلطة) رغبة دائمة لا تهدأ، ولا تنتهي إلا بالموت؛ والسبب في ذلك أن الإنسان لا يستطيع ضمان القوة ووسائل العيش الجيد التي يملكها الآن دون أن يقتني المزيد منها، ومن هنا نتج أن الملوك الذين يملكون السلطة الأعظم يوجهون جهودهم نحو ضمانها في الداخل بواسطة القوانين، وفي الخارج بواسطة الحروب، وعندما يتم لهم ذلك تنشأ رغبة أخرى.

بعد ذلك يناقش هوبز مفهوم الدولة الذي يقسمه إلى ثلاثة أنواع، «نظام ملكي»، أو «ديمقراطي» أو «فئوي» أي أرستقراطي، وهو يحدد الفرق بين هذه الأنظمة بقدرتها على تأمين السلام والأمن للشعب، وهو الهدف الذي أدى إلى إنشائها، ولما كانت أهواء البشر عمومًا أقوى من عقولهم، ويشمل ذلك بطبيعة الحال الحكام، فإنهم سيرجِحون مصالحهم الخاصة على المصالح العامة إذا تعارضتا، والحل كما يرى هوبز، أن تكون مصالحهم الخاصة هي مصلحة الناس العامة.

ويؤكد هوبز أن جميع المصائب والكوارث التي تلاحق الإنسان إنما تنشأ بسبب الحروب، وهو يحدد الحروب الأهلية بشكل خاص، لأن من هذه

الحروب تنشأ المذابح، والعزلة، والافتقار إلى كل شيء، لكن سبب الحرب ليس هو أن الناس يريدونها، بل لأن الناس تجهل أسباب الحرب وأسباب السلم أيضًا. فالحروب الأهلية تحول دون كل صناعة، وكل زراعة، وكل رفاهية، وكل علم، وكل أدب، وكل نشاط اجتماعي، بل إنها تخلق ما هو أسوأ من هذا كله، الخوف المستمر من الموت العنيف. إن الحياة «متوحِدة وفقيرة وفظة وحمقاء وقصيرة» ولهذا ينبغي الخروج من هذه الحالة، لئلا يتم دمار الجنس البشري، والإنسان يملك إمكانية الخروج من هذا الخراب، إذا ما استطاع أن يضع بنودًا للسلام يتفق عليها مع الناس الآخرين. ويناقش هوبز موضوع التنافس على الثروات التي يجد أنها الدافع إلى النزاع والعداوة والحرب، وهو يؤكد أن الناس المعجبين بحكمتهم يملكون استعدادًا للطموح، والجهل بالأسباب، والتكوين الأصلي للحق والإنصاف والقانون والعدالة يجعل الإنسان مستعدًّا لأن يتخذ من العادة والمثل قاعدة لأفعاله، والجهل بالأسباب البعيدة يجعل الناس مستعدين لنسبة كل الأحداث إلى أسباب مباشرة وذرائعية، والجهل بالأسباب الطبيعية يجعل عند الإنسان استعدادًا للسذاجة؛ فيصدق أشياء مستحيلة: «حين يكون المرء متأكدًا من أن هناك أسبابًا لكل الأشياء التي حدثت في السابق وستحدث فيما بعد يكون في حالة قلق دائم».

وبناءً على طبيعة الإنسان وغرائزه ينشئ هوبز فهمًا للحق والحرية وقانون الطبيعة، فالحق بمقتضى الطبيعة هو حرية الإنسان في أن يستخدم قوته وفق ما يشاء هو نفسه من أجل الحفاظ على طبيعته، وبعبارة أخرى الحفاظ على حياته، وبالتالي في أن يفعل كل ما يرى بحكمه وعقله أنه أفضل السبل لتحقيق ذلك. والحرية هي غياب المعوقات التي تمنع الإنسان من استخدام القوة طبقًا لما يمليه حكمه وعقله. وقانون الطبيعة هو مبدأ يتخذه العقل لمنع الإنسان من فعل ما هو مدمر لحياته، أو ما يقضي على وسائل الحفاظ عليها.

ويعالج هوبز علاقة الحكومة المدنية بالكنيسة، وذلك لأن كتاب (اللوياثان) وضع في ظل حروب أهلية سياسية ودينية معقدة، فالناس كما يقول هوبز يجب أن يطيعوا قوة تضبطهم، فلا يمكن أن تترك مصالحهم وأعمالهم لتنظيم فوضوي، وهكذا تتشكل الأمم حول التعهد بين الناس لمنح طاعتهم لشخص واحد هو الحاكم وليس النظام السياسي، أو الكنيسة، لأجل أن يعيشوا بسلام! ويعطي هوبز مفهومًا جديدًا حول الطاعة الضرورية التي يجب أن يقدمها المواطن لبناء الدولة، وهو بهذا يقترب من ميكافيللي الذي ربط عجلة الدولة وازدهارها بما يقدمه لها المواطنون من طاعة وتنفيذ للقانون.

7

هل أنا أناقض نفسي.. حسنًا جدًا، إنني أناقض نفسي

في العشرين من تشرين الأول عام 1960م، بدأت وقائع محاكمة غريبة. جلس فيها القضاة والمحلفون ومحامي المتهم وممثل الادعاء العام وجمهور كبير، لكن قفص الاتهام كان خاليًا، فالرجل الذي تتم محاكمته توفى قبل ثلاثين عامًا، لكنه في عام 1928م أصدر رواية أثارت حفيظة رجال الدين والسياسة لما تضمنتها من تعابير فاحشة على حد قولهم. كانت هيئة المحكمة غير معنية بمؤلف الرواية د. ه. لورنس، بل إن الأمر يتعلق بدار النشر التي طبعت رواية (عشيق الليدي تشاترلي)، وحددت موعدًا لتوزيعها 25 آب 1960م، إلا أن مدير النيابة العامة البريطانية طلب الحصول على نسخة وأصدر قرارًا بمنع توزيعها حتى تبت المحكمة في ذلك. في قاعة المحكمة وقف ممثل الادعاء ليؤكد للمحلفين أن هذه الرواية ستوحي إلى عقول القراء وخصوصًا من الشباب بأفكار ذات طابع إباحي وشهواني تجلب الضرر العام للمجتمع، وطالب من هيئة القضاء بأن تتأكد بنفسها من وجود هذا الضرر في الكتاب، ثم طرح المدعي العام سؤالًا حول أعمار القراء الذين يُحتمل أن تفسدهم هذه الرواية، وتساءل قائلًا: «إن الكاتب عضو في المجتمع الذي يعيش فيه، ومن ثم فإن من واجبه نحو المجتمع ألا يصيب أفراده بأي أذى من الناحية العقلية والجسدية والروحية. فإذا اصطدمت نوازع الإبداع مع ثوابت المجتمع، فإن المجتمع ينبغي أن تكون له الغلبة». ويصل ممثل الادعاء

إلى النقطة الجوهرية التي يريد إقناع هيئة المحلفين بها فيقول إنه: «لا يشك بعظمة كاتب مثل لورنس، وإن روايته التي ينظر فيها القضاء لا تخلو من القيمة الأدبية، ولكن علينا أن نحدد أولًا هل هذه الرواية تتضمن أفعالًا فاحشة تفوق قيمتها الأدبية». بعدها يخرج من محفظته نسخة من الرواية ليلوح بها وهو يقول: «الليدي تشاترلي تشعر بالإحباط بسبب عجز زوجها الجنسي بعد أن تعرض إلى إصابة في الحرب العالمية الأولى، ولهذا نجدها تجد متعتها مع عامل الحديقة، حيث ترى أنه قادر على إشباع نزواتها وتمارس معه الجنس بحرية في حجرة النوم وعلى فراش بسيط في الهواء الطلق، وفي كوخ الحديقة، وتحت شجرة في الغابة والمطر ينهمر.. إن الكاتب يضع لنا ما لا يقل عن 13 وصفًا دقيقًا وتفصيليًا للعملية الجنسية»، ثم يفتح الكتاب ليقرأ ما كتبه لورنس في مقدمة روايته: «لقد جاهدت دومًا أن أفعل نفس الشيء، وهو أن أجعل العلاقة الجنسية شيئًا سليمًا له قيمته، وليس شيئًا يدعو إلى الخجل».

كان محامي الدفاع الذي كلفته دار النشر اسمه جريفت جونز مغرمًا بأدب لورنس، حاول في مرافعته أن يقدم دراسة عن أدب لورنس وموقفه من الجنس، حيث أكد أن مؤلف رواية (عشيق الليدي تشاترلي) يؤمن إيمانًا عميقًا بالزواج كنظام اجتماعي، وأن أدبه يهدف إلى التأكيد على أن الفحش والإباحية لا يمكنهما أن يكونا بديلًا عن الحب والعلاقة الزوجية المستقرة. وأكد المحامي أن لورنس يؤمن بأن ليس هناك ما يدعو إلى الخجل من رغبات الجسد، وأضاف في مرافعته قائلًا: «إن الحضارة الغربية كانت تقدس العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، حتى جاءت المسيحية التي زرعت في نفوس الناس بأن الجنس خطيئة». وأوضح المحامي أن لورنس لا يصف العمليات الجنسية وصفًا فسيولوجيًا، ولكنه يصفها وصفًا شاعريًا ومن

ثم من الخطأ أن نقول إن وصف هذه العلاقات يتسم بالشذوذ والإباحية. بعدها طلب الاستماع إلى شهادة إدوارد مورجان فورستر، عندها ظهر الاهتمام على وجوة الحاضرين، فصاحب الاسم روائي مشهور حصلت روايته (الطريق إلى الهند) على إعجاب الملايين، وحين أدلى فورستر بشهادته أشاد بمكانة لورنس في الأدب المعاصر، وأضاف أنه ما يزال على رأيه القديم من أنه أكثر الروائيين اهتمامًا بدراسة الواقع النفسي لشخصياته، وأضاف ربما كانت الليدي تشاترلي ليس من بين روايات لورنس التي أحمل لها إعجابًا مثل روايته الكبيرة «أبناء وعشاق» والتي في نظري أفضل أعماله.

كانت (أبناء وعشاق) ثالث أعمال لورنس الروائية، كتبها قبل (عشيق الليدي تشاترلي) بخمسة عشر عامًا أثناء مرض والدته التي رأى أنها ظلمت مع والده صاحب الطباع العنيفة والرغبات التي لا تشبع. والرواية مستمدة من حياة لورنس الشاب الذي كان يكره والده بشدة، ويعشق والدته بالسر «لن أتزوج ما دمت معي»، قال لصديقه حين كانت والدته تحتضر: «أحبّ أحدنا الآخر حبًا أقرب إلى العشق». في (أبناء وعشاق) يقدم لورنس بطلة الرواية السيدة «غرترود» امرأة قوية من عائلة غنية، تعجب بعامل مناجم فتقرر الزواج منه، لكنها تكتشف إدمانه للخمر وعجزه العاطفي، فتحول اهتمامها إلى ولديها اللذين تعشقهما حد الجنون، وتحاول أن تبعد النساء عنهما. كان لورنس آنذاك مغرمًا بما يكتبه عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد، في يومياته يكتب أنه: «أحد أفضل الذين يجسدون مختلف معاني تعبير مفكر كبير، فقد قدم فعلًا النماذج النظرية التي أفادت كتاب الرواية وعمقت لديه السعي لدراسة أحوال النفس البشرية». بعدها تحدث فورستر عن الفقرات الجنسية الموجودة في رواية (عشيق الليدي تشاترلي) فأكد أن المؤلف أراد أن ينتقد العلاقات الجنسية العابرة التي تقوم على شهوة الجسد، ولهذا نجده

يصف بدقة العلاقات الجنسية القائمة على الحب الدائم، وهي العلاقات السوية التي ربطت بين الليدي تشاترلي وعامل الحديقة، ويضيف فورستر أن مثل هذه العلاقات تتجاوز رغبات الجسد لتنتهي إلى ارتباط العاشقين بوشائج روحية متينة.

عقدت المحكمة ست جلسات متواصلة استمعت فيها إلى عشرات الشهادات من نقاد ورجال دين وكتاب، بعدها أصدرت في الثاني من تشرين الثاني عام 1960م قرارًا بالسماح بتوزيع الرواية كاملة ومن دون حذف صفحات منها.

***

في العام 1907م يعثر لورنس في إحدى المكتبات على نسخة من كتاب بعنوان (ثلاث مقالات في نظرية الجنس)، المؤلف سيجموند فرويد سبق للورنس أن قرأ كتابه الضخم (تفسير الأحلام) وأعجب به، الأمر الذي دفعه لأن يرسل له رسالة يكتب فيها: «إننا بحاجة إلى مثل هذه الكتب التي توضح لنا لماذا بدأ العالم من حولنا يذوب ويتحلل، وأخذ كل شيء يفقد قيمته». كان فرويد قد نشر كتابه (ثلاث مقالات في نظرية الجنس) عام 1905م. يكتب إلى لورنس الذي أرسل له رسالة عام 1906م يقول فيها: «إننا بحاجة إلى ثورة لا من أجل المال أو العمل، بل في سبيل أن نعيش الحياة بطبيعتها، وهذا ما وجدته في كتابك الأخير عن نظريات الجنس»، حيث يخبره أنه يحاول جاهدًا أن يرد بعض الأمراض النفسية إلى الجنس.

تكمن أهمية كتاب فرويد (ثلاث مقالات في نظرية الجنس) في أنه كان مفاجأة لكتّاب الرواية والشعر الذين أرادوا أن يقدموا تحليلًا أدبيًا يسلط

الضوء على الحياة النفسية لشخوص أعمالهم الأدبية. ورغم أن فرويد وضع عنوان الجنس على غلاف كتابه الشهير هذا إلا أن الكتاب لا يدرس الغريزة الجنسية فقط، بل يحاول أن يقدم دراسة في الأمراض النفسية وبحث في أسبابها، ومع أن الكتاب زاخر بتفاصيل النشاط الجنسي، فإنه لا يمس طبيعة الجنس في ذاته، والواقع أن الكتاب يعد مرحلة هامة في تفكير فرويد وفي نظرية التحليل النفسي عامةً. هذه المرحلة التي تم الكشف فيها عن نظرية – الرغبة الجنسية – التي يؤكد فيها أن مرض العصاب ينشأ من أمور جنسية طفولية، ويضيف أيضًا أن الأمور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفًا على الذين أصيبوا بعصاب في وقت ما من أوقات حياتهم، ولكنها موجودة عند كل إنسان وتشكل عاملًا مهمًا في حياته.

كان فرويد يريد أن يبحث عن جذور أزمة الإنسان المعاصر، وما أن عثر على الرغبة الجنسية كقوة دافعة، سعى إلى دراستها باعتبارها قوة صانعة لمصير الإنسان، حيث تنعكس على علاقاته الاجتماعية، فيتحول الجنس إلى مخدر ينجح في امتصاص العواطف الممزقة، لذلك يكتب لورنس: «إننا نعيش في عصر مأساة واضحة، رغم أننا نرفض تقبله على أنه مأساة، لقد وقعت المأساة، ونحن الآن وسط الخرائب».

في منتصف سنة 1856م، وفي مدينة صغيرة تسمى فرايبرج، كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية، ولد طفل لأب كان يعمل في تجارة الصوف، صارم الطباع متسلط في البيت، كانت أمه تريد أن تسميه جوزيف على اسم والدها، لكن الأب أصر على أن يسميه سيجموند، ليحمل الاسم الثلاثي سيجموند شلومو فرويد. ولد هذا الطفل الذي سيعنى بآلام النفس ومشاغلها وهمومها في أسرة تعج بالمتناقضات، الأم فتاة صغيرة حسناء لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، فيما تجاوز الأب الذي كان يعاني من العصاب الخمسين من

عمره، وهو يثير مشاعر الكره عند الطفل الصغير، الذي يشعر بالمنافسة بينه وبين أبيه على عطف أمه ورقّتها. في العام الثالث من عمره ولدت شقيقته الصغيرة، فعرف لأول مرة معنى الغيرة، ولهذا يخبرنا في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن أسعد وأجمل سنيّ حياته هي تلك الثلاث سنوات الأولى من عمره، ونراه في كتابه المثير (مدخل إلى التحليل النفسي) يؤكد على أن الأساس التكويني للحياة النفسية عند الإنسان يتم في السنوات الثلاث الأولى من العمر. وقد ظل فرويد يسترجع تلك السنوات وأحلامها فيما بعد لتكون من أهم العناصر التي بنى عليها نظريته في علم النفس، وأيضًا لتكون مدخلًا لكتابه الكبير (تفسير الأحلام) الذي يعد إلى جانب (رأس المال) لكارل ماركس و (النظرية النسبية) لأينشتاين، أهم ثلاثة كتب غيّرت مجرى التاريخ البشري.

عندما بلغ الرابعة من عمره أصيبت تجارة والده بالكساد، وانتهى الأمر بالعائلة المكونة من الأب وزوجتين وتسعة أولاد وعدد من الأحفاد إلى أن تنتقل إلى فيينا، وهناك يلتحق الطفل فرويد بالمدرسة الابتدائية التي يثبت بها تفوقًا، حيث ظل الأول على مدرسته لمدة سبعة أعوام، وظهر تفوقه الخارق في حفظ اللغات، فلم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره إلا وكان يتقن الإنكليزية واللاتينية والفرنسية بطلاقة. وبعد سنتين نراه ينكب على دراسة الإيطالية والإسبانية، لكن أكثر ما أثار اهتمامه وهو في سن الخامسة عشرة هو الفلسفة. كان يحلم بأن يصبح مثل الفيلسوف الألماني هيغل، عندما بلغ السابعة عشرة من عمره دخل جامعة فيينا لدراسة الطب، وبعد ثماني سنوات تجبره الأحوال المادية المتردّية لعائلته على ترك الأبحاث للعمل في أحد مستشفيات فيينا طبيبًا مبتدئًا، ونراه يكتب في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن تلك السنوات التي قضاها في المستشفى مكنته من التفرغ لكتابة المقالات عن طبيعة المخ، الأمر الذي دفع أستاذه أدينجر أن يطلب منه التفرغ

نهائيًا لدراسة المخ ويعده بأن يجد له مكانًا في معهد التشريح، إلا أن أبحاثه التي نشرها آنذاك سهلت له الحصول على منحة دراسية في فرنسا ليدرس الأمراض العصبية. وفي سبيل تلك الدراسة نجد فرويد يؤجل زواجه خمسة أعوام، ويؤكد لخطيبته وهو يعانقها أنه سيعود إلى فيينا بعد أن يحقق حلمه، كان قد حزم ملابسه وأخذ معه كرسيه الخشبي «بدون ظهر»، وابتاع أرخص تذكرة قطار إلى باريس ليبدأ رحلة الألف ميل إلى التحليل النفسي.

***

أنهى لورنس روايته (عشيق الليدي شاترلي) في لحظة غضب اجتاحته ضد المجتمع الغربي بأكمله، استمر في كتابتها أكثر من عامين بين خريف 1927م وصيف 1929م، وأمضى عيد الميلاد وحيدًا بعد انفصاله عن زوجته. في ذلك الوقت كان يكتب الرسائل إلى عدد من أصدقائه، قال في واحدة منها: «يبدو لي أن الأمر الرئيس بالنسبة للمرأة هو أنها لا يمكن تعريفها بكلمات من قبيل الحب أو الجمال أو الشرف أو الواجب أو الجدارة أو التحرر، فعلى المدى البعيد لا تمثل هذه الكلمات حقيقة المرأة»، وفي أخرى يضيف: «إن ما تحتاج إليه المرأة هو الاكتفاء، على الأقل الاكتفاء الجسدي بقدر ما هي بحاجة إلى الاكتفاء النفسي، الجنس بنفس قدر ما تحتاجه من الروح».

لم يكن لورنس يطمح بكتابة رواية عن حب لم يسعد به، فالأمر بالنسبة له تحوّل إلى ارتياب وحالة من الشك في العواطف التي تريد طبقة البرجوازيين فرضها على المجتمع. تدور (عشيق الليدي تشاترلي) حول السير كليفورد تشاترلي، رجل واسع الثراء تعرض إلى إصابة بالغة في الحرب العالمية الأولى تركته مشلولًا ومصابًا بعجز جنسي، فانصرف إلى الكتابة والتأليف لتعويض فشله في علاقته الحميمة مع زوجته الليدي تشاترلي، التي كانت آنذاك في

قمة شبابها وأنوثتها. لم تكد تمضي فترة حتى ضاقت ذرعًا به وأقامت علاقة مع ميلورز، بستاني يعمل لدى زوجها، تحوّلت فيما بعد إلى علاقة روحية على رغم الاختلاف الطبقي الشاسع بين العاشقين، وتُوّجت في ختام الرواية بمولد طفلها والاستعداد للزواج، حيث نجدها تغادر بيت الزوجية لترتيب حياتها من جديد.

حينما حاول لورنس نشر الرواية رفض جميع الناشرين عمله، وذلك للإباحية التي وصف بها العلاقة الحميمة بين الليدي تشاترلي وعشيقها، ما دفعه إلى طباعتها سرًا وتوزيعها. وفي المرتين الثانية والثالثة طبعها في كل من فرنسا وإيطاليا من دون تصريح، وكذلك طبعت في أميركا من دون استئذانه.

في رسالة إلى طليقته يكتب لورنس: «تلقيت عرضًا متأخرًا من المزورين الأوروبيين يحددون لي نصيبًا مقابل حق الملكية عن كل النسخ المباعة في الماضي، والتي ستباع في المستقبل لو قبلت أن أعتمد طبعاتهم، قلت لنفسي على قاعدة: من لا يُظلم يَظلم، وكان علي أن أقبل العرض. تمكنت بعد ذلك من نشر النسخة الفرنسية الرخيصة، وحثني الناشرون الإنكليز على عمل نسخة منقحة ووعدوني بمقابل كبير، وأصروا على أن تكون رواية نظيفة لا تحتوي على الألفاظ الفاضحة. كنت قد بدأت أستسلم للإغراء وأبدأ في تنقيح الرواية وتهذيبها، ولكني وجدت أن ذلك مستحيل، لأنه يعني أن أقطع أنفي بالمقص ليصبح أجمل شكلًا. ومع ذلك وعلى الرغم من كل المعارضات فإنني أعرض روايتي ككتاب أمين وصحي وضروري لنا حاليًا. الألفاظ التي تصيب بالصدمة الشديدة في البداية سيعتادها القارئ بعد أن يمضي في قراءة الرواية، هل يرجع ذلك إلى أن العقل يفسده الاعتياد، لا على الإطلاق.. إن الألفاظ تصدم العين ولكنها لا تصدم العقل مطلقًا. إن أعظم الكفر ضد الحقيقة الجنسية هو اعتبارها عملًا مشينًا مع أننا جئنا من خلاله،

المحافظون التقليديون يحرصون على عدم الخوض في المسألة الجنسية مع أولادهم واعتبار ذلك من المحرمات، لكنهم ينسون أن الغريزة هي المعلم الأول، وهي التي تقود أبناءها للحقائق دون معلّم».

في مقالة بعنوان (ملاحظات حول عشيق الليدي تشاترلي)، يلقي لورنس الضوء على الظروف التي كتب فيها هذه الرواية فيقول عن الزوج كليفورد الذي تهجره زوجته كونستانس لتضاجع حارسه: «إنه نتاج الحضارة الصناعية المادية الحديثة، مشكلته تتلخص في أن دماءه تسري فيها برودة الموت، وهو لا يفتقر إلى الدفء الإنساني فحسب، بل إنه فقد كل صلة تربطه بالنساء وبزملائه من البشر، في حين أن حارس الصيد يتميز بدفء المشاعر والحيوية، ويضيف لورنس أن هناك ما يبرر استخدامه للكلمات الجنسية المكشوفة في روايته، فالهدف هو تحرير هذه الكلمات من أية دلالات بذيئة، فليس في ممارسة الجنس ما يشين أو يدعو للخجل. يقول لورنس في دفاعه عن الرواية: «إن الإنسانية استغرقت في ممارسة الجنس دون فهمه أو إدراكه، ولهذا تحوّلت الممارسة الجنسية عبر الزمن إلى فعل آلي كالح تغيب عنه الحياة ويبعث على الملل وخيبة الآمال ومن ثم فقد حان الوقت لإدراكه إدراكًا سليمًا وذلك بتجديد الأفكار المتعلقة به».

***

في عام 1959م تولت مطبعة في نيويورك نشر رواية (عشيق الليدي تشاترلي) كاملة وبدون أي حذف منها وذلك بعد حصولها على موافقة أرملة لورنس، وظهرت الرواية في المكتبات، لكن بعد أسبوع من نشرها أمر رئيس مصلحة البريد بمنع إرسال الكتاب عن طريق البريد باعتباره كتابًا بذيئًا، كما أمرت المصلحة بمنع إرسال أية نشرات دعاية عن الرواية

بالبريد، ما دفع الناشرون إلى رفع قضية ضد مصلحة البريد وطالبوا القضاء أن يعلن أن الكتاب ليس بذيئًا بالمعنى الوارد في نص القانون القاضي بمنع المطبوعات البذيئة من التداول. وفي 21 من تموز عام 1959م أصدر القاضي الفيدرالي الأميركي حكمًا لصالح الكتاب، فقد أوضح القاضي أن رئيس مصلحة البريد تنقصه الحجة لعدم قدرته على التمييز بين المطبوعات البذيئة والمطبوعات المحترمة، وأشاد القاضي بأسلوب إخراج الكتاب على نحو محترم وبيّن أن المشتركين في شرائه قلة ضئيلة العدد ينتمون إلى فئة الأدباء، وبعد أن استعرض القاضي قضية رواية (يوليسيس) لجيمس جويس والتي كانت معروضة قبل مدة أمام القضاء، خلص إلى أنه لا يصح اعتبار أي كتاب يتناول الجنس بذيئًا إلا إذا كان اهتمامه العام يميل إلى الجنس بشكل فاضح وبحيث يطغى الجنس فيه على ما يتضمنه من أهمية اجتماعية.

مات د. ه. لورنس وعمره خمسة وأربعون عامًا، وكتب في آخر رسائله: «أعرف أن الشجرة ستموت في النهاية، فهل سأتخلى عن زرع بذرة؟ سيكون ذلك جبنًا وغرورًا». لم يعترف النقاد بلورنس إلا بعد مرور عقود على وفاته، فتحوّلت صورته من مجرد كاتب يهتم بالجنس ويدعو إلى الإباحية إلى ممثل للأدب الإنكليزي في مرحلة الحداثة ووُضع أدبه في مكانته بين الموروثات الأدبية في الرواية العالمية.

قبل وفاته بعام، وبالتحديد عام 1929م، ينشر لورنس كتاب بعنوان (فانتازيا الغريزة) يخبرنا في المقدمة أنه أراد أن يكمل به كتاب سبق أن أرسل نسخة منه إلى فرويد بعنوان (التحليل النفسي واللاوعي)، في مقدمة (فانتازيا الغريزة) يقدم التحية إلى فرويد: «نشكر فرويد أنه جذب لنا إلى الأرض شيئًا ما، خارج كل غيوم روعتنا»، وفي سطور الكتاب يوجه نقدًا للذين يعتقدون أن ما يكتبه ينتمي إلى الأدب الفاحش: «إن الإهانات لتوجه إليّ في المحل

الأول لأني استخدم الكلمات الفاحشة، كما يسمونها، غير أنه لا أحد يعلم على وجه الدقة ما الذي تعنيه كلمة فاحشة ذاتها، أو ما الذي يراد بها أن تعنيه، غير أن الكلمات القديمة التي تنتمي إلى ما تحت السرة من الجسد قد سارت تدريجيًا محكومًا عليها بأنها فاحشة. ومعنى الفاحشة اليوم هو أن رجل الشرطة يظن أن من حقه إلقاء القبض عليك ولا شيء غير ذلك».

8

تعلّموا أن الدهشة أصل الأشياء

الزمان: حزيران عام 1861م

المكان: قاعة الجمعية البريطانية للعلوم

الهمس يدور بين الجميع، فالقس صموئيل أسقف مدينة أكسفورد قرر أن يصعد إلى المنصة من أجل تحطيم صاحب كتاب يشكك بالكنيسة وما جاء بالإنجيل، قال القس إن المدعو تشارلز داروين: «أجرم بأن حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق، وما جاء في كتابه لا يتفق بحال من الأحوال مع كلمة الله»، ثم صمت قليلًا وهو ينظر إلى الوجوه الواجمة ليواصل بعدها هجومه بصوت عالٍ وهو يلوح بكتاب (أصل الأنواع): «إن هذا الكتاب يريد أن ينسف كمال المجد الإلهي»، وأنهى القس مرافعته على أنه حمد الله بأنه ليس قردًا وهو يشير إلى عالم النبات توماس هكسلي الذي كان من أشد المعجبين بكتاب داروين، ولم يكتفِ القس بذلك وإنما أشار إلى هكسلي قائلًا: «ليتفضل السيد توماس بإخبارنا عن طريق مَنْ يتصل نسبه بالقرود.. عن طريق جده أم جدته»، فرد عليه هكسلي قائلا:«لو خيرت لفضلت أن أكون من نسل قرد دنيء النسب، على أن يكون أبي رجلًا من البشر يستخدم معلوماته ومعارفه وقوته الخطابية في تحقير أولئك الذين يفنون أعمارهم في سبيل الحقيقة».

وعندما ساد الضجيج القاعة ووقف قائد السفينة التي حملت داروين في رحلته الشهيرة وهو يلوح بعصبية شديدة بالإنجيل ويصرخ: «لم أكن أدري أنني أحمل في سفينتي مثل هذه الأفعى الخبيثة (يقصد داروين)». وراح البعض يبحث عن صاحب المشكلة، فأخبرهم هكسلي أن السيد داروين مريض يعاني من آلام في الظهر.

في أواخر شهر تشرين الثاني عام 1859م تلقى محرر العلوم في مجلة (كوارتلي) البريطانية نسخة من كتاب جديد ألّفه عالم في الطبيعيات، قرأ المحرر مقدمة الكتاب باهتمام، واعترف لزملائه أن الموضوع مثير ويستحق الكتابة عنه، إلا أن رئيس التحرير وجد الأمر غير مجدٍ، فمن يهتم بقراءة عرض كتاب لمؤلف مجهول، وطالب رئيس التحرير من المحرر أن يكتب رسالة للمؤلف ينصحه فيها بتأليف كتاب عن الطيور، فهناك الكثير من القراء يهتمون بمثل هذه الموضوعات المثيرة.

صدر الكتاب في الخامس من تشرين الثاني عام 1859م. طبعت منه ألف ومئتان وخمسون نسخة، سعر النسخة الواحدة 15 سنتًا، وقد بيعت جميع النسخ في اليوم الأول، وظل باعة الكتب يلحّون على صاحب المطبعة أن يطبع نسخًا جديدة، ليعاد طبعه ثلاث مرات في نفس السنة وتصل مبيعاته في السنة الأولى إلى أكثر من عشرة آلاف نسخة، الجميع يقرأ الكتاب أو يتصفحه ثم يسأل نفسه: هل حقًا نحن من سلالة القرود؟

كان داروين في طفولته بليدًا، وفي المدرسة اشتكى الأساتذة منه لأنه لا يستوعب الدروس، قال له والده ذات يوم: «أنت لا تهتم بشيء غير الكلاب والصيد واقتناص الفئران، وإنك ستكون عارًا على نفسك وعلى أسرتك». إلا أن الصبي لم يهتم لكلام الأساتذة ولا رأي والده، فهو مشغول البال بالحيوانات والنباتات يسجل الملاحظات في دفتر صغير ويكتب في يومياته:

«اعتقد أنني متفوق على زملائي في المدرسة من حيث ملاحظة الأشياء التي يخطئها الانتباه بسهولة، ومن حيث ملاحظتها بعناية كبيرة».

أراد الأب أن يصبح أبناؤه أطباء مثله، فأرسل داروين مع شقيقه إلى جامعة أدنبره لدراسة الطب، وبعد سنتين قرر الأساتذة أنه لا يصلح لهذه المهنة فترك الطب، حاول بعدها دراسة القانون لكن المدرسين وجدوه بليدًا، وفي النهاية نجح في الحصول على شهادة في اللاهوت من جامعة كمبردج. كان ينتظر وظيفة قس في أحد الأرياف، عندما جاءه عرض مفاجئ أكثر إغراءً. دعُي للسفر على متن السفينة «البيجل» التي تقوم بمهمة المسح القومي في المياه الإقليمية. ولم يكن اختيار داروين مرتبطًا بشغفه في دراسة أحوال النبات والحيوان، لكن قائد السفينة كان يبحث عن شخص يرافقه في السفر بعد أن تركه مساعد القبطان. كانت مهمة قائد السفينة أن يضع خريطة للمياه الساحلية، لكنه كان مولعًا بالبحث عن تفسير ديني للخلق، وبما أن داروين درس اللاهوت فقد قرر قائد السفينة دعوته لمرافقته. قضى داروين على متن السفينة خمسة أعوام من عام 1831م إلى عام 1836م، كانت رحلة البيجل التي وثقها داروين فيما بعد بكتاب - ترجم إلى العربية مؤخرًا - أشبه بمغامرة استطاع من خلالها أن يجمع كميات من العيّنات لصناعة شهرته وجعلته منشغلًا لسنوات، عثر على مجموعة نفيسة من النباتات البحرية، نجا من زلزال في تشيلي، واكتشف أنواعًا من الدلافين، وطوّر نظرية حول تكوين الشُعب المرجانية، وفي سن السابعة والعشرين من عمره عاد إلى بلدته، الشيء الوحيد الذي لم يفكر به وهو على متن السفينة كان نظرية النشوء والارتقاء. فقد كانت هذه النظرية قد طُرحت قبل خمسين عامًا، فقد كتب جده الدكتور أرازموس وهو مهتم بعلوم الطبيعة ويكتب الشعر وله قصيدة بعنوان (معبود الطبيعة) يناقش فيها موضوع التطور لكنها لم تثر اهتمام الحفيد، إلا أن الصدفة تلعب دورها حين يقرأ داروين كتاب

توماس مالتوس (مقالة في مبدأ السكن) التي أكد فيها أن الزيادة في الطعام والمؤونة لا يمكن أن تتماشى أبدًا مع النمو السكاني لأسباب رياضية، وهو ما أثار انتباه داروين الذي وجد خلال رحلته أن جميع الحيوانات تتنافس على الموارد، وأولئك الذين يمتلكون التفوق الفطري سيزدهرون ويمررون ذلك التفوق إلى سلالتهم، بهذه الوسيلة ستتحسن الأنواع. قال داروين وهو يرمي كتاب مالتوس جانبًا: «إنها فكرة بسيطة جدًا، كم كنت غبيًا لأنني لم أفكر فيها». واقتنع داروين أخيرًا بأن الأنواع لم تكن دائمًا كما كانت منذ الخلق ولكنها خضعت للتغيير.

***

كان الاعتقاد السائد في القرون الماضية أن كل نوع من أنواع الكائنات الحية قد خلق خلقًا منفصلًا، وأن هذه الأنواع ثابتة لا تتغير ولا تربطها ببعضها أية صلة، وبتقدم وسائل الدراسة واكتشاف المجهر أخذت فكرة تعدد الأنواع ونظرية التطور تظهر للوجود. وكان أول شكل علمي لها على يد العالم الفرنسي جان بابتيست لامارك الذي تفرغ طوال سنوات حياته إلى دراسة أنواع الكائنات الحية وقسمها تقسيمًا علميًا في كتابه الشهير (فلسفة الحيوان) الذي صدر عام 1802م، ويعد أول من تحدث عن نظرية تطور الكائنات الحية.

إلا أن تشارلز داروين أراد من خلال كتابه (أصل الأنواع) أن يطرح فرضيّة علميّة وضعها بعد ملاحظات وبحوث ورحلات وقراءات دامت أكثر من عشرين سنة، أراد من خلالها إيجاد السبل للإجابة على سؤال لطالما حيّر العلماء حول الحلقة المفقودة في عملية التطور المعقدة التي تمت عبر ملايين السنين.

يشرح تشارلز داروين العناصر الرئيسة لنظريته في القسم الأول من الكتاب، حيث نجده يناقش الاعتراضات التي يمكن أن تثور ضد نظريته. أما في الأقسام الأخرى من الكتاب، فإنه يخصصها للحديث عن الجيولوجيا والتوزع الجغرافي للنباتات والحيوانات والحقائق ذات الصلة بعلم الأجنّة.

أما الأساس الذي يبني عليه داروين فرضيته تلك، فيتعلق برصد التغيرات التي طرأت على النباتات والحيوانات الأليفة، لا سيما منها تلك التي يتحكم بها الإنسان. ويقارن داروين ذلك، أي الفروقات في الأنواع الناتجة عن «الانتخاب الصناعي»، بالتغيرات الحاصلة في الطبيعة من دون تدخل الإنسان، أي الناتجة عن «الانتخاب الطبيعي» ليخلص إلى أنه: «حيثما هناك حياة، ثمة تغير وتطور مستمران ناتجان أساسًا عن الصراع من أجل البقاء، حيث إن الانتخاب الطبيعي يتفحص كل يوم وكل ساعة وفي كل أنحاء العالم، أبسط التغيرات رافضًا السيء منها ومضيفًا الجيد إليها، عاملًا بصمت ومن دون إحساس على تحسين كل خلية حية»، وهو يؤكد أننا في الحياة اليومية: «لا نلاحظ أيًا من هذه التغيرات البطيئة أثناء عملها، بل ستلاحظ حين تحفرها يد الزمن على مر العصور».

في العام 1918م ظهرت لأول مرة الترجمة العربية لكتاب (أصل الأنواع) لتشارلز داروين، قام بها إسماعيل مظهر، وهي الترجمة التي استكملها فيما بعد الدكتور محمد يوسف حسن، حيث قام بترجمةٍ للفصلين الرابع عشر والخامس عشر من الكتاب بعد وفاة إسماعيل مظهر.

ويرجع اهتمام إسماعيل مظهر بنظرية التطور إلى دراسته في بريطانيا لعلوم الأحياء التي جعلته يطلع على نظرية التطور والنقاشات التي دارت حولها وتاريخها، ويُحسب لإسماعيل مظهر أنه كان من أوائل من اهتموا بترجمة كتاب (أصل الأنواع)، وقام بترجمته ترجمة علمية، ووضع بنفسه ترجمات

عربية لمصطلحات علمية كثيرة لم تعرفها اللغة العربية من قبل، وربما كان ذلك من أهم أسباب انضمامه لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وتدلل سيرة إسماعيل مظهر على إيمانه بنظرية داروين، خاصة إنه تفرغ لمدة تزيد عن عشر سنوات من أجل إنهاء مؤلفه (ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء)، والذي يقول في مقدمته: «قضيت ما ينيف على عشر سنوات مكبًا كل الإكباب على دراسة مذهب العلامة داروين في النشوء والارتقاء. طالعت زبدة المؤلفات التي كتبها، والتي كتبها غيره من جهابذة علماء القرن الماضي في أصل الأنواع وأصل الإنسان وخرجت من مجمل ذلك بمذكرات وتعليقات، إن أردت أن أخرجها في كتاب لأتمت صفحاته بضعة آلاف صفحة».

وفي عام 1928م يصدر أول كتاب باللغة العربية عن داروين، وكان الكتاب بعنوان (فلسفة النشوء والارتقاء) لمؤلفة الطبيب شبلي شميل. ويخبرنا المؤلف في مقدمته أن كتابه يضم مقالات في مذهب داروين ومباحث لتأييد هذا المذهب ومناقشات علمية في الحياة لإثبات الرأي المادي، وأخيرًا خلاصات في فلسفة علوم الإنسان. يكتب في مقدمة الكتاب: «كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك، فإن يكن رأيه كل الصواب فلا تكن أنت كل الخطأ بتشبثك. وأقل ما في إطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق، وبئس الناس إذا قُسِروا على الجبن والكذب».

كان الطبيب شبلي قد ولد في بيروت عام ١٨٥٠م، ونشأ في أسرة دينية سرعان ما تمرد عليها لتعارض أفكارها مع صريح العقول الحرة، وقد تعمَّق في دراسة الفلسفة والعلوم، حتى لقَّبه زملاؤه بـ «الأستاذ الفيلسوف». وفي عام ١٨٧١م ينشر بحثًا بعنوان (اختلاف الحيوان والإنسان بالنظر إلى الإقليم والغذاء والتربية)، جاء فيه بكثير مما وجده يؤيِّد مذهب داروين.

بعدها ينشر كتابه المهم (شرح بخنر على مذهب دارون) والذي يصف فيه صاحب كتاب (أصل الأنواع) بالقول: «هذا الإمام المقدام والعالم المدقق والفيلسوف المحقق». وتبعًا لقانون البقاء للأفضل يكتب شميل رسالة إلى علماء الأزهر يؤكد فيها أن دفاعه عن نظرية النشوء والارتقاء لا يعني أبدًا كفره بالقيم المقدسة ولا حطِّه من شأن الأنبياء، بل العكس، فإنه ينظر إلى إن: «تجديد الفكر الإسلامي مرهون بقدرة زعماء الإصلاح على فتح باب الاجتهاد مجددًا».

في عام 1909م يكتب شبلي شميل مقالًا في مجلة (الهلال) عن النشوء والارتقاء حاول فيه أن يرد على الهجوم الذي تعرض له من قبل العديد من الكتاب، وكان على رأسهم جمال الدين الأفغاني ومحمد رشيد رضا، وأيضًا على البيانات التي صدرت عن الأزهر التي حاول أصحابها اتهام شميل بالإلحاد. وفي المقال يطالب بضرورة الفصل بين الدين والعلم ضمانًا لعدم تنازعهما: «الخلط بين الدين والعلم من الأمور الشائكة، لأن فيها ربط متغير بثابت، فالنظرية العلمية تتحول وتتبدل، أما أصل الشرع فثابت». كما طالب بضرورة الاحتكام لمعيار البقاء للأصلح في التخطيط وانتخاب الأفكار، والعزوف عن النهج المتزمت في الإصلاح والتغيير، مبينًا أن المنهج الثوري ينبغي أن يقوم على الإصلاح التدريجي، فالطفرة لا تنتج سوى الفوضى والعنف، أما الثورات التي يقودها العلماء والعقلاء ويؤيدها الشعب، فهي قادرة على إحداث التغيير بلا عنف أو تخريب لأنها تعبر عن فعل واعٍ. وتثور ثائرة العديد من الكتاب، بل إن البعض يطالب بطرده من مصر ويكتب محمد فريد وجدي كتابًا يفند فيه آراء شميل بعنوان (الإسلام في عصر العلم) ويرد جمال الدين الأفغاني في كتاب (رسالة للرد على الدهريين)، وتطالب السلطات المصرية من شبلي شميل أن يتوقف عن مقالاته الاستفزازية خوفًا على حياته، حيث تعرضت عيادته إلى هجوم من بعض شباب الأزهر.

في كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) يسعى شبلي شميل إلى تحقيق هدف أساسي وهو تطبيق نظرية الارتقاء على مظاهر الطبيعة كلها، بما فيها من «جَماد ونبات وحيوان وإنسان»، واستخلاص الفوائد النفعية من الفَهم المحسوس للكون وقوانينه، بعيدًا عن التأملات الصورية والنظريات المجرَّدة التي كبلت الفكر العربي لقرون طويلة. فالمظاهر الثقافية تُفهمُ بوصفها خاضعة لنفس قوانين الظواهر الطبيعية، وتتطوّر وَفق ذات النواميس والخُطط. فهو يرى أن العقائد والفنون والأخلاق والفلسفات والصنائع، تنشأ حسب قانون الضرورة، ومبدأ المجهود الأدنى. ونجده يحاول أن يفسر الأديان والنظريات الفلسفة والأفكار السياسة بوصفها إنتاجًا بشريًا، أفرزه تعامل الإنسان مع محيطه الخارجي، وليست وحيا سماويًا أو نبوغ لبعض الأشخاص، يكتب: «لا يَليقُ بنا أن نطرح ما تُبديهِ لنا الاكتشافاتُ والحَوادثُ من الحقائق، لِمُجَرّد كونه مُخالفًا لما انطَبَعَ في عقولنا».

في بغداد يبدأ الشاعر جميل صدقي الزهاوي بالتبشير بنظرية داروين ويكتب في مجلة (المقتطف) مقالًا يشرح فيه النظرية وفوائدها وأهميتها، ويرد رجال الدين بعنف عليه بأن حرَّضوا العامة ضده ليشتموه في الشارع، وطالب خطباء الجوامع بمحاكمته، بل ذهب البعض منهم إلى إهدار دمه!

ويقول علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق) إن بعض رجال الدين وعلى رأسهم السيد نور الدين الواعظ طالبوا الوالي ناظم باشا بمعاقبة الزهاوي «الفاسق» فيما دعا أئمة الجوامع الناس إلى الخروج للتنديد بما ينشره الزهاوي عن أن أصل الإنسان قرد، فاضطر الوالي إلى عزله من وظيفته، ليعتكف الشاعر في بيته خائفًا على حياته من الاعتداء عليه.

***

في بريطانيا يتأسس معهد لمحاربة العلوم المضرة، وقد أعلن المعهد أن كتاب داروين هو: «محاولة يقصد بها إنزال الله عن عرشه»، فيما أعلن رئيس الكنيسة أن مؤلفات داروين إنما تفتح باب الاضطراب في كل شيء من الأشياء التي أظهرها لنا الله في كتبه المقدسة. أما في أميركا فقد أصدر رجال الدين بيانًا اعتبروا فيه أن داروين: «يحاول أن يزيد الإشكال ظلامًا على ظلامه». ورفضت الرقابة توزيع الكتاب باعتباره «خيانة وعدم أمانة»، وأعلنت الكنيسة الإنجليكانية أن داروين يريد أن يجعل من الأناجيل مجرد خيال لا يمكن تصديقه، إنه يريد أن نكذب كلمة الخالق الأولى. ونشرت الكنيسة بيانًا قالت فيه: «إذا كنا جميعًا أناسًا وقرود قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة، فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس العظيم من أن الأجسام مختلفة وأن أجسام الآدميين نوع غير أجسام البهائم والوحوش وهذين غير أجسام الأسماك والطيور، غير صحيح؟»

وفي أستراليا نشر كبير أساقفة ملبورن كتابًا بعنوان (العلم والإنجيل) أعلن فيه أن الغرض الأول من كتاب (أصل الأنواع) هو أن يزرع في الناس إنكار الإنجيل. فيما نشر مجمع الكنائس بيانًا قال فيه: «لنا الحق في أن نعتقد أن داروين ليس إلا بوقًا ينطلق عن تلك الفئة الكافرة المجدفة التي ليس لها من غرض إلا أن تذهب بكل فكرة في حقيقة وجود الله».

وفي فرنسا كانت الحملة أشد قسوة فقد أعلنت الكنيسة أن المدعو داروين «إنسان دعي»، وإن نظرية النشوء والارتقاء «مضللة ومعتمة» وطالبت بمنع ترجمة الكتاب إلى الفرنسية، معتبرة أن مثل هذا الكتاب: «لا يؤيده إلا أصحاب أحط النزعات وأسفل المشاعر، فأبوه الكِبر وأمّه قذارة النفس، وهذان لا يلدان إلا الثورات. كتاب ما خرج إلا من جهنم ولن يعود إلا إليه، ومعه كاتبه الذي لا تعلوه حمرة الخجل عندما يعلن تلك المذاهب ويدافع

عنها». وفي ألمانيا أعلنت الكنيسة أن نظرية داروين صورة كاريكاتيرية للخلق وأكد القس هاجرمان أن (أصل الأنواع) يتناقض مع كل كلمة جاءت في الإنجيل التي يريد لها داروين أن تذهب سدى، ودعا هاجرمان إلى القيام «بحرب صليبية تعلن ضد هذا المذهب الخاطئ المفسد».

في سنة 1925م قدم الأستاذ الجامعي جون سكوبس إلى المحاكمة لتدريسه كتاب (أصل الأنواع) في ولاية تينيسي بأميركا، فيما أصدرت إدارة التعليم بيانًا منعت فيه الاقتراب من كتب داروين إلا بموافقتها.

كان تشارلز داروين الذي أثار كتابه الكثير من الجدل إنسانًا لطيفًا ميالًا إلى العزلة، عاد من رحلة السفينة البيجل مريضًا، يشكو من صداع مزمن. تزوج من ابنة خالته وعاش في قرية صغيرة بمقاطعة «كنت»، ظل طوال حياته التي بلغت السبعين عامًا يهتم بحديقة المنزل، وكان يجري تجارب على النبات لاستخدامها كأدلة في أبحاثه النظرية. يكتب في يومياته: «كلما ازددت دراسة للطبيعة، ازددت اقتناعًا بأن التغيرات والتكيفات الجميلة التي يكتسبها ببطْء كل عضو، وتختلف حسب الأحوال اختلافًا بسيطًا، إنما تفوق بطريقة لا يمكن مقارنتها بالتغيرات والتكيفات التي يخترعها أخصب خيال لإنسان». وقد سأل داروين عن سبب حبه للعزلة والوحدة فأجاب: «إن الذي حببّ له العزلة هي السنوات الخمس التي قضاها في السفينة، ورغم أنه في صباه وشبابه كان يحب الانطلاق والصيد ولعب الورق، إلا أن حب القراءة والعلم هو الذي تغلب في النهاية».

في صبيحة التاسع عشر من نيسان عام 1882م استيقظ أصحاب المنزل على الرجل السبعيني وهو يدور في الصالة بصعوبة يتلوى من آلام في المعدة، كانت نوبات من الغثيان تنتابه بين الحين والآخر. استدعي الطبيب على عجل، فشخص الحالة بأنها آلام في القولون، وفي المساء انتابته حالة من

الوهن فسقط مغشيًا، ليفارق الحياة في المساء. ولم يجد مناصروه مكانًا يدفنونه فيه سوى كنيسة وستمنستر إلى جانب قبر إسحق نيوتن وهو الأمر الذي أثار حفيظة رجال الدين فأعلن الأسقف فرر أن إنكلترا لم تعد دولة مسيحية، وأضاف: «إن دفن داروين في كنيسة وستمنستر تدنيسٌ لها، وإن هذا الشرف لم ينله داروين إلا لأنه كان الزعيم الذي قام بنشر المذهب الهزلي في نشوء الأنواع وتسلسل الإنسان عن القرد».

وبعد 160 عامًا على صدور كتاب (أصل الأنواع) ما يزال يجد الكثير من المعارضين، وخاصة من رجال الدين، لأن فكرة خلق الإنسان كما جاءت في الكتب المقدسة تتعارض في نظرهم مع ما أعلنه داروين عام 1858م.

9
كل شيء يتدهور في أيدي البشر

بعد سبعين عامًا على صدور قرار بمنع تداوله أعادت ألمانيا نشر طبعة جديدة من كتاب (كفاحي) للزعيم النازي أدولف هتلر. وقال معهد التاريخ المعاصر في ميونيخ الذي أقدم على إعادة نشر النسخة الجديدة من الكتاب إن الهدف من ذلك هو تلبية الاحتياجات التعليمية والمعرفية للأجيال الجديدة.

«لقد جعلني القدر أولد في برونو على نهر الإن وتقع هذه المدينة الصغيرة على حدود هاتين الدولتين الألمانيتين اللتين تبدو إعادة اتحادهما لنا العمل الذي يجب علينا القيام به، يجب أن تعود النمسا إلى أحضان الأمّ الألمانية الكبيرة». بهذه السطور يبدأ أدولف هتلر كتابه الذي وضع له عنوان «معركتي» وترجم إلى العربية بعنوان (كفاحي)، والذي كتبه في السجن بعد أن صدر حكم بحبسه لمدة خمس سنوات لاشتراكه في محاولة انقلاب في ميونيخ عام 1923م. وقد قسمه المؤلف إلى قسمين، الأول يروي فيه سيرته الذاتية، والثاني يقدم من خلاله مفاهيمه السياسية، ولم يلق الكتاب عند صدوره اهتمامًا من السياسيين لكنه انتشر بسرعة في ألمانيا، وسخر منه القائد الفاشي الإيطالي موسوليني وهو يقول: «كتاب مضجر، لم أتمكن أبدًا من قراءته، إن الأفكار التي يعبّر عنها هتلر في هذا الكتاب ليست أكثر من كليشيهات شديدة العادية».

وقبل الحديث عن الكتاب يجب تبيان أن مؤلفه أراد منه أن يكون أشبه

ببيان دعائي، مزج فيه بين سيرته الذاتية مع نظرته المتدنية للشعوب الأخرى وتأليه العنصر الآري «الذي هو أصل الشعب الألماني»، فالسمة الأساسية في الكتاب، هي وضع برنامج للسيطرة على العالم من خلال تصنيف الأمم والشعوب درجات درجات، مع وضع الشعب الألماني في أعلى المستويات.

العام 1889م، هو العام الذي ولد فيه الرجل الذي كان يعتقد أن الإرادة الإلهية اختارته للتبشير بتفوق الجنس الآري، وقد اختار في بداية الأمر دراسة الفنون وخصوصًا الرسم. في الثالثة عشرة من عمره يعثر على كتاب (خطابات إلى الأمة الألمانية) لفيشته، وتظل عبارات الكتاب عالقة في ذهنه يرددها مع نفسه، كان فيشته قد كتب أن: «الفكر الألماني سيفتح مناجم جديدة، وسيدخل النور والضوء إلى كل هاوية، وينسف كتلًا هائلة من الأفكار، سوف تستخدمها العصور القديمة لتبني لنفسها بيوتًا. ستكون العبقرية الأجنبية النسيم اللطيف، أما الفكر الألماني فسيكون النسر، الذي يرفع بجناحه القوي جسمه الثقيل، ويطير طيرانًا قويًا مارسه طويلًا، فيحلق من أعلى إلى أعلى لكي يقترب من الشمس التي يسحره تأملها». في الخامسة عشرة من عمره يتوفى أبوه وبعد عامين يفقد أمه، فيقرر الرحيل إلى فيينا، لا يحمل معه سوى حقيبة ملابس داخلية وتصميم على أن يصبح شخصية مرموقة.

يفشل في دراسة الرسم، فيقرر أن يصبح مهندسًا معماريًا، وفي هذا الاختيار يفشل أيضًا، فيقرر أن يجرّب حظه في السياسة، يكتب في دفتر يومياته: «لا ينال النجاح في السياسة إلا من يكون خشنًا ومتعصبًا، فالجماهير تنفر من الضعفاء والفاترين وتخضع للرجل القوي، الكامل الصفات، المتعصب، الذي يوقع الخوف في القلوب، ويمارس الإرهاب». بل إن الشاب هتلر يذهب أبعد من ذلك، حيث ينتهي إلى نتيجة تقول إن الديمقراطية فاسدة

من جذورها: «إنها بالنسبة إليّ هذا الطاعون العالمي بمثابة الحقل الزراعي الذي يمكن للوباء أن ينتشر فيه». في العام 1912م كان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، بلا عمل، يسترزق من رسم لوحات مائية للمارة في ميونيخ. في العام 1914م تنفجر الحرب العالمية الأولى ويصيح هتلر فرحًا: «لم تكن مفروضة على الجماهير، والله شاهد على ذلك بل العكس، كان يتوق إليها الشعب». في العام نفسه يُنجز كتاب أوزفالد شبنجلر (تدهور الحضارة الغربية) الذي يقرأه هتلر بعد سنوات فيرسل رسالة إلى شبلنجر يخبره فيها أن أفكارهما واحدة فلا بد لألمانيا من: «أن تنتصر.. أنا متفائل.. سننتصر». لكن مع منتصف عام 1918م بدأت القوات الألمانية تتراجع، وبنهاية تشرين الأول استسلم جميع حلفاء ألمانيا، وكانت الجيوش البريطانية والفرنسية تقترب من الحدود الألمانية، بدأت المدن الألمانية تتمرد، الإمبراطور الألماني غيليوم الثاني يتنازل عن العرش، الأفكار الثورية تنتشر بسرعة، العمال يريدون جمهورية مثل السوفييت، ولم يكن أمام الجيش الذي عاد منكسرًا إلا طريق واحد هو سحق التمرد في ميونيخ وبرلين والمدن الأخرى. كان هتلر ينتظر الفرصة، يشاهد ما يجري ويكتب: «في هذه الليالي ولد في نفسي الحقد، الحقد على صانعي هذا الحادث». في تلك الأيام يتقدم للتعيين ويعين ضابطًا في جيش الرايخ مهمته رفع معنويات الجنود، بعدها ينظم إلى حزب مغمور اسمه حزب العمال الألماني، وقرر أن يعيد تنظيم الحزب، فغير اسمه إلى حزب العمال الألماني الوطني - الاشتراكي، ووضع برنامجًا جديدًا، وشعارًا عبارة عن صليب معقوف. في التاسع من تشرين الثاني عام 1923م يشترك مع الجنرال لودندورف في محاولة انقلابية فشلت فشلًا ذريعًا، وأدت إلى مقتل العشرات من عناصر الحزب وإلى اعتقال هتلر حيث أصدرت السلطات المحلية بيانًا وصفت فيه الانقلاب بأنه من تدبير: «عصابة من المتمردين المسلحين، عهدت بمصير ألمانيا إلى السيد هتلر الذي لا يحمل صفة مواطن

ألماني إلا منذ وقت قصير». كانت المغامرة قد بدأت في اللحظة التي ألقي فيها القبض على هتلر الذي صارت له صورة «البطل المغدور السيء الطالع»، ورغم أن الحكم خفض من خمس سنوات إلى ثلاثة عشر شهرًا، إلا أنه قرر الانتقام، وبدأ يخطط لتحقيق مشروعه القديم، كتاب يرسم به أفكاره. وكان لديه مرافق يقوم على خدمته اسمه أدولف هس، وكانت هناك سيدة وقعت في غرام هتلر تزوره كل أسبوع تحمل معها بعد أن تنتهي الزيارة بعض وريقات مخطوطة من كتاب سمي فيما بعد (معركتي أو كفاحي) تذهب بها إلى مطبعة قديمة في أحد شوارع ميونيخ.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

«لن نخرج من هذه الحالة إلا بشرط صريح، هو أن نشهد ولادة عالم جديد، على أنقاض عالم قديم يتهاوى».

كان صاحب هذه الكلمات أستاذًا جامعيًا في الخامسة والأربعين من عمره، قصير قوي البُنّية، يحمل نظرات قاسية، يقف وسط مدرج كلية برلين يلقي دروسًا أشبه بالخطابات العاطفية، فيما تمتلئ المدرجات بالطلبة وبالشباب الذين يسحرهم كلام أستاذ فلسفة يدعى يوهان غوتليب فيشته، كان مشهورًا بانتقاده للدولة ومؤسساتها، وقد سببت له هذه المحاضرات مشاكل كثيرة، فبسببها خسر كرسي الجامعة في مدينة إيينا، واضطر إلى الاستقرار في برلين. كان مفلسًا، عاطلًا عن العمل، لكنه مملوء بالحيوية والأمل، إذ لم يرَ في كل ما يحدث له سوى إقرار بتأثير أفكاره القوية على المجتمع، يكتب في إحدى رسائله: «أي إنسان له تأثير قوي على مواطنيه لاقى من قبل مصيرًا آخر؟ فلنراهن على أنني، قبل انقضاء عشر سنوات، سأكون قد استحققت احترام الشعب الألماني بالإجماع». في عام 1805م يتخلى عن كرسي الفلسفة

في جامعة غرلنغن، حيث يقرر الذهاب إلى برلين ليلقي خطاباته على جمهور كبير من الطلبة. كانت قوات نابليون تتجول في المدينة، والفيلسوف مشغول بقراءة كتاب (الأمير) لمكيافيلي، ويعلن بصوت عالٍ أن الحق ليس إلا سياسة القوة، ويضع تعليقات على كتاب (الأمير) يلخصها بأنه في علاقات الشعوب لا توجد أخوة أو إنسانية، وأفضل سبيل للحفاظ على السلام هو الاستعداد للحرب حتى لا يجرؤ أحد على امتشاق السيف إذا عرف أن سيف الآخرين لا يقل مضاءً عن سيفه. كان أصدقاؤه يخشون عليه من جنود الإمبراطور الفرنسي، لكنه ظل يواصل بين عامي 1808-1807م إلقاء خطاباته الأربعة عشر والتي سميت (خطابات إلى الأمة الألمانية).

ولد يوهان غوتليب فيشته في التاسع عشر من أيار عام 1762م لأب يعمل في التجارة، يطمح أن يصبح ابنه قسًا، لكن الطفل كانت لديه هواية أخرى هي القراءة، أعجب بالفيلسوف والكاتب المسرحي لسنج، بعدها قرأ كانط، وأثّرت به كتابات أسبينوزا كثيرًا. دخل الجامعة ليدرس اللاهوت، لكنه انشغل بدراسة الشعر والفلسفة، ينشر بعد تخرجه من الجامعة كتابًا بعنوان (برهان علمي على مبدأ الحرية)، وهو الكتاب الذي أثار حفيظة الكنيسة، بعدها نشر كتاب (أسس القانون الطبيعي) و (المبادئ الأساسية لكل نظرية العلم) و (نظرية القانون). وجميعها مؤلفات وضعها قبل أن تخسر ألمانيا الحرب مع نابليون، ليصاب بخيبة أمل ويقرر كتابة خطاباته إلى الأمة الألمانية والتي يعتبرها مؤرخو الفلسفة البداية الحديثة لتأسيس فاشية القرن العشرين على يد هتلر وموسوليني.

(خطابات إلى الأمة الألمانية) عبارة عن 14 خطابًا، ألقاها فيشته على شكل محاضرات في جامعة برلين. وفيها أخذ هذا الفيلسوف الذي كان ينادي من قبل بالتنوير ومعجبًا بما وصلت إليه الفلسفة في فرنسا وإنكلترا إلى

توجيه الشعب في ألمانيا نحو «السبل التي عبرها يمكنها أن تنهض أخلاقيًا ومعنويًا، مؤكدة نبلها وحيويتها». وفي الخطابات يؤكد فيشته أن الزمن الذي يمكن فيه تحقيق الحرية والأمان من خلال الإصلاحات السياسية، قد ولى. المطلوب الآن التركيز على الأخلاق. والأمة الألمانية مؤهلة لهذا، فهي وبوحي خطاباته، أمة تنتمي إلى عرق أصليّ، له الحق بأن يعتبر نفسه الشعب المميز، بالمقارنة مع الشعوب الأخرى. فالشعب الألماني: «اختير من قبل العناية الإلهية ولكن بمهمة سامية هي إنقاذ الجنس البشري». ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يصر على أن «الفارق الوحيد بين الشعب الألماني والشعوب الأخرى يكمن في أن الألمان وحدهم هم الذين احتفظوا بنقاء الطاقة البشرية الخلاقة وكمالها».

في العام 1879م يكتب الشاب فريدريك نيتشه إلى جاكوب بوكهارت: «إرادة القوة هي أصل كل ما هو موجود وكل ما صنع الإنسان، والفرد السليم المفعم بالحيوية والنشاط مثل المجتمع السليم يدرك إرادة القوة الموجودة فيه». ويذهب نيتشه في رسالته إلى التأكيد على أن: «التاريخ كله يصبح صراعًا بين مجموعتين: هؤلاء الذين يعبرون عن إرادة القوة وغريزة الحياة، وأولئك الذين لا يعبرون عنها: هؤلاء ذوو الحياة الفقيرة.. الضعفاء.. إن الحضارة كلها من صنع أصحاب القوة والسطوة الذين ما زالوا يمتلكون إرادة قوة لا تقهر وشهوة للسلطة». ومثل معلمه شوبنهور يصر على أن «الأخلاق تنقي الحياة» يختار نيتشه زرادشت ليتحدث باسمه وليعلن أن الضعفاء لا مكان لهم، ومثل شوبنهور يعلن: «الكل يريد الشيء نفسه، العالم بلا معنى، والإنسان الأخير على وشك النهاية، من أجل ميلاد إنسان أرقى ينتصر على الحضارة المتفسخة ويتخلص من فوضى عواطفه».

***

العام 1889م يسقط نيتشه مغشيًا عليه في الطريق، فيحمله بعض المارّة إلى المصحّة، يفحصه الأطباء فيشخصون الحالة على «أنها تدهور عقلي خطير»، وتقرر احتجازه في المصحة، إلا أن الأمّ وشقيقته قررتا أن تنقلاه إلى منزلهما، حيث احتجز تحت المراقبة الدقيقة. الأطباء شخصوا حالته بداء جنون العظمة، حيث كان مصرًا على أنه القيصر، وازدادت نوبات الصراخ. كان يعتقد أن حجزه في البيت جاء بأوامر من بسمارك شخصيًا، وفي أحد الأيام حطم النافذة ليهرب، واستمرت نوبات الغضب والصراخ إلى أن مات عام 1900م. كانت إليزابيث فوستر، شقيقة نيتشه، شديدة الاهتمام بتراثه، كرست نفسها لرعاية شقيقها المريض ولتصبح الوصية عليه، وكانت مصممة على ألا تترك فلسفة شقيقها لتكون عرضة للنسيان، مقتنعة أن السنوات القادمة هي سنوات نيتشه، ولهذا قررت بعد وفاته بخمسة أعوام 1895م أن تؤسس متحفًا وأرشيفًا لأعماله، كانت إليزابيث مصممة على أن تجعل الجميع يعترفون بشقيقها كأكبر عقلية فلسفية أنجبتها ألمانيا. وتعمل على أن يصبح نيتشه بشاربه الكث ونظراته المجهدة هو الملصق الذي يعلقه الجيل الجديد من أدباء ومفكري العالم، فكتب هيرمان هيسه يقول: «لقد أعاد نيتشه تقييم كل القيم التي كنا نؤمن بها». وفي لندن يستلهم برنارد شو أفكار الفيلسوف الألماني في مسرحية بعنوان (الإنسان والسوبرمان)، والتي أثارت اهتمام أوزفالد شبنجلر صاحب الكتاب الشهير (تدهور الحضارة الغربية) فكتب مقالًا يبشر بالإنسان الألماني الجديد. كان شبنجلر يرى أن الحضارة الغربية في طريقها إلى الاندثار: «لكن اندثارها هو أيضًا إيذان بفجر جديد قادم، ستقوم أوروبا جديدة حتمًا»، هكذا كتب لصديقه توماس مان، ليس على أساس القوى القديمة في فرنسا وبريطانيا والتي يرى شبنجلر أنها متفسخة، وإنما عن طريق ألمانيا التي ستجمع بين الثقافة والانضباط العسكري وإرادة القوة النيتشوية، سيتدفق دم كثير حتمًا، فـ «الجنس الألماني يواجه مهمة صعبة، لكنه ند لها وسينتصر».

في الخامس والعشرين من شباط 1920م نشر هتلر مقالًا في إحدى الصحف الألمانية التي لم تكن معروفة، عرض فيه فكرته عن العرقية وأصرّ على أن: «ذوي الدم الألماني هم وحدهم مواطنون في الرايخ»، وفي المقال يدعو إلى إقامة الدولة العرقية التي من شأنها أن تجعل الفرد السليم وحده يقوم بالإنجاب، أما الآخرون فإنها ستنزع منهم القدرة على التوالد: «لو أن الأفراد المنحطين جسديًا قد حرموا لمدة ستمائة سنة من القدرة على التوالد، فإن البشرية ستتمتع بصحة لا تستطيع اليوم أن تكوِّن فكرة عنها إلا بصعوبة».

صدر كتاب هتلر في جزأين عام 1925م، وأشار فيه إلى أنه سيرة ذاتية، لكنه كان من خلاله قد حاول أن يبث خطاب الكراهية للأجناس الأخرى، وأن يعلن تهديده للبشرية، والكتاب يعده الباحثون اليوم درسًا عمليًا في التطرّف وتشكيل الأحزاب التي تقوم على مبدأ العنصرية. والغريب أن الكتاب باع أثناء صدوره أكثر من 250 ألف نسخة، وبعد تسع سنوات عندما وصل هتلر إلى السلطة عام 1933م وحتى لحظة انتحاره عام 1945م باع أكثر من عشرة ملايين نسخة، مع ملايين أخرى كان النازيون يوزعونها على الشباب، حتى أن غوبلز أصدر قرارًا بأن يهدى الكتاب إلى كل عروسين جديدين.

وقد أجمع الباحثون على أن هتلر في الكتاب لم يكن أكثر من رجل دعاية، ففي واحدة من صفحات الكتاب نقرأ: «إن قبول الجماهير لما يسمعونه محدود جدًا، وذكاؤهم بسيط، ولكن قدرتهم على النسيان هائلة، ونتيجة لهذه الحقائق يجب أن تكون كل الدعاية الفاعلة مقتصرة على بضع نقاط قليلة، ويجب أن نضرب على وتر هذه الصيحات باستمرار حتى يفهم الجمهور ما تريد منه أن يفهمه بصيحاتك». ويؤمن هتلر بالدعاية ويعترف أنه «يمكن بالدعاية اللبقة والقاطعة جعل الجمهور يؤمن بأن الجحيم هو الفردوس».

يقرر المؤرخون أن هتلر لم يفهم شيئًا من التاريخ، ويؤكد علماء الأجناس أن آراءه في العرقية مجرد هراء، بينما يعتبر علماء التربية أن آراءه في التعليم تعود للعصور الوسطى. كان هتلر نصف متعلم، خليطًا من عدة تأثيرات، ميكافيلي وفيشته، وأضاف إليهما قراءته المتكررة لكتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت). يكتب نيتشه قبل وفاته بعامين: «من بين مؤلفاتي كلها، يحتلّ هذا الكتاب - هكذا تكلم زرادشت - مكانة خاصة. عندما قدمته للبشرية أعطيتها أكبر هدية يمكن أن تتلقاها. إن هذا الكتاب الذي يخترق صوته أعماق القرون المقبلة ليس فقط أعلى كتاب وجد حتى الآن، الكتاب الحقيقي الذي يليق بهواء القمم والأعالي. وإنما هو أعمق كتاب انبثق من كنوز الحقيقة الدفينة الأكثر سرية. كل الظواهر البشرية تنحطّ عن علوّه الشامخ أو تقع على مسافات لا نهائية تحته.. إنه بئر عميقة لا تُستنفد، وكل سطل ينزل إليها لا يمكن أن يخرج إلا وهو مليء بالذهب المصفّى والطيبة الإنسانية».

يؤكد فيشته أن خطاباته إلى الأمة الألمانية كانت من أجل أن «تحرضكم على أن تغرسوا في الأرواح عميقًا وفي قوة، بفضل التربية الوطنية الحقة القاعدة المبنية على الإيمان بخلود شعبنا، وهي ضمانة خلودنا نحن. علام تقوم هذه التربية وكيف نمارسها؟ هذا ما سوف أجرب قوله لكم في الخطاب المقبل».

في مكتبة هتلر التي عثر عليها بعد انتحاره في الثلاثين من نيسان عام 1945م، مجموعة كبيرة من الكتب، قيل إن هتلر كان قد جمعها، وكان يقرأ كل مساء، وقد تبين أنه كان معجبًا بشكل كبير برواية (دون كيخوته) لثيرفانتس. ولديه أكثر من نسخة منها وأعاد مرارًا قراءة كتاب (مغامرات روبنسون كروزو) لدانيال ديفو، وهناك نسخ عديدة من كتاب (الأمير) لمكيافيلي، ويبدو أنه كان يضع خطوطًا على الفقرات التي تعجبه من الكتاب، فوجد الباحثون خطوطًا حمر تحت هذه العبارة التي كتبها مكيافيلي في كتابه

(الأمير): «انتقلنا الآن إلى التفكير فيما ينبغي عليه سلوك الأمير ومواقفه إزاء رعيته، أعرف أن كثيرين كتبوا عن هذا الموضوع، ولكن دعني أسأل سؤالًا: هل من الأفضل أن يكون الحاكم محبوبًا أم مرهوب الجانب؟ ولكن نظرًا لصعوبة تحقيقهما معًا، وإذا كان لا بد من الاختيار فإن الأكثر أمانًا أن تكون مرهوب الجانب من أن تكون محبوبًا، فثمة ملاحظة نلمسها لدى الناس بعامة أنهم جاحدون متقلبون مخادعون حريصون على تجنب المخاطر، يقتلهم الجشع وإذا كنت نافعًا لهم فكلهم معك، يفتدونك بدمهم وأموالهم وحياتهم ما دام الخطر بعيدًا، ولكن إذا ما دنا الخطر انقلبوا عليك».

10

من يظن أن الإنسان يستطيع أن يفلت من المحبطات؟

«لكي يُولد الإنسان كاتبًا لا بد وأن يتعلم أن يحب الحرمان والعوز، والعذاب، والمهانة، وفوق كل شيء على المرء أن يتعلم كيف يعيش منفصلًا، أن يبتعد، مثل القرد الكسلان الذي يتعلق بأشجار الغابات الاستوائية. يتعلق الكاتب بغصنه بينما في الأسفل تجيش الحياة وتتلاطم أمواجها، مثابرة صاخبة مشاغبة. وحين يصبح جاهزًا للمواجهة! يسقط في التيار ويصارع من أجل الحياة. أليس ذلك هو الكاتب؟»

هنري ميلر

قال له صاحب دار النشر الفرنسية بعد الانتهاء من قراءة مخطوطة روايته الأولى: «أخيرًا وجدتها.. لقد سهرت بالأمس مع أفظع وأقذر وأروع مخطوطة قيض لها أن تقع بين يدي، إنني حتى الآن لم أتسلم مخطوطة تماثلها في الروعة والمذاق الحلو في رسم الشخصيات والدعابة الصارخة التي تمتلئ بها صفحاتها»، ثم نظر في وجه الكاتب الذي يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا، وتبدو على ملامحه حالة البؤس والفقر التي يعيشها، ليضيف قائلًا: «بالأمس وأنا أقرأ روايتك أحسست بأنني مثل جميع المكتشفين الذين يعثرون على الشيء الذي قضوا سنوات عمرهم في البحث عنه.. أنت رجل عبقري».

كان هنري ميلر قد عاش حياة متشرد في شوارع باريس، عاطلًا عن العمل: «كنت أسير في الشوارع أبحث عن كسرة خبز أو عمل أو عن ركن حيث أهوي بجسدي، لقد قطعت آلاف الأميال ببطن فارغ مثل متسول، أعرف كل المطاعم ليس لأنني أكلت بها، بل لأنني تفرست في وجوه الزبائن الآخذين في ملء بطونهم.. أحيانًا كنت أفكر إنني ولد جائع». قال ذات يوم لصديقه بيكاسو: «قررت أن أكتب عن نفسي وأصدقائي وتجاربي ومما عرفته وشاهدته»، ثم أضاف: «هل تدري؟ أشعر بنفسي أحيانًا مثل مانعة صواعق تمتص الصعقة ثم تحولها لتيار يسري في نهر الحياة». يكتب في مقدمة (مدار السرطان): «ليس هذا كتابًا بالمعنى العادي لهذه الكلمة. لا.. إنه إهانة متصلة وبصقة كبيرة في وجه الفن والإنسان والزمن والحب والجمال».

وجد هنري ميلر آنذاك في القراءة توازنه النفسي، كان يرغب في تحسين مستواه الثقافي، فخطط لسرقة الكتب من المكتبات العامة، ومن بين مسروقاته التي يعتبرها ثمينة رواية الفرنسي فرديناند سيلين (رحلّة إلى نهاية الليل) التي سحرته منذ اللحظات الأولى، ووجد في أسلوبها التجريبي وقفزاتها وصورها الخيالية، ولغتها الحافلة بالتعبيرات المجافية للذوق التقليدي، والمشحونة برغبة واضحة وعمدية لخدش الحياء العام، ضالته، وقد قرر ميلر أن يكتب رواية شبيهة برواية سيلين تتسم بالقتامة والحدة والمرارة، رواية تعبر عن الصورة المتشائمة التي يتبدى عبرها العالم وكأنه سلسلة من الكوابيس والمغامرات التي تلاحق الإنسان الأعزل. إضافة إلى رواية سيلين، كان هنري ميلر قد ارتبط بصداقة مع أندريه بريتون السريالي الشهير الذي أعلن عام 1924م تأسيس حركة أدبية جديدة هدفها: «الوصول إلى وعي بالحياة أكثر وضوحًا من قبل، إلى وعي بها أعنف عاطفة وأشدّ شعورًا» ويذهب بيان بريتون إلى أن السريالية وسيلة تحرر شامل للفكر ولكل ما يشبهه،

وأنهم عازمون على القيام بثورة، وأنهم أصحاب اختصاص في التمرد، وأنهم سيحطمون كل القيود بعنف. ويعلنون في مكان آخر إن الثورة السريالية تهدف إلى خلق حركة في الأذهان وتهدف قبل كل شيء إلى خلق تصوّف من نوع جديد. ظل بريتون يسخر من الرواية الكلاسيكية ويصف أبطالها بأنهم «دمى مسبقة التصميم والتركيز يستخدمون العقل ويهملون كنز الحلم». يتذكر ميلر أن صداقته مع بريتون جعلت حياته «بريئة من أية أسرار دفينة، وفكره خاليًا من أي ألغاز».

كان بريتون قد طلب من ميلر أن يجمع في كتاباته بين الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية، وأن يتمرد على ما تراه العين المجردة من ظواهر، فالصورة حلم: «إن الصورة السريالية خلق حر لا يعترف بالعوائق، كأحلام الليل وأحلام اليقظة، وهي في النهاية وسيلة لإطلاق التراكمات الكامنة في النفس، وتعبير عن نزعة الحرية في الإنسان». ولقد عبر أندريه بريتون عن هذا المعنى بقوله: «يجب تغيير اللعبة، وليس مشاهد اللعبة»، وهو يقصد باللعبة الحياة، أما مشاهد اللعبة فهي الأدب والفكر والفن، وهي مشاهد لا ينظر إليها بريتون على أنها قطع ديكور، ولكن على أنها عناصر «فوق إنسانية». هذه العناصر التي تغنى بها من قبل إدغار آلان بو، وسيكتب هنري ميلر فيما بعد وهو يخصص كتابًا خاصًا عن الشاعر الفرنسي آرثر رامبو إن: «المتمرد لديه طبيعة خائنة، تميّزه عن القطيع، إنه يخون وينتهك دائمًا، إن لم يكن بالكلمات، فبالروح، إنه خائن في أعماقه، لأنه يخشى أن توحده الإنسانية التي في داخله، بابن جنسه، وهو مُحطم تماثيل، لأنه من فرط تبجيله الصورة، يغدو خائفًا منها، ما يريده، قبل كل شيء، هو إنسانيته المشتركة، قدراته على التقديس والتبجيل، إنه مريض من الوقوف وحيدًا، فهو لا يريد أن يظل إلى الأبد سمكة خارج الماء، وهو لا يستطيع العيش مع مُثُله إلا إذا حظيت هذه المثل

بالمشاركة. لكن، كيف يستطيع أن يوصّل أفكاره ومثله إن كان لا يتحدث باللغة نفسها التي يتحدث بها ابن جنسه؟ كيف يستطيع أن يكسبهم، إن كان لا يعرف الحب؟ كيف يستطيع إقناعهم بالبناء، إن كان يقضي حياته كلها بالهدم؟»

ورغم الحماس الذي كان يبديه الناشر لرواية ميلر (مدار السرطان) وتعاقده لنشرها، إلا أنه انتظر عامين قبل أن يوزعها على المكتبات، وقد أحاط المشروع بسرية تامة خوفًا من الرقابة، وحتى يحد من انتشارها حدد لها سعرًا مرتفعًا، ووزع على أصحاب المكتبات في باريس نبذة تحذرهم من عرض الرواية في واجهات مكتباتهم، ولكن هذا لم يمنع من تسرب بعض النسخ إلى بريطانيا وأميركا اللتين بادرتا بفرض الحظر عليها، ولم يمضِ عام حتى تنفد خمس طبعات من الرواية، الأمر الذي أغرى مواطنًا أميركيًا اسمه أرنست بيسنج باستيراد نسختين من الرواية عن طريق مصلحة البريد، لكن الرقابة اعترضت على ذلك، ما دفع المواطن إلى أن يعرض الأمر على القضاء، حيث قرر القاضي الفيدرالي إصدار أمر بحظر الكتاب: «من أجل حماية كرامة الإنسان واستقرار النظام العائلي اللذين يعتبران حجرا الزاوية في النظام الاجتماعي الأميركي» .

في العام 1951م تمّ تشكيل لجنة من أعضاء الكونغرس الأميركي للنظر في عدد من الكتب ومنها روايات هنري ميلر التي كانت تحصل على شهرة عالمية خارج أميركا، وتدخل منها بطرق غير مشروعة آلاف النسخ، وانتهى تحقيق اللجنة إلى القول بوجود خمسين ألف شكوى قدمها آباء وأمهات وجدوا كتب هنري ميلر ولورنس وبعض مطبوعات الأدب المكشوف عند أبنائهم، وبينت مصلحة الجمارك الأميركية، أنها صادرت أكثر من ثلاثة آلاف نسخة من رواية (مدار السرطان) كان أصحابها يريدون إدخالها إلى البلاد،

وفي عام 1958م تعرضت مؤلفات هنري ميلر للحظر والحرق واستبعدت من المكتبات بحجة أنها تُفسد الشباب وتُدمر إيمانهم بقيم أمتهم.

***

في مقال عن (مدار السرطان) يكتب ماريو فارغاس يوسا إن من وظائف الأدب تذكير الرجال والنساء أنه مهما بدت الأرض التي يسيرون عليها ثابتة، تبقى هناك شياطين في كل مكان.

ولد هنري ميلر في مدينة نيويورك في السادس والعشرين من كانون الأول عام 1891م، كان والده خياطًا، يعاني الإفلاس الدائم، والدته من أصول ألمانية أصرّت أن تعلّم ابنها لغة بلدها. وخلال السبعة عشر عامًا الأولى من حياته، كان متشنجًا بقسوة جراء تأثير والدته عليه، في سن التاسعة عشرة قرر أن يترك الجامعة ليعيش ضائعًا متشردًا، بعدها ينصرف للعمل في مهن غريبة كان آخرها موظف خدمة في شركة للهواتف، عاشر ميلر نساء كثيرات، لكنه تزوج بأربع منهن: «أنا أحب النساء القويّات، فأنا ضعيف إلى حد ما، لذا انجذب إلى النساء ذوات القوة والشخصية، معركتي معهن معركة ذكاء، كما إنني أجد نفسي مأسورًا بنساء يراوغن، ويكذبن، ويلعبن عليّ، ويغششنني بحيث يبقينني طيلة الوقت على السياج، ويبدو أنني أتمتع بذلك». حاول منذ أن كان في المدرسة الثانوية أن يكتب، لكن لم يتمكن من نشر كتاباته بسبب فضائحيتها، سافر إلى باريس عام 1928م، لكي يلتحق بزوجته الثانية وقد حاول هناك أن يحصل على وظيفة لكنه فشل. في باريس استطاع نشر (مدار السرطان) أولى رواياته، بعد هذه الرواية توطدت شهرة هنري ميلر وتلقى التشجيع والثناء من الشاعر الإنكليزي الشهير ت. س. إليوت، الذي كتب له رسالة يقول فيها: «لقد وجدت طريقك في الحياة كاتبًا

أصيلًا.. مفعمًا بالحيوية ومطرزًا بزخارف وبذاءة ماضيه الخاص ومحاولًا أن يعبر عن آرائه بصدق عن الحياة والموت والقدر والأخلاق والحقيقة».

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية سافر إلى اليونان ليقضي فيها فترة قصيرة، ويلتقي هناك بالكاتب لورنس داريل، وقد كتب عن هذه الرحلة في روايته (عملاق ماروسي)، بعدها يعود إلى أميركا ليستقر في كاليفورنيا، ويستمر بالكتابة، حيث نشر في هذه المرحلة الكثير من الكتب. في العام 1936م تصدر (مدار الجدي) لتكتمل لديه ثنائية روائية، وقد سارعت أميركا بفرض الحظر عليها، كما أن إنكلترا لم تسمح بتداول هذه الروايات. في العام 1941م ينشر كتابه (عالم الجنس) ويشرع بكتابة روايته (الصليب الوردي)، في عام 1945م ينشر روايته (الكابوس المكيف للهواء). عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية هاجمها ميلر بشدة وكتب كتابًا بعنوان (لنقتل القتلة) يصف فيه الحرب بأنها سمسرة قذرة للسياسيين وأنها لا تعنيه، وأنه مسالم جدًا رغم كل العنف الذي يشعر به في داخله، حتى في حياته الخاصة يكره التقاتل. ويحلم أن يجلس عظماء العالم، متأثرين بالحكمة والصفاء، ومحكومين بنشر السلام العالمي على الكرة الأرضية. ويجد أن حضارة الغرب أصيبت بتصلب الشرايين، وأنهم يعيشون موت الثقافة، وأحاطوا أنفسهم بجميع الظروف لموتهم الوشيك. ويقول إنها النهاية، لقد صنعنا كل شيء من أجل الانفجار، والنهضة مجرد شكاوى للمتفائلين.

اتسمت علاقته بأبيه بالبرود المتبادل وغياب التفاهم، عانى كثيرًا من تسلط أمّه وقسوتها: «لم أشعر بدفء منها، أبدًا لم تقبلني، ولم تحتضني، ولا أتذكر أنني طوقتها يومًا بذراعي، ولم أكن أعرف أن الأمهات يفعلن ذلك، لقد كان الناس في هذا الحي الألماني شديدي الانضباط، وقومًا قساة حقًا». بعد الحرب العالمية الثانية وبعد دخول الجيش الأميركي باريس لتحريرها

من النازية، اكتشف الجنود الأميركيون كتاب (مدار السرطان) وسرعان ما راحت نسخ الكتاب تنفد من المكتبات، في هذا الوقت كان هنري ميلر يعيش بائسًا في كاليفورنيا، يستأجر كوخًا على الشاطئ بسبعة دولارات في الشهر، وذات يوم وصلته برقية من الناشر الفرنسي تبلغه بأن أرباحه من كتاب (مدار السرطان) بلغت الخمسين ألف دولار، عندها فقط تمكن من شراء بيت خاص به في منطقة تدعى بيغ سور، والذي عاش فيه إلى نهاية حياته.

في الخمسينيات نشر هنري ميلر خطاباته المفتوحة ليلفت الأنظار إلى محنة الفنان في بلاده، الأمر الذي جعل منه بطلًا ورمزًا في عيون جيل كامل من الأدباء والفنانين، وقد هاجم ميلر الرقابة التي تمنع كتبه في أميركا، فما اعتبره الرقيب بذاءة في رواياته، اعتبره ميلر صدقًا في التعبير عن الواقع الإنساني. توفي ميلر في منزله في السابع من حزيران 1980م عن عمر يناهز الـ88 إثر مشاكل في الدورة الدموية، وحسب وصيته تمّ حرق جثمانه وتوزيع رماده بالتساوي بين ابنه وابنته.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

ولد لوي فرديناند سيلين عام 1894م لعائلة يهودية وتوفي سنة 1961م، وقضى بداية حياته في باريس، ثم رحل مع عائلته إلى جنوبي فرنسا حيث التحق بكلية الطب ليتخذ من الطب مهنة له، وفي عام 1928م افتتح عيادة طبية. في تلك السنوات بدأ بكتابة روايته الأولى (رحلة في آخر الليل)، وقد وجد الناشر فيها شيئًا جديدًا وجريئًا، ظهرت الرواية عام 1932م فأحدثت ضجة كبيرة، وقد استمد سيلين أحداث روايته من تجاربه الشخصية وبعض ما شاهده من مآسٍ في الحرب العالمية الأولى، وفيها يصوّر البؤس والظلم الاجتماعي من خلال التجارب الشخصية التي يعيشها بطل الرواية باردامو،

الذي يرسم لنا صورة لا رحمة فيها لمشهد عبثية الحياة، تلك الحياة المكونة من «الأكاذيب الصغيرة وضروب قسوة الإنسان على أخيه الإنسان». إن العالم الذي صوّره سيلين في هذا العمل، يبدو على الدوام لا مهرب منه ولا يحمل بارقة أمل. ومع هذا ها هو سيلين نفسه يقول لنا: «ما هي خلفية هذه الحكاية كلها؟ لست أدري، إذ ما من أحد فهم حقًا هذه الخلفية، ومع هذا أقول لكم ببساطة إنها الحب.. الحب الذي لا نزال نجرؤ على التحدّث عنه وسط هذا الجحيم».

بعد الرواية ينشر سيلين بيانًا بعنوان (سفاسف من أجل مذبحة) وفيه يُظهر عداءه لليهود، وفي البيان يطالب سيلين بهدم كل النزعات الفاسدة تمهيدًا لإقامة معالم الفكر الأدبي الحديث. وبعد عام ينشر روايته (مدرسة الجثث) التي زادت فيها حدة هجومه على اليهود، فحكمت عليه المحكمة بغرامة بتهمة السب العلني، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية يعتقل في كوبنهاكن ويحكم عليه بالإعدام، لكن يفرج عنه عام 1946م تحت تأثير مرضه الشديد، في سنة 1950م تحكم عليه المحاكم الفرنسية بالسجن عامًا ووصمته بالخسة القومية وصادرت أملاكه، وفي عام 1951م يخرج من السجن فيعمل طبيبًا في الأرياف يعالج الفقراء، ويتفرغ لكتابة عمله الروائي الكبير (من قصر لآخر). ظل سيلين يعد كاتبًا ملعونًا، فالحظ لم يكن من نصيبه، وقد تعرض في حياته للهجوم من سارتر وألبير كامو. فهو في نظرهم المفكر والكاتب الفوضوي اليميني الفرنسي الذي لم يتورع عن مناصرة النازيين خلال الثلاثينيات والأربعينيات، حيث منعت كتبه وتعرضت المكتبات التي عرضتها للهجوم والحرق. ولكن برغم هذا يعترف سارتر أنه كثيرًا ما فكّر بشخصية باردامو بطل رواية سيلين (رحلة في آخر الليل) وهو يكتب روايته، كما أن كامو يعترف بتأثره بالرواية نفسها حين كتب (الغريب). تكتب سيمون دي بوفوار في كتابها المثقفون: «لقد

كنا في ذلك الحين نقرأ كل ما يصدر من كتب. أما الكتاب الفرنسي الذي كان ذا قيمة أكبر بالنسبة إلينا فكان خلال ذلك العام (رحلة إلى آخر الليل) لسيلين، حيث كنا نحفظ بعض مقاطع الكتاب غيبًا. ذلك أن فوضى سيلين كانت تبدو بالنسبة إلينا شديدة القرب من نزعتنا الفوضوية. هو أيضًا كان يهاجم الحرب والكولونيالية والتفاهة والأفكار السائدة. كان يهاجم المجتمع بأسلوب وبنغمة يُفتنّنا. في ذلك الحين كان سيلين صاغ أداة جديدة: كتابة لها حيوية الكلام العادي، وهذه الكتابة هي التي جعلت سارتر يتخلى نهائيًا عن اللغة المفخمة التي كان يستخدمها من قبل.

***

ظلت الرقابة في أميركا وبريطانيا تفرض الحظر على رواية (مدار السرطان) لمدة ربع قرن، في شهر تشرين الأول من عام 1960م قررت الرسامة دورثي أبهام أن تتحدى قرار الحظر وذلك بإبلاغ دائرة الجمارك بنيتها إدخال نسخة من رواية (مدار السرطان) إلى الأراضي الأميركية، فانتظرها رجال الجمارك عند هبوطها في مطار إيديل وقاموا بمصادرة النسخة، وكانت إحدى دور النشر قد نشرت رواية (عشيق الليدي تشاترلي) للورنس وبعض كتابات صمويل بيكت، وجدت في الخبر فرصة لخوض المعركة مع الرقابة للسماح بنشر الرواية، فتولت الرسامة دورثي على نفقتها مهمة الدفاع عن الرواية، وكلفت المحامي الشهير إفرايم لندن بتولي القضية وقد حددت المحكمة يوم التاسع من أيار عام 1961م للنظر في أمر الرواية المحرمة، وفي نفس الوقت أعلنت دار النشر إنها بصدد نشر (مدار السرطان). وقف المحامي أمام المحكمة ليصرح بأن (مدار السرطان) تخلو من البذاءة وأن مصادرتها إجراء غير قانوني، وأضاف المحامي أن المحكمة يجب أن لا تنظر إليها على

أنها رواية جنسية وإنما أمامها تحفة أدبية وإحدى روائع الأدب الأميركي. في ذلك الوقت كان هنري ميلر يقوم برحلة لسويسرا ومن هناك كتب لإحدى الصحف يقول إن ثلاثة من العرافين تنبأوا بأن (مدار السرطان) سوف تُحرز عند نشرها نصرًا كاسحًا، وبعد عدة جلسات صدر قرار الحكم بالإفراج عن الرواية المصادرة، لكن هذا القرار قوبل بالرفض في العديد من الولايات الأميركية التي رفعت قضايا ضد الرواية مطالبة بمنعها. وما أن نشرت (مدار السرطان) في تشرين الثاني من عام 1961م حتى نفدت في الأسبوع الأول الطبعات الثلاث، ويبلغ عدد نسخ كل طبعة عشرين ألفًا، وقد باعت دار النشر خلال الشهر الأول أكثر من مئة وخمسين ألف نسخة، ولم تنته أزمة الرواية فقد وصفتها مجلة تايم الأميركية بأنها كتاب قذر للغاية، في حين نشرت مجلة لايف على صفحتها الأولى صورة لميلر وروايته واصفة إياها بأنها تحفة أدبية متفجرة ومدمرة. في عام 2019 يكتب جورج أورويل مقالًا عن رواية (مدار السرطان) بعنوان (داخل الحوت) حيث يشبه ميلر بشاب لا يطاق في رسم كاريكاتيري، حيث يقول هذا الشاب لعمته إنه ينوي أن يصير كاتبًا، فلما سألته عمته عما يعتزم الكتابة عنه رد عليها: «يا عمتي العزيزة إن المرء لا يكتب عن شيء بعينه، بل إنه لمجرد أن يمسك القلم ويكتب». ويضيف أورويل إن الجديد الذي استحدثه ميلر في عالم الأدب له علاقة بنوع الطبقة التي ينحدر منها: «فهذا الجديد يمثل صوت الجماهير والمطحونين وراكبي عربات الدرجة الثالثة والناس العاديين والسلبيين يشيحون بوجوههم عن السياسة والأخلاق».

11

ليس بالسياسة وحدها يحيا الإنسان

بعد سلسلة من محاولات اغتيال فاشلة تعرّض لها قرر «بكل بساطة من غير المنطقي ترك الأمور هكذا». كان في الحادية والستين من عمره، عندما استيقظ في صباح يوم السابع والعشرين من شباط عام 1940م، ليذهب باتجاه مكتبه، قال لنفسه لم يعد الأمر يحتمل التأخير، جلس وكتب وصيته، لم يفعل ذلك إلا لهدف قانوني، كان يريد أن يضمن لزوجته وراثة حقوقه كمؤلف. كانت الوصية أشبه برسالة يعلن فيها أن نهايته باتت وشيكة.

لم يخطر بباله أنه سيموت على يد قاتل متحمس: «إن ضغطي الدموي المرتفع والمستمر بالارتفاع يخدع من هم بقربي بشأن وضعي الحقيقي. فأنا نشيط وقادر على العمل. لكن النهاية قريبة بالطبع». كان يعتقد أنه في طور متقدم من تصلب الشرايين وأمراض القلب وأن طبيبه الخاص يخفي عنه الحقيقة. كان مرض صديقه فلاديمير لينين وإصابته بالشلل غالبًا ما كان يحضر في ذاكرته، فقد كان يأمل أن يفاجئه الموت وهو في السرير لأنها حسب قوله «ستكون أفضل نهاية يمكن أن يتمناها». أدرك أنه أراد من الحياة أشياء كثيرة، وأحس بـ «غنى الواقع الهائل». كانت الوصية شخصية جدًا، يعلن فيها بسطور قليلة أنه ليس ثمة حاجة لأن يدحض افتراءات ستالين ضده، لأنه ليس من لطخة واحدة تلوث شرفه الثوري، وأن جيلًا جديدًا سيعيد له مكانته وسينتصر للثورة التي غدر بها. لا تتضمن الوصية أية نصائح

سياسية، فقد كرسها لتحية ناتاليا: «بالإضافة إلى الغبطة التي منحتني إياها كوني مقاتلًا لأجل قضية الاشتراكية. منحني القدر سعادة أن أكون زوجها. فخلال قرابة أربعين عامًا من الحياة المشتركة، بقيت نبعًا لا ينضب من المحبة والشهامة والحنان. لقد عانت آلامًا طويلة.. لكني أجد تعزية في كونها عرفت كذلك أيام سعادة».

كان قبل أيام يجلس مع ناتاليا في صالة المنزل الذي تحوّل إلى ما يشبه القلعة، فقد أضيف المزيد من الفولاذ إلى الأبواب والنوافذ، فيما جُنّد جيش من الحراس للمراقبة، قال لها وهو يمسك بكف يدها: «طوال الثلاثة والأربعين عامًا من حياتي الواعية. كنت ثوريًا، وطوال اثنين وأربعين عامًا، قاتلت تحت راية الماركسية، ولو كان علي أن أعود من البدء، لكنت حاولت تحاشي هذا الخطأ أو ذاك، لكن مجرى حياتي الرئيس يبقي على حاله دون تبديل. سأموت ثوريًا، ماركسيًا، وليس إيماني بمستقبل البشرية أقل اتقادًا، إنه في الحقيقة أكثر صلابة حاليًا، مما كان أيام صباي»، ثم اقترب منها أكثر وهو يقول: «الحياة جميلة فلننظفها للأجيال القادمة من كل شر». كان قد أخبر المقربين منه أنه اتفق مع ناتاليا على أن من الأفضل الانتحار بدل ترك العمر يحوّل المرء إلى حطام: «أحتفظ لنفسي بحق تحديد لحظة موتي. لكن مهما تكن ظروف هذا الموت، سأموت بإيمان لا يتزعزع في المستقبل الشيوعي، هذا الإيمان بالإنسان وبمستقبله يمنحني، حتى في هذا الحين، قدرة على المقاومة».

في تلك الأيام أيضًا كان جوزيف ستالين قد قرر ألا يترك ليون تروتسكي وقتًا أطول على قيد الحياة. في عام 1936م كتب تروتسكي كتابه الشهير (الثورة المغدورة)، وقد تمّ مصادرة نسخ منه في الاتحاد السوفييتي أدخلها بعض البحارة سرًا، كان ستالين يقول لمن حوله إن هذا الكتاب أشبه بالديناميت.

في الثالث والعشرين من أيار عام 1940م أيقظته ضجة شبيهة بمعركة بالرشاشات، ولما كان متعبًا حيث قضى النهار كله يكتب، اعتقد أن الأمر يتعلق بمكسيكيين يحتفلون بإطلاق الألعاب النارية، لكن الانفجارات كانت قريبة جدًا: «في قلب الغرفة القريبة مني بالذات وفوق رأسي. غدت رائحة البارود أكثر حدةً ونفاذًا كانوا يطلقون علينا النار». كانت نتاليا قد قفزت من السرير وجعلت من جسدها متراسًا له، وبعد لحظة أجبرها على التمدد على الأرض، الرصاص لا يزال ينهمر. بقيا مختبئين في الظلمة، بصمت، فيما كان المهاجمون يطلقون الرصاص عبر النوافذ والأبواب، تكتب ناتاليا فيما بعد: «ثم خيم الصمت.. صمت لا يحتمل، كنت أفقد قوتي نتيجة التوتر واليأس، وفكرت أنهم سيعودون بين حين وآخر للإجهاز عليه»، في نظر تروتسكي كان الحظ هو الذي أبقاه على قيد الحياة، كان ينهض كل صباح ويقول لزوجته: «أترين، فهم لم يقتلونا في الليلة الماضية، ومع ذلك فأنت لا تزالين مستاءة». بعد يومين قال لناتاليا وهو يضحك: «لقد حصلنا على تأجيل للتنفيذ».

بعد ثلاثة أشهر على الغارة الليلية، وفي صباح العشرين من آب 1940م استيقظ في السابعة صباحًا، توجه إلى مكتبه، كانت إحدى الصحف قد طلبت منه أن يكتب مقالًا عن الحرب التي تخوضها النازية ضد العالم، كتب أن: «الحرب الحالية هي، كما سبق أن أعلنا في أكثر من مناسبة، استمرار للحرب الأولى، لكن الاستمرار ليس تكرارًا بل تطوير، تعميق، مفاقمة». بعد ساعات طلب جاك مونار الإذن بالدخول عليه. كان قد تعرف على جاك قبل أكثر من خمسين يومًا، ففي الثامن والعشرين من أيار 1940م وجد تروتسكي نفسه للمرة الأولى أمام شاب قدم نفسه كمتسلق للجبال، ومحب للتروتسكية، وقدم عرضًا لمساعدة الحركة ماليًا، وكان بين الحين والآخر يقول إنه بصدد إعداد كتاب عن الحركة الأممية. كانت ناتاليا تتساءل أحيانًا

لماذا يكثر هذا الشاب من زياراته، في ذلك اليوم كان جاك مونار يرتدي معطفًا، عرضت عليه زوجة تروتسكي الشاي، سألته إنْ كان قد انتهى من كتابه، فقال لها إنه جلب المخطوطة معه، كانت رزمة أوراق يحملها بيده، في غرفة المكتب جلس تروتسكي وانحنى على الأوراق التي قدمها له جاك، كان قد تصفح الصفحة الأولى حين تلقى ضربة رهيبة على رأسه، كان جاك قد أخرج الفأس وأغمض عينيه وبكل قوته وجّه الضربة إلى الجمجمة المنحنية على الأوراق، يذكر جاك مونار فيما بعد هذه اللحظة فيكتب: «أطلق الرجل صرخة لن أنسى صداها ما حييت.. كانت صرخة طويلة طويلة.. وما زالت تطرق رأسي». بعد يومين توفي تروتسكي متأثرًا بجراحه.

***

في تشرين الأول من عام 1935م احتفل بعيد ميلاده السادس والخمسين، في ذلك اليوم تذكر ما قاله له لينين ذات يوم: «هل تعرف ما هو أسوأ الآفات، أن يكون سن المرء أكبر من الخامسة والخمسين». لكن لينين لم يعش ليبلغ هذا العمر، توفي وهو في سن الرابعة والخمسين: «هذا هو قدرنا، معركة نضال بعد أخرى، ضد التفاهات السياسية والحماقات، وضد الانتهازية». تلك كانت المهمة التي قالها له لينين عام 1916م، لا يزال تروتسكي يتذكر صاحبه الذي قاد الثورة معه. يكتب في يومياته: «لا يوجد قط رجل عمل على قدر من الإخلاص مثل لينين»، كان الاثنان يؤمنان أن النظرية والتطبيق لا ينفصلان، يكتب لينين: «بدون نظرية ثورية، لا يوجد عمل ثوري». كان لينين دائمًا ما يستشهد بالخلاصة التي وضعها غوته في مسرحية (فاوست): «النظرية رمادية، والأخضر، إنما هو شجرة الحياة الخالدة».

في كانون الأول عام 1935م كان الأطباء قد نصحوه بأن يستريح قليلًا،

فالاضطرابات التي تحدث في صحته تحيّرهم، لكنه يريد أن يكتب وصيته السياسية، ففي بلاده لا يزال الرفيق القديم ستالين يشوه مفاهيم الثورة التي حددها لينين، وكان أبرزها أن يرفض المحكومون، بفعل بؤسهم ويأسهم وغيظهم، مواصلة الحياة كما هي في السابق. في السادس عشر من كانون الأول عام 1935م يبدأ يخط الجملة الأولى من كتابه (الثورة المغدورة): «السؤال الذي نطرحه باسم القارئ، هو: كيف استطاعت الزمرة الحاكمة، رغم أخطائها التي لا تعد، الحصول على سلطة لا حدود لها». يحتل كتاب (الثورة المغدورة) الذي نشر عام 1936م ووصلت منه نسخة على مكتب ستالين بعد أيام من صدوره، له مكانة خاصة ضمن مؤلفات تروتسكي، فهو الكتاب الأخير الذي أنجزه، وهو أيضًا كان السبب في الإسراع بإصدار قرار للتخلص منه، وقد قدّم فيه تحليل للمجتمع السوفييتي ورؤية نقدية لتاريخ الثورة الروسية، حتى منتصف حكم ستالين، فهو يناقش به موضوعات حول الاشتراكية والصعوبات التي ينبغي أن تتصدى لها الثورة البروليتارية ودور البيروقراطية والاستبداد في حرف الثورات عن مسيرها، وفيه أيضًا تحليل لوضع الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية، ورؤية حول المستقبل. يكتب إسحق دويتشر أن كتاب الثورة المغدورة إنما هو منشور للأزمنة القادمة، وإعادة عرض خلاقة للمفاهيم الماركسية. ونجد تروتسكي يقدم شهادته على مرحلة حاسمة من الحقبة السوفيتية. كان ستالين قد أعلن إن الاتحاد السوفييتي أنجز بناء الاشتراكية وإن «دستورًا جديدًا هو الأكثر ديمقراطية في العالم سوف يمثل الحقبة الجديدة»، لكن تروتسكي أخذ على نفسه مهمة دحض الكتابات التي ينشرها صديقه اللدود ستالين عن الثورة والماركسية والمادية، وقرر أن المجابهة يجب أن تكون بالفهم الماركسي الكلاسيكي للاشتراكية. وقد بيّن في (الثورة المغدورة) أن الاشتراكية تفرض مسبقًا اقتصاد وفرة، ولا يمكن أن تقوم على الحاجة والفقر، كان ستالين قد

أشار إلى الرأي الذي عبّر عنه ماركس بصدد أطوار الاشتراكية، الطور الأدنى حيث يكافئ المجتمع كل أعضائه وفقًا لعمله، والطور الأعلى حيث يكافئه وفقًا لحاجاته، وقد أعلن ستالين أن الاتحاد السوفييتي كان في الطور الأدنى، بينما بيّن تروتسكي في (الثورة المغدورة) إن ستالين يُسخر مفاهيم ماركس ليبرر حالة اللامساواة السائدة في الاتحاد السوفيتي، كان تروتسكي يصر على أن ينتزع أفكار لينين من النسيان وخصوصًا في كتابه (الدولة والثورة) وأن يستخدمها في حربه ضد ستالين، الذي حوّل حسب تعبير تروتسكي «دولة الكومونة» الأثيرة على قلب لينين إلى دولة السجن، إنها دولة من: «صنع البيروقراطيين المنتصرين، المجبرين على قطع صلاتهم بالمبادئ الأساسية للاشتراكية». ويتأمل تروتسكي في الجملة التي قالها ماركس عن الثورات التي تحسّن آلة الدولة بدلًا من أن تحطمها ويتحسر، لقد مضى عشرون عامًا على الثورة البلشفية التي انتصرت بفضل لينين والآن أين هي هذه الدولة؟ كان تروتسكي يدافع عن هذه الدولة في وجه ستالين، فهو يصر على أنه لا يمكن تصوّر الاشتراكية من دون اضمحلال الدولة، فالدولة كانت قد انبثقت من صراع الطبقات، واستمرت كأداة للسيطرة الطبقية، والحالة هذه فإن الاشتراكية تعني زوال التضادات الطبقية والقمع السياسي فقط تبقى الوظائف الإدارية للدولة «إدارة الأشياء لا إدارة الناس»، ظل لينين يتصوّر دكتاتورية البروليتاريا كنوع من نصف الدولة وحسب، على شاكلة كومونة باريس، دولة يكون موظفوها منتخبين يجري إقصاؤهم بالتصويت، ويقبضون أجورًا لا تزيد عن أجور العمال، بحيث لا يتمكنون من تشكيل بيروقراطية منفصلة عن الشعب، يشرح لنا تروتسكي في (الثورة المغدورة) إن التجربة الستالينية هي ردة فعل البرجوازية الصغيرة ضد ثورة أكتوبر: «إن الجماعة القائدة تحمي مصالح أقلية من محققي المكاسب». ويتساءل تروتسكي هل أن الطبقة الحاكمة وصلت إلى درجة من القوة دمّرت معها

العنصر الاشتراكي؟ وضد هذه الطبقة الحاكمة يصوغ تروتسكي منهاجه للمرحلة القادمة: «ليس من حل سلمي، فالبيروقراطية لن تتخلى عن مواقعها دون معركة. لم ير أحد حتى الآن الشيطان يقضم مخالبه بكامل رضاه». وقد دعا إلى ثورة سياسية لا ثورة اجتماعية، أي ثورة تطيح النظام الستاليني، لكنها لا تبدل طبيعة النظام الاشتراكي: «ليست الغاية أن نبدّل عصبة حاكمة بعصبة أخرى، ولكن الهدف هو تغيير طرق الإدارة الاقتصادية والثقافية نفسها، كما ينبغي للتعسف البيروقراطي أن يخلي مكانه للديمقراطية السوفييتية فالديمقراطية تقودنا في الاقتصاد إلى إعادة النظر جذريًا في كل الخطط لصالح الشغيلة، كما أن المناقشات الحرة ستخفف من الأخطاء التي ارتكبتها البيروقراطية وتعرجاتها».

يكتب إسحق دويتشر: «نجد أن طريقي لينين وتروتسكي اللذين تباعدا طويلًا التقيا آنذاك، كان كل منهما توصل إلى استنتاجات بلغها الآخر قبله بكثير، وطالما اعترض عليها بحدة وصرامة، لكن لا هذا ولا ذاك وعى بوضوح أنه تبنى وجهة نظر الآخر، فبعد أن انطلقا من نقاط مختلفة، وعبر مسارات متباينة، انتهيا الآن إلى التلاقي».

***

في جنوبي أوكرانيا ووسط المزارع، كان يقيم دافيد ليونيتيفيتش برونشتاين في المزرعة التي اشتراها قبل أكثر من عام، حيث كان يستثمر أمواله في الأراضي الزراعية مثل أجداده، أما زوجته، فكانت من بيئة مختلفة، تهوى قراءة الكتب وتذهب لتسجل اسمها في مكتبة المدينة، وبين الحين والآخر تتحدث مع زوجها عن رواية جديدة قرأتها لتولستوي أو تورجنيف. كان دوستويفسكي يسحرها بقصصه الغريبة والمؤثرة، ومن غرائب القدر أن

يكون يوم السادس والعشرين من تشرين الأول عام 1879م، الذي ولد فيه الطفل الذي سيطلق عليه اسم ليون تروتسكي، هو اليوم ذاته بعد ثمانية وثلاثين عامًا الذي سيكون فيه ابن هذه العائلة أحد قادة الانتفاضة البلشفية. في السابعة من عمره يرسله والده إلى مدرسة يهودية، ليدرس فيها التوراة، وكانت الدروس تتضمن أيضًا قواعد اللغة الروسية والرياضيات، إلا أن إقامته في المدرسة لم تكن طويلة، فبعد أشهر قليلة اضطر والده أن يعيده إلى البيت، إذ كانت تبدو على الصبي ملامح التعاسة في المدرسة، وهكذا ودّع الدراسة الدينية، وأخذ يتابع أمّه وهي تقرأ في كتب الأدب. وبعد أكثر من عام يقرر أحد أخواله أن يصطحبه معه، وخلال السبع سنوات التي قضاها مع هذا الخال أتقن اللغة الروسية، وكان الخال متحمسًا لتحويل الصبي إلى تلميذ متميز ففي المساء كان يلقي عليه قصائد الشعراء الكلاسيكيين بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف شاعرهم المفضل الذي كانت قصائده صيحة احتجاج ضد الظلم، وقد سمع للمرة الأولى برواية (أوليفر تويست)، وقرأ خفية كتاب (البعث) لتولستوي، وفي المدرسة تعلم اليونانية واللاتينية وقرأ العلوم والرياضيات وسرعان ما أصبح الأول في صفه، «لم يكن من حاجة لأحد كي يحثه على العمل أو القلق بصدد دروسه، فهو كان يعمل أكثر مما هو مطلوب منه».

كانت صورة الفتى تروتسكي تتشكل، فهو صبي جميل، بعينين حادتين خلف النظارتين، أما شعره فكان غزيرًا فاحم السواد، يرتدي ثيابًا أنيقة، بحيث يظهر «كبرجوازي حقيقي»، كان زملاؤه في المدرسة يعترفون بتفوقه، بعد سنوات ستغدو غرفته ممتلئة بالكتب، إن رؤية الكتب وهي على الأرض أو على الرفوف أو فوق المكتب تثيره، وكان يستنشق باستمتاع رائحة الورق المطبوع، تلك الرائحة التي احتفظ بميل شديد إليها حتى خلال مشاركته

بالثورة، في تلك السنوات سمع للمرة الأولى بشكسبير: «عشقت كلماته عشقًا عنيفًا»، وكان مشغولًا بالمسرح: «تعلقت بالأوبرا الإيطالية، وكنت أعطي دروسًا لأكسب بعض المال يخولني دفع تذاكر المسرح»، عندما يعود إلى البيت يطلب منه والده أن يشرف على عمل المزرعة، يمسك السجلات ويحاسب العمال، وكان الوالد العجوز يتشاجر مع ابنه، لا سيما حين يجد الأب أن حسابات ولده تراعي العمال كثيرًا، وكانت هذه المشاجرات تغذي روح التمرد داخله. في تلك الفترة سينضم إلى إحدى المجموعات الثورية السرية، في سن الثامنة عشرة، بدأ يشارك في اللقاءات السياسية، ويدعو إلى الإضرابات، حتى قُبض عليه في كانون الثاني 1898م، وأودع السجن لمدة ثلاثين شهرًا بتهمة التحريض على الثورة، ثم أُبعد بعد خروجه إلى سيبيريا، لكنه هرب من منفاه بجواز سفر مزوَّر أعدّه بنفسه باسم تروتسكي، وهو اسم السجان الذي كان يتولى أمره في السجن، فلازمه هذا الاسم طوال حياته.

سافر إلى فيينا، ومنها إلى زيورخ ثم إلى لندن، حيث تقابل مع لينين عام 1902م، في كانون الثاني عام 1905م قرر العودة إلى روسيا، فشارك في الاضطرابات والإضرابات التي اندلعت هناك، وقُبض عليه في أيلول من العام نفسه، وأودع السجن ثم نُفي إلى سيبيريا مجددًا، لكنه تمكن من الهرب إلى فنلندا، وهناك قابل لينين ثانية، ثم غادرها إلى ألمانيا في هجرة طويلة امتدت عشر سنوات.

في تشرين الأول عام 1908م أدار تروتسكي صحيفة (برافدا) وتعني بالروسية الحقيقة، أنشأها لمخاطبة جماهير العمال، وكانت تُهرَّب إلى روسيا، ودعوته الأساسية فيها كانت ضرورة القيام بثورة روسية شاملة للقضاء نهائيًا على الرأسمالية وإقامة النظام الاشتراكي في أنحاء العالم كلها.

في 17 أيار 1917م، وجد الأحوال السياسية في روسيا ازدادت سوءًا، فالقيصر تنازل عن العرش، وأسرة رومانوف بأكملها كانت في طريقها إلى الزوال من حكم روسيا، والفوضى مسيطرة على أجهزة الدولة والحكومة المؤقتة لم تتمكن من السيطرة على أجهزة الحكم، كان لينين قد سبقه في العودة إلى البلاد، بعد الإفراج عنه بدأ مع لينين يخططان في هدوء وتنظيم دقيق لقيام الثورة.

في ظهيرة الثامن من تشرين الثاني عام 1917م ظهر لينين وبالقرب منه يقف تروتسكي ليعلن أن الثورة في روسيا قد تمت.

12
الحقيقة تستحق أن يُسعى في طلبها

الساعة العاشرة ليلًا من يوم 30 أيار عام 1778م دخل الطبيبان إلى الغرفة، كان الرجل الممدد على السرير يئن بصوت خافت، قام أحدهما بفرك الصدغين، ففتح المريض عينيه وقال: «دعوني أموت»، حاولت المرأة التي تسهر على رعايته أن تستدعي القس، قال لها بصوت واهن: «لا تحدثيني عن ذلك الرجل.. دعيني أموت بسلام»، ثم ناول أحد القريبين منه ورقة أخرجها من تحت الوسادة، كان مكتوبًا فيها: «إني أموت على حب الوطن، والإيمان بالله، لم أعتدِ في حياتي على أحد، ولم أبغض أعدائي، أحب أصدقائي، ولا أؤمن بالخرافة». في الثانية عشرة ليلًا كان قد استنفد كل قواه واستسلم للموت، إلا أن حكايته لم تنتهِ، ففي خارج المنزل كانت الحشود تنتظر أن يخرج إليها، ولم يجرؤ المحيطون به على أن يعلنوا خبر وفاته، وكان القرار أن تخرج الجثة من الباب الخلفي للدار لتوضع في عربة لتدفن في الضريح الذي أعد له، ومن أجل إتمام مراسم الدفن توجه ابنا شقيقته إلى الكنيسة كي تهب خالهما جنازة دينية، وبرغم الوساطات التي قام بها عدد من المسؤولين الكبار، إلا أن الكنيسة رفضت رفضًا قاطعًا منح بركاتها للميت الذي كان يشتم فيها ليل نهار، ويؤلب الناس عليها، وأصدرت تعليمات صارمة بأن كل رجل دين يتدخل في هذه القضية سيعفى من منصبه، وجرى الاتصال بالملك، فوجد نفسه في موقف محرج وأجاب: «إنه ما من سبيل سوى ترك

الكهنة يقومون بمهمتهم». مر يوم على الوفاة، وكانت باريس ما تزال تجهل ذلك، وفي لحظة ما قرر ابنا شقيقته أن يقوم خالهما بأداء دوره الأخير في الحياة، فاستدعيا إلى غرفة الميت جراحًا وصيدلانيًا، ليقوما بتشريح الجثة، وتحنيطها، وبعد أن انتهوا من المهمة ألبسوا الجثة الثياب ثم وضعوها في العربة بهيئة الجلوس، وشدوا العربة بستة خيول، إذ كان ينبغي التحرك بسرعة. كان الميت يجلس على وسادات، مشدودًا بقوة ومقيدًا بأحزمة مموهة، وقد جلس إلى جانبه خادم ليكون رفيق سفر، وتبعه ابنا الأخت في عربة أخرى، عند أبواب باريس أدى الحراس التحية للرجل الجالس في العربة وكان واحدًا من المشاهير، وانطلق الموكب بسرعة، ليصلوا إلى مدينة سيلير ليلًا، كان الدير الذي قرروا دفن الجثة فيه شبه مهدم، فاختاروا أن يدفن قرب المذبح، قاموا برفع حجر كبير وحفروا قليلًا، ووضعوا تابوتًا من أربعة ألواح، مددوا الجثة التي تمردت في حياتها على الكنيسة والملك، وقد تم الاتصال بأحد القساوسة الذي أقام قداسًا بسيطًا، ثم ووري التابوت وغطي بالحجر. بعد أسابيع علم أسقف باريس بأن فرانسوا ماري آروويه الشهير بفولتير مات ودفن في سيلير، فأصدر قرارًا بمحاسبة رئيس الدير ونبش الجثة، وأخبرهم القس أن أبناء شقيقة المتوفي قدموا له بيانًا بأن خالهم رجع إلى الإيمان، ورفض نبش الجثة قائلًا إن فولتير له الحق في الدفن ولم يصدر بحقه حرمان. الأمر الذي أغضب أسقف باريس الذي أصدر مرسومًا كنسيًا بحرمان القس من عمله، إلا أن الأمر كان قد وصل إلى الصحافة التي قادت هجومًا ضد الإساءة إلى جثمان فولتير، الذي استطاع في النهاية أن يرقد بسلام ولكن إلى حين.

ما أن قامت الثورة الفرنسية عام 1789م حتى بدأ رجال الثورة يفكرون في نقل جثمان الفيلسوف العظيم كما كان يسميه روبسبير، وبسبب الاضطرابات تم تأجيل الأمر لأكثر من عامين، وبدأت بعض الصحف تطالب بتكريمه

باعتباره أبًا للثورة، وهكذا صدر القرار في 1 أيار عام 1791م بنقل الرفات، وأحيطت الجثة المحنطة بورق السنديان، وحملت على مرأى من الجموع التي كانت تلقي بأوراق الزهور على الميت. جرى تحديد يوم 11 تموز موعدًا لنقل الرفات إلى باريس، وهو اليوم الذي قرر فيه الملك لويس السادس عشر الهرب من القصر إلا أن محاولته أُحبطت حيث تم توقيفه في مدينة فارين، وتصادف أن تلاقى الموكبان، موكب الملك أسيرًا في عربته يحيط به حرس الثورة، وموكب جثمان فولتير يحيط به حرس الشرف، حيث يدخل الأول إلى باريس أسيرًا مهزومًا، فيما يدخل الثاني منتصرًا محاطًا بالحرس الملكي الذي كان يطارده بالأمس، والملك يرفع ستارة العربة لينظر إلى الرجل الذي تسبب في تَصدع مملكته ولم ينفع السجن والنفي في إسكات صوته.

في باريس التي وصل إليها النعش كان مئات الآلاف قد تجمعوا لاستقباله وهم يهتفون تحية للتابوت، فيما الخيالة يتقدمون الموكب، وأرتال لا نهاية لها من المشاة تحيط بالتابوت الذي كان يجد صعوبة في شق طريقة وسط الحشود الهائلة، كانت باقات الزهور ترمى من النوافذ.

ولد فرانسو ماري آروويه «فولتير» في باريس عام 1694م من أبوين من طبقة الأثرياء، فقد كان والده كاتب عدل مدينة باريس، وأمه من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية المعروفة بثرائها وبذخها.

ومثل عدوّه اللدود جان جاك روسو، الذي جاء إلى الدنيا بعده بثمانية عشر عامًا، لم يشاهد أمّه، إذ لم تستطع الأمّ تحمل متاعب آلام الوضع فماتت إثر ولادته، وكانت الممرضة التي سهرت على ولادته قد أخبرت والده أن ابنه لن يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة بسبب ما كان عليه من ضعف شديد. وحين عُرض على الأطباء كان قرارهم أنه لن يعيش أكثر من أيام معدودة، لكن الأقدار تشاء أن يعيش لأكثر من ثمانين عامًا، ألّف فيها أكثر

من مئة كتاب ورسالة فلسفية، سلّم في نهايتها برميل الثورة المتفجر الذي ظل يصنعه لأعوام طوال إلى كل من روبسبير ومارا ودانتون، ليفجروه صبيحة يوم 14 تموز عام 1789م، وقد استمدت الجمهورية الفرنسية أفكارها من كتابات فولتير وروسو، فكانت أول ثورة تقرر فصل الدين عن الدولة والمساواة وحرية التعبير، وتلغي الإقطاع وامتيازات النبلاء ورجال الدين، وتضع أموال الكنيسة تحت تصرف الدولة، وتنشر مبدأ مجانية التعليم، ومشاريع العدالة الاجتماعية.

***

لسنوات طويلة كان فولتير يحفظ هذه العبارة ويرددها أمام ضيوفه: «إن الإنسان يبغي من المعرفة حياة خيرة سليمة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحديد ضوابط الفهم الإنساني، فبناء الحياة لا يستقيم إلا بإرساء أسس المعرفة». ويقول عن صاحبها إنه لا يوجد عقل أكثر منه حكمة على مرّ التاريخ.

كان صاحب هذه المقولة ولد في 29 آب من عام 1632م في إحدى قرى الشمال الإنكليزي، والده يعمل بالمحاماة، وكان حريصًا على أن يكفل لابنه تربية مستقلة متحررة، وقد كان لهذا أثر كبير في اتجاه جون لوك منذ الصغر نحو التأمل الفلسفي، وقد كتب عن الآراء التي حصل عليها من والده فيما بعد في كتابه (خواطر في التربية) الذي يوصي فيه بالاستعاضة عن منهج خضوع الطفل خضوعًا أعمى لوالديه، وأن يستبدل ذلك بالرعاية المعتدلة التي تعمق الصلة بين الطرفين، وقد كان واضحًا أن لوك خلق للحياة التأملية، فقد كان رجل دراسة، صحته ضعيفة، يشكو من الربو المزمن، كانت الفلسفة تجتذبه خصوصًا بعد أن قرأ ديكارت لأنه برأيه «الفيلسوف الأكثر وضوحًا»، كما تفرغ لدراسة آراء الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز،

وفي الجامعة قرر أن يدرس الطب والعلوم المرتبطة به، فدرس الفيزياء والكيمياء، لكنه رغم ذلك لم يشأ أن يجعل من الطب مهنة له، فسرعان ما امتدت اهتماماته إلى الميادين الاجتماعية والسياسية.

وقد كان من أنصار توسع سلطات البرلمان وتضييق الخناق على سلطة الملك، الأمر الذي جعل السلطات تضيق الخناق عليه وتراقبه، فقرر السفر إلى فرنسا حيث قضى بضعة أعوام يدرس فلسفة ديكارت، يعود بعدها إلى إنكلترا، فيجد أن تدخله في السياسة ومطالبته برفض الحكم المطلق تجعله يغادر بلاده من جديد وهذه المرة منفيًا إلى هولندا ليعيش هناك خمس سنوات نشر خلالها رسالته الشهيرة في التسامح، يعود إلى إنكلترا عام 1689م ومعه مخطوطتا الكتابين اللذين صنعا شهرته، الكتاب الفلسفي (بحث في الفهم البشري) والكتاب السياسي الذي عنوانه (بحث في الحكم المدني)، وهو عمل وضع فيه الأساس للتأكيد على الحق في مقاومة السلطة الجائرة والحق في الثورة كملاذٍ أخير. في الكتاب يسعى جون لوك إلى تحديد السلطة باعتبارها حالة بشرية لا علاقة لها بالسماء، ولهذا من حق الأفراد التمرد عليها، وكانت الغاية الأساسية من الكتاب هي أن يؤسس للحرية السياسية، ويطمئن لوك المجتمع إلى أن هذه الحرية ليست حالة مطلقة أبدًا، ولا تؤدي إلى حرب الكل ضد الكل كما توقع هوبز، لأن العقل الطبيعي «يعلّم الناس جميعًا، إذا رغبوا في استشارته، أنه لا ينبغي لأي واحد منهم أن يُلحق ضررًا بغيره، لا بحياته، ولا بحريته، ولا في ماله، طالما أنهم جميعًا متساوون ومستقلون». ويضع لوك ببراعة تفسيرًا لأصل الحكم المدني بالتمييز بين السلطات، فللإنسان في حالة الطبيعة نوعان من السلطات، وبدخوله الحالة المدنية يتخلى عنهما لحساب المجتمع الذي يرثهما. للإنسان سلطة أن يعمل كل ما يراه مناسبًا لبقائه وبقاء سائر البشر، وهو يتخلى عنها لكي تكون هذه السلطة مضبوطة ومُدارة بقوانين المجتمع، وهكذا يملك المجتمع، وريث البشر الأحرار في

حالة الطبيعة سلطتين أساسيتين، الأولى هي التشريعية التي تنظم كيف وينبغي استخدام قوى الدولة من أجل بقاء المجتمع وبقاء أعضائه، والثانية هي التنفيذية التي تؤمن تنفيذ القوانين، لكي تسير أمور المجتمع على ما يرام ينبغي على الناس أن يحترموا المواثيق والعهود التي قطعوها على أنفسهم. فإذا أخل كل واحد بكلامه أو لم يحترم الوعد الذي قطعه على نفسه فإن المجتمع يخرب وينهار. وبالتالي فالحرية تعني احترام كل هذه المبادئ. الحرية مسؤولية في نظر جون لوك. وقوانين الطبيعة هي التي تفرض علينا ذلك. وهي قوانين عقلانية تنطبق على جميع البشر.

كان السؤال الذي يشغل بال جون لوك هو: كيف يمكن التخلص من الحكم الديكتاتوري؟ وهل يتمكن الشعب من أن يؤسس لنظام حكم قائم على الحرية، واحترام كرامة الإنسان الفرد؟ ويحاول لوك من خلال الفصول الأولى من الكتاب أن يدحض فكرة وراثة السلطة، ثم يبدأ في الفصول الأخرى تقديم صورة واضحة المعالم لنشأة الحكم المدني ومدى أهميته لينتهي إلى القول: «فمن شاء ألا يفسح لنا مجال القول إن جميع حكومات الأرض إن هي إلا وليدة السطوة والعنف، وإن البشر إنما يعيشون معًا كما تعيش البهائم حيث الغلبة للأقوى، فعليه أن يبحث عن منشأ آخر للحكم، ومصدر آخر للسلطة السياسية». أثناء إقامته في هولندا حاول عدد من أصدقائه تهريب مخطوطة (في الحكم المدني) إلى إنكلترا، إلا أن السلطات الملكية ألقت القبض على اللورد ويليام راسل والجرنون سيدني، وكانا قد نظما حركة سياسية ضد الملك تشارلز الثاني طالباه فيها ومعهما جون لوك بأن لا يورّث العرش لأخيه، ووجهت لهم الاتهامات بالخيانة العظمى، وكان من ضمن القرائن التي استخدمتها المحكمة وجود مخطوطة كتاب (في الحكم المدني) الأمر الذي أدى إلى إعدامهما ومطالبة الحكومة الهولندية بتسليم جون لوك لأنه

يُشكل خطرًا على التاج الملكي البريطاني. فيما أصدرت الكنيسة قرارًا بتحريم الاطلاع على كتب جون لوك وخصوصًا كتابيه (مبحث في الفهم الإنساني) و (رسالة في الحكم المدني)، الأمر الذي أثر كثيرًا على لوك الذي تدهورت حالته الصحية في سنواته الأخيرة، فاعتزل الناس في الريف إلا أنه توفي في 27 تشرين الأول عام 1704م.

***

عاش فولتير ظروفًا صعبة وكلفته جرأته وصراحته الكثير من التضحيات حتى أنه وضع وصفًا طريفًا لحياته: «في فرنسا يجب أن تكون السندان أو المطرقة. أنا اخترت أن أكون سندانًا». وكان يسعى إلى أن تصبح الحياة من حوله أكثر حيوية وقوة: «كل مَنْ ليس حيويًا ومستعدًا للمواجهة فهو لا يستحق الحياة واعتبره في عداد الموتى». عُرف فولتير أيضًا بلهجته القاسية واللاذعة وبحسّه الساخر الممزوج دائمًا برغبة في التغيير، وشكّل ظاهرة فريدة في الفكر الفرنسي، انتقلت عدواها إلى عواصم ثقافية أخرى فتأسس ما يشبه «المدرسة الفولتيرية الفلسفية» التي بدأت معالمها تتضح أكثر من خلال كتابه الشهير (القاموس الفلسفي) الذي ترجم بعضًا منه المفكر المصري حسن حنفي . ويعتبر قاموس فولتير هذا أهم عمل أنتج خلال عصر التنوير، ففيه نقد للطغيان وفيه كراهية للتعصب، وفيه إدانة للحروب، وفيه إنكار للميتافيزيقيا بكل غيبياتها، وفيه دعوة إلى المساواة. يُعد هذا الكتاب في نظر مؤرخي الفلسفة أول مؤلف فلسفي يستخدم اللغة العادية في التعريف بالأفكار الفلسفية، ونرى فولتير من خلال صفحات الكتاب يلجأ إلى أسلوب السخرية.

في مقدمة الكتاب يوضح فولتير هدفه من هذا القاموس فهو يبغي أولًا: رفض عقيدة العناية الإلهية التي تدور حولها الديانة المسيحية، وبالتالي رفض كل ما يتعارض مع العقل في ميدان العقائد أو ما يتعارض مع الأخلاق في مجال العلاقات الإنسانية. وثانيًا: هدم الفلسفات التي تحاول أن تدخل الإنسان في متاهات الخرافات. وثالثًا: الدعوة إلى السلام والتسامح ورفض الحروب الدينية والدنيوية وشجب التعصب العقائدي. ولعل هدف فولتير من خلال القاموس كان واضحًا حين كتب لفريدرك الأول رسالة يشرح فيها مضمون كتابه: «أسعى لأن أعيد بناء الدين والمعتقدات على أسس عقلية، والقضاء على الخرافة والأساطير وكل ما يشذ عن العقل».

يطرح فولتير في القاموس رأيًا جريئًا وصادمًا حين يؤكد أن معظم العقائد في الأديان هي نسيج من الأساطير ومن وضع جماعات دينية، ونراه يلخص قضية الدين بجملة مؤثرة: «إن كل المناقشات حول هذه العقائد تضر أكثر مما تنفع، ولا يبغي الدين أكثر من الإحسان والعدل، إن هناك فرقًا بين ما قاله المسيح وبين ما يعرف باسم المسيحية، فالمسيح لم يدع إلى العقائد بل إلى الأخلاق الفاضلة، لم يؤسس عقائد، ولم يقم دينًا ولم يسن شعائر أو طقوسًا». وينبهنا فولتير إلى أن الفضائل الحقيقية هي التي تقدم الخير إلى المجتمع، فالاعتدال فيه محافظة على الصحة، والإخلاص والتسامح فيهما إبقاء على العلاقات الاجتماعية. وبهذا نرى أن فولتير يرفض الفضائل التي جاءت بها الكتب الدينية، والتي تتلخص بالشجاعة والكرم والحكمة، فالدين بالنسبة له هو الحياة، والحياة هي رعاية مصالح الناس، ويرفض فولتير الفكرة القائلة بأن المتدين لديه أخلاق، أما غير المتدين فلا أخلاق له، ويصر فولتير على أن الدين الوحيد الصحيح الناتج عن استعمال العقل هو التنزيه المطلق الذي يظهر في الأخلاق العملية، من خلال ممارسة العدل، أو

الإيمان بأن تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به. ويحاول فولتير وضع المبادئ العامة للدين الشامل ويجعلها في نقاط هي: ألا يقوم التدين على العناية الإلهية أو خلود النفس، وأن عبادة الله بطريقة شاملة، لا بالطقوس، وأن الأخلاق هي الدين الصحيح، ويضع الاعتدال ضد التعصب، ويرفض تقديم القرابين للكنيسة، كما أنه يؤمن أن التوحيد نتاج العقل المستنير لإنتاج التوراة والإنجيل.

وكان الهدف الأول من كتاب فولتير هو الدعوة إلى السلام والنظام الجمهوري وللمساواة بين البشر، حيث يرى فولتير أن أفضل نظام سياسي يقوم على العقل، ويصر على إشاعة مفهوم الجمهورية التي تقوم على الديمقراطية ومبدأ تبادل السلطات: «إن الجمهورية هي أفضل نظام ملائم للبشرية لأن الملكية تنتهي إلى الطغيان، ولا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله، بل لا بد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة، يصيح الدكتاتور بأنه يحب وطنه وهو في الحقيقة لا يحب إلا نفسه». وينكر فولتير على رجال الدين تدخلهم في شؤون السياسة، ويدعو إلى علمانية الحكم، ويهاجم ادعاءات الكنيسة التي تريد أن تسيطر على البشر. لذلك اعتبر (القاموس الفلسفي) لفولتير أهم مصادر الثورة الفرنسية، وظل وقتًا طويلًا بمثابة دستور لها.

يتساءل البعض هل فولتير فيلسوف؟ بعض كتّاب سيرته يؤكدون أنه قاوم إرادة الاشتغال بالفلسفة، في مرّات كثيرة كان يسخر من الذين ينادونه بلقب الفيلسوف، مؤكدًا عدم ثقته بالفلاسفة: «يخطئ الفلاسفة حين يعتقدون أنهم عندما يتناولون مسائل نظرية صرفة، يَحلون على الفور مشكلات الواقع». كان يقول إن حلم تغيير العالم يجب أن يقوم به الناس البسطاء، لا أصحاب كتب المنطق، وكثيرًا ما كان يسخر من صورة الفيلسوف المتجهم الوجه: «ويل للفلاسفة الذين لا يستطيعون إزالة تجاعيد وجوههم بالضحك، إنني

أنظر إلى الوجوم الذي يسيطر على الفلاسفة نظرتي إلى المرض». وعلى الرغم من نأي فولتير بنفسه عن الفلسفة، إلا أن مكانه الشرعي بين الفلاسفة الذين صنعوا فكر التنوير يحتل مركزًا متقدمًا.

كان فولتير في بداية مساره كاتبًا مسرحيًا، وقد انتقل من سجن الباستيل إلى الشهرة في زمن قصير جدًا، حين قُدمت له عام 1718م مسرحيته الخالدة (أوديب)، وقد حظيت بإقبال كبير حتى أنها عُدّت آنذاك واحدة من درر المسرح الفرنسي، وقد عادت عليه بأموال كثيرة، جعلت والده يقتنع أن الأدب يمكن أن يجلب المال، فكان يقول لأقاربه وهو سعيد: «فرانسوا هذا ولد خبيث، استطاع أن يجني المال الوفير من ضحكات الناس ودموعهم». بعد (أوديب) قدم عددًا من الأعمال المسرحية أشهرها (بروتوس)، (موت القيصر)، (الابن البار)، (زوليم)، (محمد)، (ميروب). وفي القصة كتب الكثير، غير أن قصة زاديغ التي ترجمها طه حسين كانت الأشهر. أما رواية (كانديد) فكانت تمثل خلاصة وجهة نظره في مستقبل أوروبا، وقدمت عبر بطلها ما يشبه السيرة للكاتب. عرفت (كانديد) شهرة واسعة، خاصةً أن فولتير وبعد أن تطرق للأزمنة الماضية وسرد أحداث التاريخ وتطوره، قدم نظرته للعالم الجديد الذي انطلق بعد الحروب التي وصفها بقوله: «هذا القرن شبيه بحوريّة البحر، النصف الأول منها جميل مثل أسطورة والنصف الآخر قبيح ومخيف في شكل ذيل سمكة». وحين كتب (كانديد) قرر الابتعاد عن العالم الخارجي وعن صخب المجتمع الذي كان يستهويه، وعزل نفسه. «أريد أن أمتلك الأرض بكاملها أمام عيني في عزلتي».

13
علينا أن نعيش، وندع غيرنا يعيش

ما إنْ شاهدها حتى صرخ بصوت عالٍ: «يا إلهي هل يعقل أن هذه المرأة الصغيرة تشعل هذه الحرب العظمى؟» كان إبراهام لنكولن قد انتخب رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية عام 1860م، وقد مرّ على الحرب الأهلية عامان، وكانت السيدة ضئيلة الحجم التي استقبلها في البيت الأبيض سببًا في فوزه بالانتخابات، قال له بعض الأصدقاء إن روايتها (كوخ العم توم) مكنته من الجلوس على كرسي الرئاسة.

كانت هارييت ستاو في التاسعة والثلاثين من عمرها حين كتبت رسالة إلى رئيس تحرير صحيفة (العصر القومي) تخبره فيها أنها بدأت بكتابة رواية بعنوان (الحياة بين المساكين) وتأمل أن تنشرها على حلقات في الصحيفة، توقعت أن تنتهي من الرواية خلال شهرين، لكنها تأخرت عامًا كاملًا لتنشر الحلقة الأولى وبعنوان جديد (كوخ العم توم) في شهر تموز عام 1851م. كان الاتفاق الذي وقع مع الصحيفة يتضمن نشر أربع حلقات من رواية قصيرة، وعبرت هارييت ستاو عن أملها في أن تأتيها تلك الحلقات الأربعة بما يكفي لشراء ثوب جديد من الحرير، لكنها وجدت نفسها تستمر في الكتابة، فقد كانت الأحداث تتكدس في ذاكرتها ما جعل الحلقات تمتد على مدى عام كامل.

لم يتوقع رئيس التحرير أن يتضاعف توزيع الصحيفة عشر مرات بسبب

هذه القصة العاطفية التي أرسلتها له المرأة القصيرة، وما أن أخبرته أن الحلقات ستنتهي قريبًا، حتى قرر أن يقنعها بإصدارها في كتاب وسيمنحها 50 بالمئة من الأرباح شرط أن تشارك بنصف تكاليف الطباعة، ولأنها لم تكن مطمئنة من نجاح روايتها، فقد رفضت العرض، واختارت أن تحصل على عشرة بالمئة من الأرباح، وبرغم نجاح الرواية في الصحيفة إلا أن الناشر لم يكن يتوقع نجاحًا كبيرًا للكتاب، فقرر أن يطبع ثلاثة آلاف نسخة بيعت في اليوم الأول، مما اضطره أن يطبع عشرة آلاف أخرى بيعت خلال أسبوع، وفي نهاية الشهر كانت مبيعات الكتاب قد وصلت إلى 100 ألف نسخة في أميركا لوحدها. كانت ثماني مكائن طباعة تعمل ليل نهار لسد احتياجات باعة الكتب، كان الناشر يعجز عن توفير جميع الطلبات. وبعد عامين كان كل شخص في أميركا يعرف القراءة والكتابة قد قرأ رواية (كوخ العم توم)، ولم تكن شهرة الكتاب محصورة في الولايات المتحدة، حيث تم تهريب نسخة منه مقابل خمسة جنيهات لتطبع في إنكلترا، ولتباع أكثر من مليون نسخة في عام واحد، وأصبحت الرواية ظاهرة عالمية، بيعت أكثر من أي كتاب في القرن التاسع عشر. لقد غيّر كتاب (كوخ العم توم) الطريقة التي كانت تفكر فيها أعداد لا تحصى من القراء في الولايات المتحدة ومعظم أوروبا في النظر إلى العنصرية والعبودية، وربما ساهم في تغيير تاريخ أميركا حيث يعده البعض السبب في انتخاب إبراهام لنكولن الرئيس الذي أصدر مرسوم إلغاء الرق.

يكتب الفيلسوف الأميركي إمرسن أن الرواية كانت أشبه بـ: «إشعال حريق ضخم، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذي اكتسح أمامه كل شيء وعبر المحيط الشاسع نفسه، حتى بدا أن العالم كله قلما كان يفكر في شيء أو يتحدث عن شيء سواه». وفي روسيا حصل ليف

تولستوي على نسخة من الرواية فاعتبرها من الكتب العظيمة السامية التي «تدفقت معانيها من ينبوع المحبة لله سبحانه وللإنسان»، وقال لزوجته صوفيا: «إن هذه السيدة الأميركية وإن كانت بيضاء، لكنها امتلكت القدرة على أن تدخل في ثنايا ذاتية السود، حاشدة كل ملكاتها في تصوير حياتهم والتعاطف مع بؤسهم واستشراف آفاق أبعد وأرحب وأفضل تعدهم بالحرية وتبشرهم بالانعتاق». بعد سنوات سيكتب الفيلسوف الشهير وليام جيمس في كتابه (معنى الحقيقة) إن قراءته في شبابه لرواية (كوخ العم توم) مكنته من أن يطبق المبادئ التي تضمنتها الرواية على نفسه في مختلف أنواع السلوك في حياته، فوجد أن فكرة الرواية منحت فلسفته: «حافزًا أقوى على الانتشار، وتسامحًا أحكم نحو الآخرين، ونظرة أصفى للكون، وآفاقًا أوسع، ورضى أعمق، وسلامًا أعظم، وأصبحت فلسفته على أهبة الاستعداد للتوجّه إلى العالم».

ولدت هارييت ستاو في ولاية كونيتيكت سنة 1811م لوالد كان يعمل واعظًا أصرّ على أن يورّث المهنة لأبنائه الذكور، وأن تقضي عائلته حياتها في جو ديني، فأدخل ابنته هارييت إلى مدرسة دينية، لكنها سرعان ما أبدت اهتمامًا بقراءة وكتابة المقالات. وتتذكر أنها حضرت في تلك الفترة إحدى المهرجانات التي ألقى فيها رالف إمرسن إحدى خطبه والذي طالب فيها «برعاية كل فكر جديد، وكل رأي لم تثبت صحته بعد، وكل مشروع لم يُجرب بعد»، بعدها كانت تتابع ما يكتبه إمرسن في الصحف وتعلمت منه الحكمة التي كان يرددها في مقالاته: «علينا أن نعيش، وندع غيرنا يعيش، ونعاون غيرنا على أن يعيش».

في العام 1842م تتعرف على مارك توين الذي كان صديقًا لأحد أشقائها، وقد شجعها على الاستمرار بالكتابة بعد أن قدمت له أولى تجاربها وكانت

عبارة عن مجموعة قصصية تناولت فيها حياة المهاجرين، ورغم أن الكتاب لم يجذب سوى عدد قليل من القراء، إلا أنه أثار اهتمام مارك توين الذي كتب لها رسالة يحيي فيها شجاعتها على تبني قضايا المُعدمين والفقراء. قبل هذا التاريخ كانت قضية إلغاء الرق والعبودية تشغل اهتمام ستاو التي نشرت عام 1836م مقالًا عن العبودية وواجب نساء أميركا في التصدي لها. كانت فكرة كتابة الرواية قد راودتها بعد أن تسلمت رسالة من زوجة أخيها ترجوها فيه أن تكتب شيئًا يجعل أمةً بأسرها تشعر بفظاعة الرق. فكتبت لها ستاو: «بمساعدة الرب سأكتب شيئًا»، وفي يومياتها تكتب أنها بعد قراءة رسالة زوجة شقيقها ذهبت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب وبدأت بالكتابة حتى نفد ما لديها من ورق الكتابة، حيث انتهت من القسم الأول من الرواية وكان بعنوان «الشهيد»، ولما قرأته لأولادها وزوجها تأثروا جميعًا وصاح زوجها: «هذه ذروة قصة الرق! كيف استطعت أن تصلي إلى كل هذه الحكايات؟»

كانت هارييت تمضي الساعات الطوال في مطبخ أسرتها، في حال من التفاعل مع الخدم والخادمات من العبيد وأحفاد العبيد، وعمدت إلى متابعة حوارات أعضاء الكونغرس وهم يصرون على تشريع قانون يعاقب الهاربين من السود ويقيدهم إلى العبودية، ويجرّم من يساعدهم على الهرب باعتبارهم شركاء في الجريمة. وقد كتبت هارييت رسالة إلى أحد أعضاء الكونغرس تندد فيها بما شرعه من قانون أسمته قانون الغاب، وكتبت مقالًا في إحدى الصحف قالت فيه: «لقد حان الوقت الذي يفرض على كل فرد، حتى ولو كان امرأة أو طفلًا، أن يتكلم بكل ما يسعه من قدرة وجهد انتصارًا لقضية الحرية والإنسانية».

بعد صدور الرواية ثارت ضدها سبع ولايات أميركية وجدت فيما كتبت ستاو تحريضًا على العصيان وخطرًا على الاقتصاد، حيث كان السود يعملون

في المصانع وسكك الحديد عبيدًا، إلا أن بعض الولايات وخصوصًا ولايات الشمال وجدت فيما كتبته هارييت ستاو فرصة لإقرار قوانين إصلاحية. بعد عامين من صدور الرواية يعلن إبراهام لنكولن - وكان مرشحًا للرئاسة - أنه وجد في رواية هارييت ستاو خير سند له في مشروعه الذي سيعلنه عام 1865م والقاضي بحظر العبودية، وهو القانون الذي أشعل الحرب الأهلية الأميركية ودفع بعض الولايات لإصدار مراسيم تجرّم كاتبة رواية (كوخ العم توم) وتعتبرها خارجة على إرادة الرب وتطالب بإعدامها، فيما قررت العديد من الولايات حظر الرواية وحرقها في الأماكن العامة.

تكتب هارييت ستاو في رسالتها إلى الرئيس الأميركي إبراهام لنكولن: «كنت أمًا لسبعة أبناء، يكمن أجملهم وأحبهم مدفونًا قرب مسكني، عند سرير موته وعند قبره تعلمت ما قد تشعر به أمّ عبدة فقيرة عندما يؤخذ ابنها بعيدًا عنها. وفي أعماق هذا الأسى، الذي يبدو لي أمرًا لا يمكن قياسه، كانت صلواتي لله ألا تضيع المعاناة في مثل هذا الكرب هباءً، كانت هناك ظروف أحاطت بوفاة لها مرارة خاصة، ولا يمكن أن يوجد ما يعزيني عن المعاناة القاسية التي تعرضت لها، إلا أن انسحاق فؤادي أنا هذا هو من أجل العمل على تحقيق بعض الخير العميم للآخرين».

***

كان رالف والدو إمرسن أول فيلسوف أميركي يعتنق الرأي الذي ينادي بـ «القانون الأسمى لوحدة الجنس البشري»، ويمكن اعتباره المهندس الذي وضع معالم التسامح الشامل نحو الحرية الفردية، والداعي إلى التعاون المتبادل بين البشر بدلًا من الشكوك والريبة. ولد عام 1803م توفي والده وهو طفل، فاضطر إلى أن يعمل وهو صغير ليساعد أمه في إعالة أشقائه الأربعة، ولأن

أبيه كان واعظًا، أصرت الأمّ على أن يتعلم أطفالها «فهم ولِدوا ليتعلموا». فالتحق إمرسن في مدرسة بوسطن اللاتينية، ثم سعت لأن تلحقه بجامعة هارفرد ليكمل دراسته فيها، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره أصيب بمرض السل الذي سبق أن قضى على أبيه واثنين من أشقائه، ونجده يقاتل الموت بصلابة، حيث يعيش اثني عشر عامًا في إحدى المصحات وفي أثناء تلك الفترة كان يلقي خطابًا على الفلاحين مؤكدًا أن «بسطاء الريف وحدهم من باستطاعتهم أن يقابلوا الله»، الأمر الذي أغضب الكنيسة التي رأت فيه زنديقًا يحاول أن يعصّي الناس على تعليمات رجال الدين، ولأنه كان يحب الحياة فقد ترك الوعظ من على المنابر وخرج إلى الحياة. يكتب وليام جميس أن إمرسن كان مثل بائع متجول بضاعته الأمل، ووصفه مارك توين بأنه «أستاذ علم البهجة». ورغم أن حياة إمرسن الشخصية تخللتها فترات حزن، وقد فقد الكثير من أحبته ومنهم أشقاؤه وزوجته، إلا أن فلسفته كانت دعوة إلى الحياة لا الموت، حيث صمم أن يلتقي بالناس في الطرقات والمزارع ويعبر لهم عن رأيه، الأمر الذي أثار حفيظة الكهنة فقرروا أن يضعوا حدًا لتعاليمه «الهدامة»، فأصدرت الكنيسة أمرًا بمنعه من الخطابة ونشر المقالات في مدينة بوسطن، وعندما حاول أن يحاضر في هارفرد منعه أحد رجال الدين من الصعود إلى المنصة، إلا أن إمرسن ظل يتبادل الآراء مع الجميع، ثم يدخل غرفته ويبدأ بكتابة هذه الآراء في مقالات نشرت فيما بعد بسلسلة من الكتب تحت عنوان (مقالات إمرسن) أثارت الكثير من الاعتراضات وطالب البعض بمنعها من التوزيع.

وكانت فلسفته التي ضمنها في هذه المقالات خالية من التكلف والشكليات: «فلندع هذه الآراء تسقط كما تسقط البذور من اليد فتذروها الرياح، وإذا ما استقرت في أي بقعة خصبة، أزهرت وأثمرت». أصرّ

إمرسن على أن أميركا يجب أن تلقي عن كاهلها المعتقدات القديمة البالية. معتقدات عالم يحتضر كما وصفه: «فنحن نعيش في أرجاء عالم جديد، في ظل أفكار جديدة». ويؤكد إمرسن أن البلاد بحاجة إلى نوع من الفضيلة «يكون الإقدام» من مقوماتها، ويطالب في إحدى المقالات بالعدالة للجميع من دون النظر إلى اللون أو العقيدة: «فالقلب الذي بين جوانحك هو القلب الذي يشترك فيه الجميع»، وعندما يتعرض إلى هجوم عنيف من رجال الدين يكتب: «ليس شرًا أن يساء فهمك، ألم يُسأ فهم فيثاغورس، وسقراط، ولوثر، وكوبرنيكوس، وغاليليو، ونيوتن، وكل روح طاهرة حكيمة تجسدت يومًا؟ فأن تكون عظيمًا معناه أن يساء فهمك». وبعد أن يقرأ إمرسن رواية (كوخ العم توم) يطالب بأن تعمم على جميع المدارس ويكتب رسالة تقدير إلى هارييت ستاو يطالبها فيها «بأن لا نحني رؤوسنا أو نعتذر بتاتا»، ثم يخبرها أن الواجب على الجميع أن يتخذوا من روايتها جسرًا يتقدمون عن طريقه إلى الأمام: «لتنظر أميركا إلى أنها بلاد رجال ونساء أبطال راحوا يتحسسون الطريق ويتعثرون، ولكنهم بالرغم من ذلك أخذوا يتطلعون إلى الأمام، ويعتمدون على أنفسهم، فامضي في محاولاتك لكن لا تيأسي، فليس هذا مضمار اليأس، ولكنه مضمار ثبات العزم وعقد النية، فاصبري ثم اصبري، فالنصر حليفنا في آخر الأمر».

يكتب جون ديوي أن إمرسن: «أكثر شبهًا بعيسى من أي رجل في التاريخ الأميركي». ويصر إمرسن على أن هذا العالم هو لأصحاب النشاط والذين يتصفون بالجرأة في مواجهة أخطاء الماضي: «لتكن جريئًا في إثبات وجودك كمواطن صالح في جمهورية الجنس البشري العظيمة، فإن خروجك إلى نور هذه الحياة لم يكن خطًا، بل إنك ضيف قد دعيت إلى مأدبة الحياة، التي لا يمكنك المشاركة فيها إلا بخدمة الآخرين ومعاونتهم». وضع

إمرسن عشرات الدراسات والكتب التي تحمل أفكارًا حيوية وثورية، والتي اعتبرت فيما بعد تأسيسًا للفكر الأميركي. وقد جاءت كتاباته أشبه بوصية فكرية واجتماعية وسياسية لكاتب آمن به القراء ووجدوا في كتاباته مرآة لهم ولتطلعاتهم الفكرية. يرينا إمرسن من خلال كتاباته أن «المعيار الوحيد الذي يمكننا من الحكم على قيمة وأهمية مختلف الشعوب إنما هو معرفة نمط الإنسان الذي تخلقه هذه الشعوب»، وأن أسس الحضارة تكمن في ثلاثية «الأخلاق والعدالة والحرية».

***

بعد صدور رواية (كوخ العم توم) عام 1852م تفاوتت ردود الأفعال ضدها حيث وصلت إلى حد رسائل التهديد بالقتل لستاو - حملت إحدى الرسائل أذن زنجي مقطوعة، ثم ظهر «الأدب المضاد لرواية كوخ العم توم» والذي بلغ ست عشرة رواية وستة كتب وعشرات المقالات، جميعها تنتقد الرواية ومؤلفتها. وقد مُنعت هذه الرواية في الجنوب الأميركي من النشر عقدًا من الزمن واستمر المنع حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية وإلغاء ملكية الرقيق. ومُنعت من النشر أيضًا في روسيا القيصرية وإيطاليا وبعض الدول الكاثوليكية، بعد وصف الفاتيكان لها بأنها تنفث السموم اللوثرية.

يصفها النقاد والباحثون بالكتاب الذي ساهم في صنع تاريخ أميركا، ويقولون إنها غيّرت آراء الأميركيين ومواقفهم حين فتحت عيونهم على ما يجري للزنوج. ويرى الكاتب والباحث ويل كوفمان أنها صبّت الزيت على النار بين المؤيدين والمطالبين بإلغاء الاسترقاق. كما أثنى عليها الرئيس إبراهام لنكولن، وقال بعد مقابلة مؤلفتها: «هذه هي السيدة الصغيرة التي بدأت الحرب الكبيرة».

تبدأ الرواية بوصف الوضع الاقتصادي السيء الذي يطال مزرعة في ولاية كنتاكي، ما يضطر صاحبها إلى أن يبيع لآخرين أفضل عبدين يعملان لديه وكان ذلك قبل صدور قوانين تحريم الرق وتحريم بيعهم، وهذان العبدان هما العجوز العم توم والفتى هنري، الذي ما أن تعلم أمه بما سيكون عليه مصيره، تقرر أن تأخذه وتهرب به، عابرة ولاية أوهايو التي يغمرها الجليد. لكن الأم تتمكن من العبور، أمام دهشة مطارديها أنفسهم وذهولهم، حتى تصل بابنها إلى بر أمان حيث هناك يصبح في إمكانها أن تبدأ حياة جديدة حرة، في بلد حر، خصوصًا بعد أن ينضم إليهما زوجها جورج الذي كان هرب بدوره من سيد آخر في مزرعة أخرى.

أما بالنسبة إلى العم توم فإن مصيره لن يكون بمثل هذه السهولة، فهو على رغم وعيه التام بما يُدبّر له وما يقاد إليه، يتبع بائع العبيد المكلف بإعادة بيعه مذعنًا أمام مصيره هذا، مخلفًا وراءه أسرته العزيزة على قلبه التي لا يمكنه أن يعيش من دونها. لكن الذي يحدث هو أن العم توم خلال عرضه للبيع يلتقي الشابة الطيبة إيفانجلين، التي ما أن تراه حتى تحس بطيبته وتتوسل إلى أهلها أن يشتروه لها. وبالفعل يصبح توم ملكًا لعائلة إيفانجلين، ما يضعه وسط حياة رائقة مطبوعة بالورع والإيمان الديني العميق، ويجعله يعتقد لوهلة أن الحياة بدأت تبتسم له، لكن هذه الحياة الجميلة لا تستمر طويلًا، إذ سرعان ما تموت إيفانجلين، أما أبوها فإنه يصاب بعد حين بجروح قاتلة خلال معركة بين السكان. وهكذا يباع العبيد العاملون في المزرعة إلى سادة آخرين، ويكون من نصيب العم توم أن يباع إلى المزارع القاسي سايمون ليغري الذي نظرًا إلى سن توم وخبرته يصطحبه إلى مزرعته جاعلًا منه عينًا له على العبيد الآخرين، ما يحتم على توم أن يتعامل مع إخوته في الجنس والبؤس بكل قسوة. لكنه يرفض هذا، يرفضه تمامًا، بل إنه يجابه ليغري بقوة وعنف، ما يثير ثائرة هذا الأخير ويجعل أعوانه يضربونه حتى الموت عقابًا له. وفيما

يكون توم على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، يطلب المغفرة لكل الناس، بمن فيهم ذلك المعلم القاسي الذي ضربه وقتله.

تكتب الروائية الحائزة على جائزة نوبل للآداب بيرل باك أن هاريت ستاو: «تقف في مقدمة الصف الأمامي بين نساء العالم، بل وفي تشكيل مصير الشعب الأميركي في فترة حرجة أشد الحرج في تاريخه، كان نفوذها أقوى من نفوذ أي فرد آخر، وما قامت به في تاريخنا المعاصر لا يمكن أن يقوم به أي شخص».

14
الفيلسوف الذي وجد نفسه بين وحوش ضارية

بعد وفاته بأكثر من ثلاث مئة عام، قرر الرسام روفائيل أن يرسم لوحة للفيلسوف العربي ابن رشد وهو ينصت باهتمام إلى ما يقوله أرسطو. حين كان ابن رشد في التاسعة والستين من عمره وبالتحديد في العاشر من أيار عام 1195م، كان عدد من حرس الأمير قد وصلوا إلى منزله يحملون تعليمات من الخليفة يعقوب بن يوسف تنص على وجوب حضور الفيلسوف إلى الجامع الكبير، كان الخليفة قد استقبل قبل أيام وفدًا من رجال الدين وعلماء الفقه يشتكون من انتشار أفكار «الزنديق» أرسطو في قرطبة، وطالبوا بإحراق كتبه أمام العامة، ووقف خطيب الجامع الكبير ليصرخ بصوت عال: «العنوا من كتب هذه الكتب ومن آمن بما فيها»، فردد الحاضرون وراءه: «اللهم العن كل فاسق».

في مجلس الخليفة كان الفقهاء يتداولون بشأن فلسفة ابن رشد، حيث وجدوا فيها خروجًا على الإسلام، فأمر الخليفة أن يحضر ابن رشد في الجامع الكبير ليتعرف على جريمته. بدأت المحاكمة بأن ألقى القاضي أبو علي بن حجاج عريضة الاتهام: «وقد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقرّ لهم عوامهم بتفوقهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفًا ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، بُعدها من الشريعة بُعد

المشرقين، وتباينها تباين الثقلين، يوهمون أن العقل ميزانها، والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقًا، ويسيرون فيها شواكل وطرقًا، ذلك بأن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار يعملون، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون».

وأخيرًا انتهت المحاكمة من دون أن يُسمح لابن رشد بالدفاع عن نفسه، ثم صدر عليه قرار الحكم الذي قضى بنفيه إلى مدينة لوسينا إحدى المدن المجاورة لقرطبة. في تلك اللحظة تذكّر ما جرى لسقراط وأصر على أن يحافظ على موقفه حتى النهاية. لكن رغبة ابن رشد باتباع المثال الإغريقي كانت مرفوضة، فلن يسمح له بالدفاع عن نفسه، ولأنه أدرك منذ البداية أن الفلسفة منهج تعليمي يساعد البشر على تجاوز الاختلافات بين أمنياتهم والواقع، فقد آثر الصمت. بعد صدور الحكم بنفيه، نشر الخليفة في الأندلس والمغرب منشورًا لتحريم الفلسفة وحرق كتبها واضطهاد رجالها: «فاحذروا هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزاؤه النار التي تعذب أربابه، وإليها ما يكون مؤلفه وقارئه ومآبه».

خلال حياته كان ابن رشد قد واجه الكثير من المصاعب، لكنه قرر أن ينتصر للفلسفة من هجمات رجال الدين الذين اتخذوا من كتب الغزالي ذريعة لمهاجمته، كان الغزالي المولود عام 1058م ميلادية قد قرر «الكشف عما في الفلسفة من خداع وتدليس وتحقيق وتخييل» وهو يرى أن الفلاسفة تلازمهم صفة الكفر والإلحاد، ونجده يضع كتابًا بعنوان (تهافت الفلاسفة) يبدأ فيه واحدة من أعنف الهجمات التي شنت على الفلسفة التي تنتسب إلى أرسطو، كان الغزالي آنذاك في السابعة والثلاثين من عمره حين قرر أن يرد على سقراط وأرسطو وأفلاطون أصحاب «العقول المنكوسة والآراء

المعكوسة»، ونجده يقسم الفلاسفة إلى ثلاثة أصناف: «دهريون» ويطلق عليهم اسم الزنادقة لأنهم حسب قوله جحدوا الصانع المدبر، وزعموا أن العالم موجود بنفسه، و«الطبيعيون» الذين آمنوا بوجود قادر حكيم، لكنهم أنكروا بعث الأجساد وجحدوا الآخرة والحساب، وهؤلاء وضعهم أيضًا في خانة الزنادقة، ثم «الفلاسفة» من نوعية أفلاطون وأرسطو الذين وجب تكفيرهم وتكفير من تبعهم من «متفلسفة الإسلاميين» ويقصد الفارابي وابن سينا. ولم يكتفِ الغزالي بذلك بل اتهم الفلاسفة بالغباوة وسوء الظن بالخالق والكون، والغرور والادعاء.

في (تهافت الفلاسفة) يؤكد الغزالي:

1. النهي عن النظر في كتب القدماء، وفي مقدمتها كتب المنطق والفلسفة.

2. تكفير الفلاسفة المسلمين لأنهم خرقوا الإجماع لتفضيلهم التأويل.

في الخامسة والخمسين من عمره قرر ابن رشد أن يرد على كتاب الغزالي فنشر كتابه الشهير (تهافت التهافت) والذي أراد به أن ينتصر للفلاسفة، ويثبت إمكانية التوفيق بين الفلسفة والدين، وضرورة الاستدلال العقلي، والانتفاع من تراث اليونان، وإذا كان الغزالي يؤكد أن الفلسفة لا تلائم الإسلام في بعض مسائلها ولهذا وجب تكذيبها وتكفيرها، فإن ابن رشد يرى أن «دين الفلاسفة إنما يقوم أصلًا على الإيمان بوجود الله وعبادته» وأن العقل هو الذي يوصل إلى معرفة الله، ومعرفة خلقه معرفة واقعية.

وينتهي ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) إلى الإعلان ببطلان آراء الغزالي ويقرر:

1. إن النظر في كتب القدماء واجب شرعي، وإن ما قيل في مخالفة

الفلسفة للشرع دعوى باطلة فـ «الفلسفة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة».

2. إن التكفير بدعوى «خرق الإجماع في التأويل» باطل، لأن التأويل قضية مسلّم بها ولا يرتاب بها مؤمن، بل يزداد يقينه.

لم يكن كتاب (تهافت التهافت) السبب الوحيد في محاكمة ابن رشد، فقد أصدر قبله بسنوات كتاب (تلخيص السياسة) ويقال إن هذا الكتاب كان مسؤولًا عن المحنة التي حلت بابن رشد، لأنه ناقش فيه وللمرة الأولى موضوعة الدولة الاستبدادية والدور الذي يجب أن يقوم به الحاكم العادل، والكتاب تلخيص لما تناوله أفلاطون في محاورة (الجمهورية)، حيث نجد ابن رشد يقسم أنواع السياسات التي تتبعها الحكومات إلى ثلاثة أقسام وهي: «سياسة الكرامة، وسياسة الخسة، والسياسة الجماعية»، ويبين موقفه من هذه السياسات، فهو يعتبر أن سياسة التسلط تتناقض مع السياسة الفاضلة. ويكتب: «لا أسعد من الملك الفاضل، ولا أشرّ من وجدان التسلط».

لكن من هو هذا الملك الفاضل؟ يخبرنا ابن رشد بأنه المحب للعلم، الكاره للكذب، المُعرِضْ عن حب المال، الذي يتحرك دومًا صوب كل ما يراه جميلًا وخيرًا، إضافة إلى صفة الثقافة وفصاحة اللسان: «من الذي اجتمعت فيه هذه الشروط من صغره، واتفق له مع ذلك أن نشأ على نحو تلك النشأة [...] فهو الذي ينبغي أن يحكم هذه المدينة. ولهذا كله يندر وجود مثل هؤلاء القوم، ولهذا يصعب وجود هذه المدينة».

***

في الثامنة من مساء الثامن عشر من كانون الثاني عام 1985م، يُفاجأ السودانيون بقطع برامج التلفزيون ليظهر على الشاشة وزير الإعلام وإلى جانبه أحد القضاة يعلنون تنفيذ الحكم بالشيخ محمود محمد طه، لأنه خرج على تعاليم الإسلام، وفي اليوم التالي يجيب رئيس الجمهورية آنذاك محمد جعفر النميري على سؤال وجهه له أحد مراسلي الصحف العالمية حول قرار الإعدام: «إن المحكمة لم تنتبه إلى جرائم كثيرة أخرى ارتكبها محمود محمد طه، وإن قرار الإعدام ليس كافيًا».

في العام 1968م رفع شيخان من شيوخ جامعة أم درمان الإسلامية دعوى ضد محمود محمد طه يطالبان فيها بإعلان ارتداده عن الإسلام، بسبب إصداره كتابًا بعنوان (الرسالة الثانية للإسلام) حيث قسّم فيه الإسلام إلى رسالتين، تخص الأولى القرن السابع الميلادي والثانية القرن العشرين، ويقسم القرآن الكريم إلى ناسخ يخص الرسالة الثانية ومنسوخ يخص الرسالة الأولى، ويتبنى محمود محمد طه في كتابه فكرة أن الرسالة الثانية هي التي تناسب التقدم البشري في العصر الحالي لخلوها من تشريعات مثل الرق وتقييد حقوق المرأة، ويرى محمود أن الآيات المكّية التي نزلت في فجر الدعوة الإسلامية تمثل أصول القرآن لأنها تؤكد على المساواة بين البشر، وكان يسمي الآيات المكّية «آيات الأصول»، لأنها قامت على نبذ الإكراه.

ولد محمود محمد طه بوسط السودان عام 1909م، أكمل دراسته الابتدائية والثانوية ثم التحق بكلية غوردون ليتخصص في الهندسة، ليعمل بعدها في السكك الحديدية، في تلك الفترة يتعرف على أفكار هيغل ويستهويه الجدل، وينشر أولى مقالاته عن الفرق بين جدل هيغل وماركس.

في العام 1945م يؤسس حزب الجمهورية، والذي دخل في صراع مع الإنكليز الذين كانوا يحتلون السودان آنذاك ما أدى إلى اعتقاله وتقديمه

للمحاكمة عام 1946م، وفي فترة السجن يصدر محمود محمد طه أول كتبه (قل هذا سبيلي)، بعدها بأشهر قليلة يصدر له كتاب (الدعوة الإسلامية الجديدة) وفيه يخوض أول صراع مع الإخوان المسلمين فيكتب: «أما الإخوان فهم يعتقدون أن صلاح المجتمع مرتبط باستيلائهم على السلطة، لذلك فإن فكرة التبليغ لديهم أساسها الحكم، بينما أساسها بالنسبة إلينا هي حركة الانسياب الثقافي للمجتمع». ويضيف أن: «دعوة الإخوان المسلمين مصطدمة على الدوام بالتمايز الديني والعرقي بين شمال السودان وجنوبه، إن سعيهم نحو إقامة جمهورية إسلامية لا بد من أن يرتبط بالجدار المسيحي للجنوب، أما نحن فلا يهمنا أن يكون الجنوب مسيحيًا أو الغرب أثنيًا».

وفي كتابه (الرسالة الثانية للإسلام) يؤكد محمود محمد طه أن: «من كرامة الإنسان عند الله أن الحرية الفردية لم يجعل عليها وصيًا، حتى لو كان هذا الوصي هو النبي على رفعة خلقه وكمال سجاياه، فقد قال تعالى في ذلك (فذكر إنما أنتَ مُذكّر، لست عليهم بمسيطر) والمعنيون هنا هم المشركون الذين رفضوا عبادة الله، وعكفوا على الأصنام، يعبدونها ويتقربون إليها بالقرابين، والمنهي عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد، الذي لم يثرد علوًّا في الأرض والذي قال تعالى فيه (وإنك لعلى خلق عظيم) ومن هذا نأخذ أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين، وأن ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردي عليها. وفي الحق إن الحرية الفردية حق أساس يقابله واجب هو حسن التصرف في ممارستها».

ويذهب محمود محمد طه في (الرسالة الثانية في الإسلام) إلى استعادة روح الآيات المكّيّة والتي هي عنده الرسالة الأصل، وقد ضمّن كتابه هذا بعض العناوين التي أثارت ضده رجال الدين والدولة من بينها «الجهاد ليس أصلًا في الإسلام»، و«عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس أصلًا

في الإسلام»، و«الحجاب ليس أصلًا في الإسلام»، و«تعدد الزوجات ليس أصلًا في الإسلام». وقد حاول أن يناقش الكثير من الأفكار الدينية ويخضعها لمتطلبات العصر الحديث، قاصدًا من ذلك أن ينوّه بالطاقة الكامنة في التشريع الإسلامي، والتي تستطيع أن تستوعب المتغيّرات الجديدة إذا تمّ بعث «الأصول» دون «الفروع» التي شكّلت شريعة القرن السابع الميلادي.

كان طه يرى أنّ المخرج للأمة الإسلامية كامن في الانتقال من نص فرعي في القرآن خدم غرضه حتى استنفده، وهي السور المدنية، إلى نصّ أصلي ظل مُرجًا ومدخرًا إلى حين وقت تطبيقه، وها هو قد حان وقته اليوم، ويقصد السور المكية. يكتب محمود محمد طه أن: «الخلل ليس في الدين، وإنما هو في العقول التي لا يحرّكها مثل هذا التناقض لتدرك أنّ في الأمر سرًّا، هذا السرّ هو ببساطة شديدة أنّ شريعتنا السلفية مرحلية، وأنها لا تستقيم مع إقامة الحياة المعاصرة، وأنها حتى تستطيع استيعاب هذه الحياة وتوجيه طاقتها الكبيرة، لا بد لها من أن تتفق وتتطوّر وترتفع من فروع القرآن إلى أصوله».

بعد أن أعلن الرئيس السوداني محمد جعفر النميري تطبيق حدود الشريعة في أيلول ١٩٨٣، كتب محمود محمد طه أن هذه القرارات مخالفة للإسلام، وتشوهه، وتُنفر الناس عنه. يضاف إلى ذلك أنها وضِعت واستغِلت لإرهاب الشعب وسوقه إلى الاستكانة عن طريق إذلاله.

***

في صباح الثاني عشر من آب عام 1925م يقف رجل معمم أمام هيئة كبار العلماء، يستمع إلى التهم التي توجه له يلقيها عليه أحد المشايخ، وكانت أبرزها الإساءة إلى تعاليم الإسلام والإخلال بالسلم الاجتماعي، وبث

الأكاذيب، والافتراء على الدين، ليصدر بعده الحكم بطرده من الوظيفة وتقديمه للقضاء. كان علي عبد الرازق في السادسة والثلاثين من عمره حين أصدر عام 1924م كتابه (الإسلام وأصول الحكم) والذي أكد فيه أن الأمة الإسلامية لا تحتاج إلى العودة إلى زمن الخلافة، وقد تزامن صدور الكتاب مع الترتيبات التي كانت تجري في القاهرة لعقد مؤتمر الخلافة الإسلامية لتنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين، وقد أدى صدور الكتاب إلى نشوب أزمة وزارية أدت إلى سقوط الوزارة القائمة التي اتهمها الملك بأنها لم تتخذ إجراءً حاسمًا ضد مؤلف الكتاب.

يكتب علي عبد الرازق في مقدمة كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أن: «الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة. الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية. كلا، ولا القضاء ولا وظائف الحكم ومراكز الدولة، إنما تلك خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع منها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة. كما أن تدبير الجيوش الإسلامية وعمارة المدن والثغور، ونظام الدواوين لا شأن للدين بها، إنما يرجع الأمر فيها إلى العقل والتجريب، أو إلى قواعد الحروب أو هندسة المباني وآراء العارفين. لا شيء في الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلّوا له واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكوماتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية، وأمتن ما دلّت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم».

وقد حاول المؤلف من أجل إثبات أن الإسلام بريء من نظام الخلافة وأن النبي محمد (ص) لم يجمع بين الرسالة والملك التأكيد على: «فإن كان

في الحكومة النبوية بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة، فهو شيء خارج عن حدود رسالته ولم يكن جزءًا مما بعثه الله له وأوحى به إليه». ومن أجل إثبات رأيه استند علي عبد الرازق على آيات قرآنية تنكر أن يكون للنبي شأن في الملك السياسي، وتتضافر على بيان أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان ومن هذه الآيات «لا إكراه في الدين»، «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»، «وجادلهم بالتي هي أحسن»، «فذكر إنما أنت مُذكّر لست عليهم بمسيطر»، «أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين»، «وما جعلناك عليهم حفيظًا، وما أنت عليهم بوكيل»، «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا. إن عليك إلا البلاغ». وهو يؤكد أن هذه الآيات المكية هي الأساس الحقيقي الذي قام عليه الإسلام.

ولعل كتاب (الإسلام وأصول الحكم) أول محاولة من نوعها لتحديد أسس الحكم في الإسلام والبحث عن دولة مدنية تنهض بديلًا من دولة الخلافة التي أثبتت فشلها مع حكم العثمانيين، لم يكن صدور الكتاب في ذلك الحين يمكن أن يمر بسهولة لأن المعركة التي فُتحت ضده وضد مؤلفه إنما كانت سياسية ودينية لأن الكتاب كان أول محاولة في العصر الحديث تطرح مشكلة الحكم على بساط البحث وإفهام من يهمهم الأمر بأن زمن الخلافة قد ولّى. وأن أحدًا لا يمكنه في العصور الحديثة أن يزعم لنفسه أي حق إلهي. فمثل هذا الحكم لا مشروعية له في الزمن الحديث، إلا أن الأمور لم تكن في صالح علي عبد الرازق الذي وجد نفسه في مواجهة سلطة الملك، وأيضًا في مواجهة غضب الأزهر الذي وجد فيه مساسًا بالشريعة الإسلامية وإساءة لنظام الحكم الإسلامي، وفي ظل غضب السلطة الدينية والسلطة السياسية أصر علي عبد الرازق على أن يطرح سؤاله الخطير: هل الخلافة ضرورية حقًا؟ وهل هناك نظام إسلامي للحكم؟

وللإجابة عن هذا السؤال، يبحث عبد الرازق في قضية الخلافة الإسلامية والتي كان مروجوها يستندون إلى القول إن سلطة الخليفة مستمدة من سلطة الله، وللوصول إلى إجابة حاسمة على هذا السؤال الذي يثيره عبد الرازق في كتابه يعرض لنا نحن القراء صفحات عن علاقة الدين بالسياسة في الإسلام، وتحديدًا انطلاقًا من بحثه في علاقة النبي محمد (ص) بالحكم السياسي للأمة. وفي هذا السياق نجده في الباب الثاني وتحت عنوان «الرسالة والحكم» يكتب:

1. لا يهولنّك البحث في أن الرسول كان ملكًا أو لا، ولا تحسبنّ أن ذلك البحث ذو خطر في الدين قد يُخشى شرّه على إيمان الباحث، فالأمر إن فطنت له، أهون من أن يُخرج مؤمنًا من حظيرة الإيمان، وإنما قد يبدو الأمر لك خطيرًا، لكنه لا يمس جوهر الدين ولا أركان الإسلام.

2. إنك تعلم أن الرسالة غير الملك وأن ليس بينهما شيء من التلازم، فكم من ملك ليس نبيًا ولا رسولًا، وكم لله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكًا. ولا نعرف في تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك.

ونجد علي عبد الرازق يستشير التاريخ ليقول لنا إن سلطة الخليفة في سياق التاريخ الإسلامي، بعد الرسول والخلفاء الراشدين، إنما قامت دائمًا على القوة المسلحة وعلى الوراثة. «ولو كان التعبير حرًا فإن تاريخ الإسلام السياسي كان سيقول لنا إن وجود الخليفة ليس شرطًا ضروريًا للعبادة والخير العام». ويؤكد علي عبد الرازق أن الحكم ليس بالضرورة أن يكون خلافة أو وراثة: «ليس من الضروري أن تكون من نوع معيّن. فعندما زالت الخلافة عمليًا في عصر المماليك، لم يتبين أن لزوالها أثرًا في العبادة أو الخير العام في

البلدان الإسلامية، بل بالعكس، كانت سلطة الخلافة في ذلك الحين مضرّة بالإسلام، بل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شرّ وفساد.

في كانون الأول من عام 1925م صدر قرار بمنع توزيع كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وتجريم كل من يستخدم مقتطفات منه أو يحاول نشر بعض ما جاء فيه. وبعد أيام أصدرت الحكومة المصرية قرارًا بمنع علي عبد الرازق من العمل في دوائر الدولة.

مكتبة
t.me/t_pdf

15

عندما لا نستطيع الهرب من خطوات الزمن

في صباح أحد الأيام من شهر أيار 1956، أغلق رجل يبلغ من العمر ستة وستين عامًا باب منزله الريفي وراءه حاملًا حزمة من الأوراق غلّفها بصحيفة قديمة وربطها بحبل كانت زوجته تعلق عليه الملابس، كان يسكن في ضواحي موسكو والطريق إلى الموعد الذي اتفق عليه مع الزائر الإيطالي تقطعه السيارة بعشر دقائق، لكنه فضّل أن يذهب إلى موعده مشيًا على الأقدام رغم متاعب ساقيه، فقد كان يعاني من عرج رافقه منذ الطفولة، خشيَ أن يكون هناك شخص ما يراقبه، ولهذا كان يغير مسار طريقه عدة مرّات، يجلس في أحد المقاهي ليستريح قليلًا، يتلفت حوله ليطمئن إلى أن كل شيء يسير بشكل طبيعي، بعد أكثر من ساعة وصل إلى المكان المحدد، ابتسم للرجل الذي ينتظره وسلّمه رزمة الورق، وهو يقول بصوت خفيض: «ربما ستتسبب هذه الأوراق بنهاية حياتي».

قبل هذا التاريخ بأشهر كان قد أرسل حزمة الأوراق هذه إلى مجلة (نيوفي مير)، فأعيدت إليه بعد مدة قصيرة مع رسالة مقتضبة بالاعتذار عن النشر لأن أبطال روايته «غارقون في فردية شبه مريضة لا يعرفون ما حولهم، ولا يريدون أن يروه»، يرسل لهم ردًا يقول فيه: «إن روايتي ستكون التعبير الحقيقي عن نظرتي إلى الفن وإلى الإنجيل... إلى الحياة وإلى موقع الإنسان في التاريخ». بعدها بأيام تصله رسالة من أحد المعارف يحذره فيها من نشر

حزمة الورق هذه: «لقد كتبت رواية سياسية خالصة، ذات قضية، ووجهتها لخدمة بعض القضايا السياسية.. إن روايتك مثيرة وسيعتبرها البعض ظالمة تجاه الثورة».

كانت مجلة العلم التي يصدرها اتحاد الكتّاب السوفيت قد نشرت عشر قصائد قدمت على أنها قصائد شعرية من رواية (الدكتور جيفاكو)، وقد قدمت المجلة القصائد على أنها: «جزء من الرواية التي ستنشر قريبًا، وتقع أحداثها بين أعوام 1929-1903، بطلها يوري جيفاكو طبيب ورجل فكر يبحث عن الحقيقة، وهو ذو اتجاه فني خلاق، يموت عام 1929م وقد عثر بين أوراقه المكتوبة في أيام شبابه على عدد من القصائد التي سوف تلحق بالرواية كفصل نهائي، هذه القصائد المنشورة هنا، هي بعضها». وما أن نشرت القصائد حتى أثارت حفيظة الكثيرين، فصدر قرار بالتريث في نشر الرواية.

«ولِدتُ قبالة مدرسة قديمة في يوم بارد من شهر شباط 1890، ولا تزال برودة هذا اليوم تلاحقني، بقيت في الذاكرة بصورة غامضة بعض الأشياء القليلة من النزهات الخريفية مع المربية». هكذا يتذكر بوريس باسترناك الأيام الأولى من حياته، كان أبوه رسامًا معروفًا، يلقي محاضرات في أكاديمية موسكو للفنون، وكانت أمّه تقضي أمسياتها بعزف مقطوعات لشوبان وتشايكوفسكي على البيانو، في ذلك البيت القديم، شاهد تولستوي للمرة الأولى، حين زارهم صاحب الحرب والسلم برفقة بناته، ليتحدى الأب ليونيد في لعبة الشطرنج، ويستمع إلى معزوفات تقدمها صاحبة البيت. يكتب باسترناك في يومياته: «أما صورته فقد عبرت حياتي كلها كصورة معظم الناس خاصة لأن أبي احتفى به، لأنه كان يمضي لرؤيته، لأنه كان يجله، ولأن روحه اخترقت بيتنا كله، كان ليف نيكولاييفيتش تولستوي».

في طفولته يتعرض لحادث يتسبب في كسر خطير في رجله اليمنى، وبعد إجراء عملية جراحية له اتضح أنها أثرت على ساقيه أصبحت ساقه اليمنى أصغر من اليسرى فعانى من العرج، وقد أدى ذلك إلى إعفائه من الخدمة العسكرية. كان ميالًا إلى الصوفية في صباه وأسير السحر الديني: «آمنت بوجود عالم بطولي أعلى، يجب أن يُخدم بحماسة، مهما كان يحمل من آلام. كم من مرة في سن السابعة أو الثامنة، كنت على وشك الانتحار». يسافر عام 1906م إلى برلين مع والديه اللذين قررا أن ينقلا دراسته من جامعة موسكو إلى جامعة ماربوغ في ألمانيا، حيث سيدرس الفلسفة، كتب بعد ذلك أن قراءته لكانط وماركس كانت لها «الأثر المسكر للتحرر المباشر». في ألمانيا سيتذكر المقطوعات الموسيقية التي كانت تعزفها أمّه كل مساء وسيكتب أولى قصائده التي يتذكر فيها طفولته: «آه، أنّى ليَ الهربُ من خطواتِ معبودي».

في برلين يعثر بين أوراق والده على قصيدة للشاعر الروسي ألكسندر بلوك، لقد وجد نفسه وجهًا لوجه أمام شاعر صوفي من طراز خاص، حيث كان هذا الشاعر يمثل حدًا فاصلًا في حياة باسترناك. في (رسم السيرة الذاتية)، يصف لنا باسترناك شعوره وهو ينتهي من قراءة الورقة التي كُتبت فيها أبيات ألكسندر بلوك: «إن الذي يظهر لي هو أن الشاعر كان يخاطبني أنا شخصيًا بالذات، كما لو كنت أراه أمامي فعلًا، كانت الورقة تحوي على حداثة أكيدة، وكان يبدو أن الحداثة ذاتها دون إذن تقع على الورقة المطبوعة، وأن الأشعار لم يكتبها أحد. وكان يبدو أن الصفحة لم تكن مغطاة بأبيات عن الريح والغدران، المصابيح والنجوم، لكن المصابيح والغدران نفسها تسوق تموجاتها فوق سطح الورقة، وهي نفسها كانت تترك آثارها عليها ندية وقوية».

في عام 1914م ينشر ديوانه الأول بعنوان (توأم في الغيوم) وسيحظى هذا الديوان بتقدير ستالين وسينقذه بعد سنوات من تقارير رجال الأمن، حين يضع ستالين هامشًا على تقرير قُدّم ضد الشاعر: «لا تلمسوا ساكن الغيوم هذا». ومنذ نشره هذا الديوان أعلن باسترناك نفسه ناطقًا باسم الطبيعة، وتعكس لوحات الطبيعة في أشعار باسترناك جانبًا من شخصية الشاعر، وتجسد ملمحًا من ملامح رؤيته للعالم. يكتب إلى والدته: «وجدت في الشعر أفضل وأروع هواء لأتنفسه». يضع ديوانه الثاني (أختي الحياة) وفيه يقدم تصوره الفلسفي للإنسان والكون ويصف الأحداث العاصفة التي تمر في بلاده - صدر الديوان عام 1917م - ونجده يتجه إلى مناجاة الطبيعة التي كانت تبدو أنها «تشارك الناس في الأحداث». ويكتب إلى الشاعر ألكسندر بلوك رسالة يؤكد له فيها تأثير الشاعر عليه: «سترى أنني أحاول في كل قصيدة أن أعبر لك عن امتناني على ما أفدتني إياه». في تلك السنوات يتلقى رسالة من مكسيم غوركي يخبره فيها: «لا أخفيك أبدًا كنت دائمًا أقرأ أشعارك قبل هذا الديوان في توتر، ذلك لأنها تكتظ بالصور الغريبة، وهذه الصور ليست دائمًا مفهومة لي، وكان خيالي يجد صعوبة في استيعاب التعقيد الجامح لملامح صورك. أما في أشعارك الأخيرة فأنت أكثر بساطة، واقتصادًا وكلاسيكية في هذا الكتاب الذي يمتلئ بالحماس ويؤثر فيَ وفي القارئ بسرعة ويسر وقوة، إنه بالطبع اجتماعي في أفضل وأعمق معنى لهذا المفهوم».

***

نصحه أصدقاؤه بمغادرة نيويورك، فالناس ثائرة وتريد أن تحرق كتبه أمام بيته، فيما حذّره صديق من محاولة اغتيال يدبرها له عدد من ملاك الأراضي

الزراعية لأنه بالغ في فضح تعسفهم، حيث كان وصفه مؤلمًا لأحوال الفلاحين. فكر أن يذهب للعيش في كوخه القديم المليء بالحشرات لكي يشحذ موهبته من جديد ضد المستغِلين، سيعود من جديد إلى حياة الفقر، ويتذكر أنه كان يتسلم مبلغًا شهريًا من أبيه لكي ينفق على أسرته. ولهذا هو يفضل العيش برفقة المتشردين والعمال. اشترى في العشرين من عمره آلة كاتبة، وكتب ممازحًا أحد أصدقائه أنه سيكتب رواية تجلب له الذهب. كان أنهى للتوّ كتابه الأول، وحفّزته والدته التي كانت تقرأ له روايات الفروسية.

يكتب شتاينبك تعليقًا على رغبة سكان نيويورك حرق روايته (عناقيد الغضب): «إنهم يرفضون مواجهة الواقع، ولا يريدون أن يدركوا أن هناك نوعًا من البشر وقع عليه ظلم كبير بسبب الجشع وحب المال». كان جون إرنست شتاينبك المولود في السابع والعشرين من شباط عام 1920م الابن الوحيد في العائلة مع ثلاث شقيقات أكبر منه، ولهذا تلقى عناية خاصة من والدته التي كانت تعمل في مجال التعليم، ورغم أنه كان يقضي وقته في القراءة إلا أنه أحب أن يجرب العمل في كل المهن، فمرة نراه عاملًا بالأجرة في إحدى المزارع القريبة من بيته، ومرة مساعدًا لموظف البريد، وفي الثانوية أصّر على أن يعمل في أحد مصانع السكر، وكثيرًا ما كان يناقش زملاءه حول الاشتراكية. لكنه في العام 1925م قرر أن يترك جميع المهن ليصبح كاتبًا، فسافر إلى نيويورك يجرب حظه، وبعد أربع سنوات يصدر أول كتبه (كأس من ذهب) في آب عام 1929م، ورغم أن هذه الرواية لم تكن محاولة شتاينبك الأولى، فقد جرّب قبلها كتابة ثلاث روايات، ألا إنها الرواية الأولى التي سجلت اسمه في سجل الكتاب الخالدين، رغم أن شتاينبك كتب بعد سبع سنوات على صدورها أنه لم يكن فخورًا بها. في (كأس من ذهب) يروي شتاينبك حكاية الفتى الذي يحلم بالانطلاق في عرض البحر والانضمام إلى

القراصنة، وعندما يصل إلى الميناء يخدعه صديقه ويبيعه باعتباره عبدًا، إلا أن الفتى يصر على تحقيق حلمه، وما أن تحين الفرصة حتى ينضم إلى مجموعة من القراصنة يصبح هو زعيمهم، ويطمح بالاستيلاء على مدينة بنما «كأس الذهب» حيث يصبح حاكمًا لها وغير اسمه إلى السير هنري مورغان. وعندما سئل شتاينبك عن روايته هذه قال: «أردت أن اتخذ من فاوست مصدرًا جيدًا لروايتي هذه».

في العام 1939م يكتب شتاينبك واحدة من أفضل ما أنتجه الأدب الأميركي في القرن العشرين، رواية (عناقيد الغضب) وفيها يروي حكاية عائلة أميركية يمزقها الفقر واليأس في أعوام الكساد الاقتصادي الذي هزّ الولايات المتحدة الأميركية في ثلاثينيات القرن الماضي. وقد كتب شتاينبك في دفتر يومياته أنه استطاع أخيرًا أن يكتب العمل الذي كان يطمح إليه طوال حياته حيث يجد القارئ نفسه بمواجهة رواية تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية القاسية للفلاحين، حيث يصور شتاينبك الأحداث كما جرت، ونجده يعتمد على عدد من المقالات الصحفية التي كتبت عن هجرة العمال إلى كاليفورنيا.

يكتب في يومياته: «لقد أردت أن أضع لطخة من العار على أبناء الزنا، المسؤولين عن أعوام اليأس». قضى خمسة أشهر متواصلة في كتابتها: «لم أجهد نفسي قط في حياتي ولم أكتب هذا العدد من الصفحات»، واختار لها عنوان (عناقيد الغضب) لأنه يشير إلى الحالة الثورية، وفي 26 أيلول عام 1938م، يضع كلمة النهاية بأحرف كبيرة، ثم كتب في يومياته: «انتهى هذا اليوم وآمل من الله أن يكون جيدًا».

خرجت (عناقيد الغضب) من المطبعة في 14 نيسان 1939، لتتحول إلى الرواية الأميركية الأكثر قراءةً وشهرة والأكثر إثارة للجدل، في القرن

العشرين تمت مناقشتها في الراديو، كما هاجمها القراء الغاضبون، بل إنها منعت من قبل بعض المكتبات، ورابطة الفلاحين في كاليفورنيا، كانت ضدها أيضًا وقالت إنها «حزمة من الأكاذيب». لكن الرواية لقت الترحاب من قبل بيرل باك، مؤلفة (الأرض الطيبة) التي خاضت معارك في الصحافة للدفاع عن شتاينبك. بيعَ منها نصف مليون نسخة في سنتها الأولى، وفي العام 1940م نالت الرواية جائزة البوليتزر وتم تعميم قراءتها في المدارس والمعاهد والكليات في كافة أرجاء الولايات المتحدة الأميركية، وعندما منح شتاينبك جائزة نوبل للأدب عام 1962م، أعلنت اللجنة «إن (عناقيد الغضب) عمل كبير».

***

في صباح يوم الثاني عشر من كانون الثاني عام 1958م ذهب رجل يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا باتجاه دائرة البريد ليرسل برقية كتبها بقلم الرصاص معنونة إلى الأكاديمية السويدية: «أراني مضطرًا إلى أن أرفض الجائزة التي مُنحت لي دون أن أستحقها بسبب المعنى الذي فُهم من هذا المنح في المجتمع الذي أعيش فيه: أرجو ألا تحملوا رفضي محملًا سيئًا». كان قبل أربعة أيام من هذا التاريخ قد ذهب إلى نفس دائرة البريد ليرسل إلى الأكاديمية السويدية نفسها برقية بعد أن وصل إليه خبر حصوله على جائزة نوبل للآداب: «إنني شاكر جدًا، وفخور، وممتن، ومندهش، وخجول»، ولم يكن يدري أن حصوله على الجائزة سيضعه في مواجهة السلطة التي وجدت في (الدكتور جيفاكو) رواية سيئة عن الثورة الاشتراكية كتبها روائي يحن إلى البرجوازية. في هذه الأثناء قرر اتحاد الكتاب السوفيت فصل باسترناك من عضويته، الأمر الذي دفع ألبير كامو إلى أن يكتب: «ليس هذا الكاتب

العظيم معاديًا للسوفيت، إنه يعيد للرواية الملحمية مجدها الذي فقدته بغياب تولستوي». كانت حزمة الورق الملفوفة بصحيفة قديمة قد وصلت إلى إيطاليا لتصدر في روما في 15 تشرين الأول عام 1957م. تدور أحداث الرواية بين عامي 1903 و1929، وهي أعوام كانت حاسمة في تاريخ روسيا، حيث نقف على وقائع الثورة البلشفية من وجهة نظر ذلك الطبيب والشاعر يوري جيفاكو الذي ولد أواخر القرن التاسع عشر وأنهى دراسة الطب أثناء الحرب العالمية الأولى.

يتناول باسترناك في روايته أحداث الثورة والحرب الأهلية: «كم أرغب في أن أتوصل إلى حقيقة ما مر من أيام، أن أمسك في كل وقت بخيط المصير في الأحداث بالحياة والشعور والحب والفتوحات».

في بداية الرواية سنتعرف على يوري جيفاكو، وهو طفل يرصد من نافذة بيته في موسكو عام 1905م آخر معارك ثورة ذلك العام. بعدها بسنوات سيصبح طبيبًا يهوى كتابة الشعر، سيشارك في الحرب العالمية الأولى من موقعه كطبيب، ويكون شاهدًا على فظائع تلك الحرب. ولهذا عندما تندلع النقاشات والحوارات حول السلم والثورة، نجده يقف على الفور في صف السلام، وحين تندلع الثورة نلتقي يوري جيفاكو في موسكو من جديد هذه المرة، ونراه يرصد من جديد ما يحدث ومثاله الأعلى في الحياة ما يقوله له عمه إذ يلفت نظره إلى أن ما يعيشونه الآن إنما هو التاريخ الذي يُصنع كل يوم، مضيفًا: «عشه يا يوري... عشه... فهذا الأمر لا يحدث سوى مرة واحدة في الحياة». وعندما تنتصر الثورة يصف لنا بطل الرواية رجالها بأنهم «أشخاص ذوو إرادة من فولاذ»، إلا أن تلك الإرادة لا تستطيع أن تمنع الاضطرابات والمجاعة، هكذا تلعب الظروف دورها وهكذا تحت ضغط الظروف، تبدأ أحلام الثورة بالتراجع لتترك مكانًا لأفعال تغلبها القسوة والظلم والعنف،

وتنهك الحرب الأهلية البلد. ومن جديد يراقب جيفاكو ما يحدث. وما يحدث هو هيمنة القوى الانتهازية والطفيليين أصحاب المؤامرات والمناورات، هكذا، تحلّ الخيبة محل الثورة والتحرر وتدمّر الأحداث التي تمر بها البلاد نفسية جيفاكو الذي تنتهي حياته بالخيبة، بعدها تموت حبيبته لارا التي كان يكتب لها الأشعار في أحد معسكرات الاعتقال.

يوري جيفاكو الطبيب الذي يعشق الفلسفة، كان يريد أن يكتب كتابًا يخفيه «مثل عصي الديناميت»، يروي فيه أبرز الأشياء التي شاهدها، فهو مثل باسترناك ينتمي إلى جيل عاش الكثير من المحن، حربان عالميتان، وحرب أهلية، وثورات وعنف وغضب، ومجاعة، وتطهير وأخيرًا معسكرات اعتقال.

في نهاية عام 1957م سلمت دائرة المخابرات البريطانية في موسكو فيلمين على بكرتين صغيرتين إلى عملاء في وكالة الاستخبارات الأميركية. لم تظهر في الفيلمين صور لطائرة حربية سوفيتية جديدة أو صاروخ باليستي جديد. ظهرت صور لسلاح أقوى منهما في الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن، إنها صور فوتوغرافية لصفحات من رواية باسترناك (الدكتور جيفاكو)، لغرض استخدامها أداة لتشجيع المعارضين وإثارة الانشقاق داخل الاتحاد السوفييتي. ومؤخرًا تم الكشف عن أكثر من 100 وثيقة رفعت عنها السرية في الولايات المتحدة حيث نتعرف من خلالها كيف قامت وكالة المخابرات المركزية بطباعة نسخ باللغة الروسية من رواية (دكتور جيفاكو) أثناء الحرب الباردة في محاولة لزرع الاضطراب بين المواطنين السوفييت. في مقتطفات من جريدة (الواشنطن بوست) يشرح المؤلفون كيف أن وكالة المخابرات المركزية اعترفت بقيمة الرواية كسلاح أدبي في الحرب الباردة. وقد كتب أحد ضباط المخابرات الأميركية البارزين: «هذا الكتاب له قيمة دعاية عظيمة،

ليس فقط لرسالته الذاتية وطابعه المحفّز للفكر، ولكن أيضًا لظروف نشره، لدينا الفرصة لجعل المواطنين السوفييت يتساءلون ما هو الخطأ في حكومتهم، عندما يكون عملًا أدبيًا رائعًا من جانب الرجل الذي اعترف بأنه أكبر كاتب روسي حي لم يكن متوافرًا حتى في بلده بلغته الخاصة ليقرأها شعبه».

يطرح هارولد بلوم سؤالًا مهمًا: «هل كتب باسترناك رواية (الدكتور جيفاكو) لاستخدامها في الحرب الباردة، باعتبارها وثيقة ضد النظام السوفيتي؟ يجيب بلوم: «لقد كتب باسترناك روايته وفي ذهنه حلم واحد فقط أن يضع نفسه وريثًا لدوستويفسكي وتولستوي. كان يحاول أن يكتب الرواية الروسية العظيمة».

بقيَ باسترناك في روسيا حتى وفاته عام 1960م عن عمر يناهز السبعين بعد معاناته من مشاكل في القلب وسرطان الرئة، وعندما اشتدت الحملة عليه بعد ظهور رواية (الدكتور جيفاكو) بالإنكليزية، كتب رسالة إلى الرئيس خروتشوف قال فيها: «إن الذهاب إلى ما وراء حدود وطني يوازي الموت بالنسبة إليّ، أستطيع أن أقول ويدي على قلبي، إني فعلت شيئًا في سبيل الأدب الروسي، وإني قد أكون لا أزال مفيدًا له، إنني مرتبط بروسيا، بولادتي وحياتي وعملي، ولا أستطيع أن أتصور نفسي بعيدًا عنها».

ظلت رواية (الدكتور جيفاكو) ممنوعة من النشر في الاتحاد السوفيتي حتى عام 1988م حيث سمح بإعادة طبعها بقرار من ميخائيل غورباتشوف. يكتب طه حسين في مقال نشره بمجلة (الكاتب المصري) عام 1959م:

«لست أعرف كاتبًا روسيًا معاصرًا صوَّر قسوة الطبيعة كتصويره، ولا أعرف كاتبًا آخر صوَّر مثله جمال الطبيعة حين يقبل الربيع وتشرق الشمس وتعود الحياة إلى كل شيء إلا إلى هذه النفوس الوَجِلة، التي لا تفكِّر، أو لا تكاد تفكر إلا في مصاعب الحياة ومشكلاتها، وفي هذا الموت الذي يوشك

أن ينقضَّ عليهم فيختطف منهم عائلًا أو حبيبًا. ولا أذكر أني قرأت تصويرًا لحركة الجماعات في الخوف والأمن، وفي السُّخط والرضا كما قرأته في هذه القصة، ولا أعرف أحدًا غيره وصف حياة الهاربين في القطارات، التي تمضي بهم لا تقف حتى ييأسوا، أو يوشكوا أن ييأسوا من حركتها، وهم مع ذلك يهربون من الموت أو مما يشبه الموت».

يلخص لنا باسترناك حكاية الطبيب يوري جيفاكو من خلال هذه الأشعار التي يبعثها إلى حبيبته لارا:

لقد ضعت، كما الوحش في زريبة
في مكان ما - بشر - ضوء وقرار
من خلفي صخب المطاردة
وليس من طريق أمامي للخروج.
لكنني، وعند حافة القبر
واثق أنه سيأتي زمن
تتغلب فيه روح الخير
على قوة الشر والرذيلة.

16
لم أختر أن أكون ما أنا عليه

في السادسة عشرة من عمره يعثر في مكتبة والده على كتاب (اعترافات جان جاك روسو)، كان الفيلسوف الفرنسي المولود عام 1712م لعائلة فقيرة يريد أن يخبر القراء أن ولادته كانت فاتحة مصائبه وشقائه، حيث كان التشرد والحرمان واليُتم طابع حياة روسو، ما عمّق أحاسيسه، وجعله يشعر بالظلم: «لقد علمتني ذكرى التبدل الذي أصابني في حياتي، الفرق بين تبعية الابن للأسرة وبين الخضوع الذليل للآخرين».

كتاب (اعترافات جان جاك روسو) أراد له صاحبه أن يكون سيرة ذاتية متحررة تصدم القراء وتهزّهم: «على الرغم من أنني خجول بطبيعتي، إلا أنني كنت جسورًا في بعض الأحيان - في شبابي - ولكني لم أكن كذلك قط في شيخوختي، فكلما ازددت تعرفًا على المجتمع، قلت قدرتي على أن أكيّف نفسي وفقًا لأساليبه في الحديث، وإذا كان قد قدّر لي ألا أحب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبي».

كان روسو قد تعرض للملاحقة والمنع من قبل الكنيسة التي قررت أن تحرق كتبه علنًا عام 1762م، ولهذا اتخذ قرارًا بأن يؤجل نشر الاعترافات التي صوّر فيها أدق تفاصيل حياته، موقفه من السلطة، صراعه مع التقاليد البالية، رأيه في الجنس، نظريته في التربية، والأهم، الموقف من الحقيقة التي اتخذها شعارًا له طوال حياته، وخوفًا من مطاردة السلطات والكنيسة

له لم ينشر الاعترافات أثناء حياته، فبعد ثلاث سنوات على رحيله - توفي روسو في الثاني من تموز عام 1778م - نشر الجزء الأول من الاعترافات، وقد أصدرت الكنيسة منشورًا بتحريم الكتاب قبل صدوره، ونشرت بيانًا حذرت فيه أصحاب المطابع من نشر كتب المارق جان جاك روسو. وبسبب الإجراءات الصارمة التي كانت تتخذها السلطات الدينية ضد الكتب، ازدهر ما يسمى بالسوق السوداء، فنجد فولتير يكتب عام 1773م يشجع هذه الظاهرة: «مللنا من الكتب السيئة المطبوعة تحت الموافقة والامتياز الملكي، إنها مواد خاملة ومرتكبة ونحتاج إلى ما يوقظ أذهان الناس». وقد أدى توطيد أركان رقابة الكنيسة والدولة إلى إنعاش سوق غير شرعية، تمتلئ بالكتب التي تحمل أفكارًا خصبة ومثيرة. كان الكتاب الممنوع يشكل رهانًا على ازدهار المطابع الصغيرة المخبأة في المدن القديمة حيث أصدرت العديد من الكتب التي تحظرها الكنيسة وصدرت بها أوامر منع من الرقابة الملكية، ومنها كتب جان جاك روسو، وديدرو وكتب الفيلسوف الإنكليزي هيوم التي ترجمت إلى الفرنسية، وبعض مؤلفات فولتير، وقد جذبت تجارة الكتب الممنوعة أصحاب مطابع مغامرين وبائعي كتب دفعتهم الحاجة والطموح للترويج لكتب تثير غضب الكنيسة، وكان هؤلاء الباعة ناشطين في الترويج لكتب التنوير، وللعديد من المؤلفات السياسية والفلسفية وروايات وقصص إباحية.

بعد ما يقارب المئة والخمسين عامًا يكرّر أديب فرنسي التجربة، حيث يمزج أندريه جيد - ولد عام 1869م وتوفي عام 1951م - وهو يكتب سيرته الذاتية، الواقع بتفاصيله الكثيرة، بالفكر والأدب والحياة السرية التي كان يحاول أن يخفيها عن الناس، في مقدمة كتاب (الاعترافات) يكتب جان جاك روسو: «إنني مقدم على مشروع تصوّره لا سابق له وتنفيذه لن يجد له

نظيرًا. إنني أعتزم أن أُري رفاقي من البشر إنسانًا وسط صدق الطبيعة، ولو حتى وراء القبر إن جاز لنا مثل هذا القول». في عام 1926م ينشر أندريه جيد سيرته الذاتية أو اعترافاته، وهو يمضي في نفس طريق معلمه روسو، كشف الحقيقة، فيكتب: «إن مذكراتي هذه ليس لها الحق إلا أن تكون صادقة». تبدأ اعترافات أندريه جيد بعبارة قريبة الشبه بعبارة جان جاك روسو في كتابه (الاعترافات): «إن الاهتمام بأن أبدو بدقة على الصورة التي كنت أشعر أنني أحياها، أو كنت أود أن أكونها، كل ذلك يجعل مني أن أرى نفسي بوضوح وكأنني أتأمل تقاطيع وجهي في مرآة ورثتها عن أمي». لقد تصارعت في داخله التعاليم المسيحية التي كانت أمّه تدعوه كل صباح لترديدها ليغفر الله ذنوبه، وشخصية أبيه الصارمة التي كانت تسخر من الضعف الإنساني. ويحاول أندريه جيد أن يتخذ لنفسه طريقًا خاصًا، فبدلًا من أن يعترف أمام القس في الكنيسة قرر أن يقدم اعترافاته أمام القراء من دون تزييف، وليطرح سؤالًا مهمًا: مَنْ أنا؟ من تراني أقنع بأن كتاب (الباب الضيق)، هو التوأم الشقيق لكتاب (اللاأخلاقي)، وأن موضوعيهما قد كبرا واطّردا في ذهني، يواكب كل منهما الآخر، وأن الغلو في أحدهما كان يجد استجابة خفية في غلو الآخر، وبهذا فقد اتسق التوازن في كليهما.

في العام 1902م ينشر أندريه جيد كتابه (اللاأخلاقي) وفيه نتعرّف على ميشيل الذي يعمل أستاذًا للتاريخ، تربى منذ الصغر في جو دراسي صارم، كان أبوه يطمح أن يصبح ابنه مؤرخًا كبيرًا، ولهذا قرر أن يسجنه في جو دراسي منعزل بعيدًا عن ضوضاء الحياة. تبدأ أحداث الرواية في اللحظة التي يقرر فيها ميشيل أن يذهب برحلة إلى شمالي أفريقيا مع زوجته الشابة مارسلين، وأثناء الرحلة يصاب بمرض خطير، فيدرك للمرّة الأولى أنه سيغادر هذا العالم دون أن يتمتع بالحياة: «لقد فكرت من قبل أنني أفهم إنني أحيا ويجب

أن أعمل من أجل الحياة الممتلئة»، ونجد أندريه جيد يختفي وراء شخصية ميشيل الذي وجد أن صرامة حياته الماضية حرمته من كل متع الحياة، ولهذا لم يجد وسيلة سوى التحرر من كل تبعات الماضي وقيمه وتقاليده، واستغلال كل لحظة للتمتع باللذة التي اكتشفها متأخرًا: «إنني لا أجد مذاقًا فيما مضى، ومذاق اللحظة لا يزيد عن يوم، غير أن المستقبل يطيح بسحر الحاضر ولا يطيح بسحر الماضي، إن حياتي إنما تنقذف نحو المستقبل».

يكتشف ميشيل أن كل العناصر التي تتركب بها الأخلاقيات الاجتماعية التقليدية معادية للحياة، ولا يمكن للنمو الحقيقي للإنسان أن يتم إلا في مواجهة هذه القوى، والحقيقة الصادقة لا يمكن اكتشافها إلا في تنحية هذه القوى جانبًا. وتمرد ميشيل على الواقع يجري تصويره من قبل أندريه جيد على أنه رسالة موجهة للإنسانية: «ماذا يمكن أن يكون عليه الإنسان ثانية؟ هذا ما حمل إليّ المعرفة»، وأندريه جيد يتهم المجتمع بأنه باسم آداب السلوك، يُسدل ستارًا على الحقيقة التي هي وحدها تهم الإنسان، وتمزيق هذا الستار هو النتيجة التي يتوصل إليها ميشيل في نهاية الرواية: «لقد بدا لي حينئذ أنني أولد من أجل نوع مجهول من الاستكشاف، ولقد انفعلت انفعالًا غريبًا في بحثي الذي أجد أنني أجحد فيه الحضارة واللياقة والأخلاقيات». في يومياته يخبرنا أندريه جيد أن القضية الأساسية التي أراد أن يطرحها في (اللاأخلاقي) هي التجارب المرتبطة بالفساد الخلقي والتمتع بكل لذة مستطاعة: «إنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذي كان لزامًا علينا بذله لكي نحس إحساسًا صادقًا بالحياة، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شيء آخر عن طريق الحس والشهوة».

***

في عام 1911م يكتب أندريه جيد مقالًا عن محاورة (المائدة) لأفلاطون، ويصفها بأنها البحث الأقدم عن الحب في الحضارة الغربية: «إنه نص ذو أثر كبير على أفكارنا عن الرغبة»، في (المائدة) تشرح ديوتيما لسقراط نسب آيروس إله الحب والرغبة. والد آيروس كان المكر، ووالدته كانت الفقر أو الحاجة. يحذو آيروس حذو والديه؛ هو في حالة حاجة دائمة، فيلجأ باستمرار إلى المكر أو الحيلة كي يلبيها وباعتباره إلهًا للحب، يعلم أن الحب لا يمكن أن يحدث في الشخص الآخر إلا إذا شعر أيضًا بالحاجة. وذلك ما كانت تفعله سهامه، باختراق لحم الناس، تجعلهم يشعرون بنقص، بألم، بجوع، هذا هو جوهر مهمة المغوي، على غرار آيروس عليك أن تخلق جرحًا في ضحيتك، من خلال استهداف نقطة ضعفهم. ما تحتاج إليه هو جرح، شعور باللاأمان تستطيع توسيعه قليلًا، يجب أن يحسوا بالجرح قبل أن يقعوا في الحب. يكتب أندريه جيد: «كلما طاردت شخصًا ما بشكل واضح، كان تنفيرك إياه أمرًا أكثر ترجيحًا». ويخصص أندريه جيد مساحة لمناقشة الحوار الذي يدور بين سقراط وشاب وسيم يدعى «القبيادس» كان الشاب يحاول إغراء سقراط ليمارس معه الجنس، لكن سقراط يرفض ذلك ويحاول إقناع «القبيادس» بالبعد عن هذا الإغواء الشهواني، والبحث عن الحب الذي يسمو بالإنسان. ويجد أندريه جيد أن الحب واحد لا يفرق بين حب شاب أو حب فتاة، وهو يرى في إجابات سقراط محاولة للإساءة إلى المثلية الجنسية، فيقرر عام 1907م أن يبدأ بتأليف كتاب يدافع فيه عن الحب الشاذ بعنوان (كوريدون)، يبعث برسالة إلى صديقه أوسكار وايلد يشرح له خطته في تأليف هذا الكتاب الذي يلاقي معارضة شديدة من زوجته التي تصر على عدم نشره، وبرغم الحجم الصغير للكتاب إلا أن أندريه جيد استغرق في كتابته ثلاثة عشر عامًا، والكتاب مكتوب على شكل محاورات، قام جيد عام 1911م بطبع محاورتين منها بنسخ لم تتجاوز الاثنتي عشرة نسخة وزّعها على عدد من أصدقائه.

وقد لاقت المحاورتان معارضة كبيرة حتى أن الشاعر الفرنسي بول فاليري نصحه بإحراقها، لكنها أثارت اهتمام مارسيل بروست الذي كتب له: «إن القيمة السلبية التي يرها البعض في كتابك هذا، تصير قيمة إيجابية بمجرد أن يتحول إلى عذاب يكابده المحبوب»، بعدها يطبع منه خمسين نسخة يوزعها على معارفه وكان منهم أناتول فرانس الذي يقرر أن يكتب مقالًا يدافع فيه عن عمل أندريه جيد: «هناك الفنانون الحقيقيون، والكتاب الأصلاء الذين لا يتساءلون مع أنفسهم ولو للحظة واحدة عما إذا كانت وجوه القراء تحمر أو لا، إنهم يتمتعون بحب الأدب وبالحماس للحقيقة، وهم لا يكتبون من أجل طبقة ما، بل يطمحون إلى الكتابة للعصور القادمة. أما قوانين الشرطة وأخلاق العقلاء المصادق عليها رسميًا، هذا كله يتلاشى عندهم ولا يتمتع بأهمية. إنهم يتوجهون نحو الحقيقة، نحو كتابة الروائع، بالرغم من كل شيء وفوق كل شيء، ودون أن يقلِقوا أنفسهم بالفضيحة التي تجرها عليهم جسارتهم، والحمقى الذين يتهمونهم».

***

في يومياته يكتب أندريه جيد: «يبدو لي أن كل كتاب من كتبي لم يكن ثمرة حالة داخلية جديدة، بقدر ما هو سبب لها. ذلك أنني ما أكاد أهمّ بتأليف الكتاب حتى يسيطر هذا الكتاب عليّ كليًا». في العام 1925م يوافق أندريه جيد على نشر كتاب (كوريدون) كاملًا برغم تحذير جميع أصدقائه ومعارفه الذين توقعوا أن يثير الكتاب ردود فعل عنيفة وغاضبة ضده، ورغم أن الكتاب أشبه بسيرة لحياة أندريه جيد الجنسية، إلا أنه قرر المضي في التجربة ومواجهة المجتمع بأفكاره، والكتاب عبارة عن محاورات بين كوريدون الذي يشجع على الشذوذ الجنسي، والراوي الذي يُدين مثل هذه

الأفعال. إن كل الكتاب مخصص للإجابة على اتهامين أساسيين موجهين ضد المثلية الجنسية؛ إنها ضد الطبيعة وإنها مضرة بالمجتمع. ونجد أندريه جيد يرد على هذه الاتهامات من خلال شخصية كوريدون الذي نعرف أنه كان طالبًا يدرس الطب عندما تعرف على الراوي، لكن ظروف الحياة تفرق بينهما فيلتقيان بعد سنوات في باريس حيث يسكن كوريدون أحد الشقق، هناك تبدأ المحاورة وكأنها حوار داخلي يديره أندريه جيد مع نفسه. ففي شقة كوريدون يشاهد الراوي صورة للشاعر الأميركي والت ويتمان، فيدور حوار حول شذوذ ويتمان الجنسي، يحاول الراوي أن يؤكد أن أشعار ويتمان تبعد عنه تهمة الشذوذ، فهي أشعار طبيعية عن الحياة والناس، إلا أن كوريدون يخبر الراوي أنه بصدد كتابة مقال يرد فيه على الذين يقولون إن ويتمان عاش حياة جنسية طبيعية، لأن حياته الطبيعية هذه حسب رأي كوريدون لا تنفي عنه صفة الشذوذ، وأن المقال سيكون بعنوان (دفاع عن شذوذ ويتمان). يعترض الراوي على حديث كوريدون ويصر على أن الشاذين يفاخرون بالأمر في أحاديثهم الخاصة لكنهم يخافون من مواجهة الجمهور ويضرب مثلًا بحكاية أوسكار وايلد الذي يحاول إنكار تهمة الشذوذ عنه، ونجده يتراجع أمام ضغوط الرأي العام، وهنا يسأل الراوي كوريدون متى شعر بأنه شاذ، فيجيب بأن الأمر كان خافيًا عليه، حتى بعد الزواج من الفتاة التي ملكت قلبه - وحديث كوريدون عن الزواج أقرب إلى حديث أندريه جيد عن زواجه وتعلقه بزوجته - غير أن فكرة إخفاء شذوذه كانت تعذبه ولهذا قرر أن يتعايش معه: «ليس المهم أن يشفى المرء من مرضه، بل المهم أن يتمكن من التعايش مع الداء الذي يعاني منه». ويؤكد كوريدون أنه غير شاذ أو أنه حالة غير مألوفة في المجتمع. ويختتم كوريدون المحاورة بأنه لا يدافع عن شذوذه، بل هو يريد من الناس أن تؤمن بأن الأمر طبيعي من وجهة نظر أخلاقية واجتماعية وتاريخية.

يأخذنا أندريه جيد بكتابه في بحث أشبه بالدراسة العلمية لإثبات أن الممارسات الجنسية المثلية شائعة في مملكة الحيوان، وهو يستشهد بالفيلسوف الفرنسي باسكال الذي كتب: «إنني أقدر أن هذه الطبيعة ليست في ذاتها عادة أولية بقدر ما أن العادة هي طبيعة ثانية». ونجد مقولة مونتاني: «إن قوانين الضمير التي تزودنا بها الطبيعة ساعة مولدنا تتولد من العادة» تتحول إلى أداة مدافعة يستخدمها كوريدون في الرد على الراوي الذي يرى أن طبيعة الإنسان هي طبيعة نقية وشاملة، ويؤكد كوريدون أن أصحاب النظريات الحقيقية في الحب قليلون جدًا باستثناء أفلاطون وكتابات شوبنهاور. ويأخذ كوريدون مثلًا فن النحت الإغريقي الذي كان فيه النحات يحرص على نحت جسم الرجل عاريًا، في حين ينحت جسم المرأة مكسوًا بغطاء، وكوريدون يريد أن يتوصل إلى نتيجة تقول إن جسم المرأة يفتقر إلى الجمال ولهذا فهي تلجأ بشكل دائم إلى تجميل نفسها.

عندما قرر أندريه جيد نشر كوريدون وجد تشجيعًا كبيرًا من مارسيل بروست، وقد حدث لقاء بينهما في منزل مارسيل بروست في الثالث عشر من أيار عام 1921م كان بروست قد قرأ مسودات رواية أندريه جيد، وقبلها كان قد أصدر الجزء الأول من (البحث عن الزمن المفقود)، والتي دافع بروست عن حالته الجنسية ووصف أمثاله بأنهم: «هؤلاء الجنس الملعون الذين يضطرون إلى العيش في زيف وكذب، لأنهم يدركون أن رغباتهم عار لا بد من عقابهم عليها». يقول جيد إن بروست لم يحب النساء في حياته إلا من الناحية الروحية.

بعد صدور كوريدون بطبعة كاملة ثارت ثائرة الكنيسة الفرنسية ومعها الفاتيكان وصدر قرار بتحريم أعماله باعتبارها تشجع على الرذيلة وتجذف في الدين، وجاء في القرار البابوي أن: «كتابات أندريه جيد جديرة بالإدانة.

والحال إن موهبة الذكاء الداخلي والشاعرية الثرية التي مُنحها الكاتب تجعل الحكم عليه أكثر مثارًا للشجن، ولكن تجعل منه في الوقت ذاته ضرورة قصوى. إن مكان أندريه جيد في العالم المسيحي هو بين الأعداء والمفسدين، وبين أنصار عدو المسيح». وزاد الأمر سوءًا الموقف المتشدد الذي اتخذه الفاتيكان من رواية (اللاأخلاقي)، وبعدها (كوريدون). واكتمل قرار الحظر مع صدور رواية (مزيفو النقود) التي قال عنها أندريه جيد بعد سماعه خبر تحريمها من الفاتيكان أيضًا: «دع كل شيء يمكن أن يقع، يقع. إنني أريد كل عكس دون تحفظ». ولم تكن الكنيسة وحدها تقف بالضد من جيد بل الأكاديمية الفرنسية التي رفضت طلبًا تقدم به بعض أصدقائه لانتخابه عضوًا فيها، وكان الرد أن كتابيه سيئا السمعة (اللاأخلاقي) و (كوريدون)، يقفان حائلًا دون ذلك. يكتب أندريه جيد في مذكراته أنه لو اختير عضوًا في الأكاديمية الفرنسية فإنه سيعيد كتابة مقدمة جديدة لكوريدون يشرح فيها الأهمية البالغة لهذه الرواية، إلا أن قرار الأكاديمية الفرنسية لم يمنع الأكاديمية السويدية من أن ترشحه لنيل جائزة نوبل التي حصل عليها عام 1947م، وقد جاء في قرار اللجنة إشارة إلى جرأة أندريه جيد وشجاعته في (كوريدون) وموقفه المتميز في وجه النفاق الاجتماعي، وحبه للحقيقة.

يكتب أندريه جيد في رسالة إلى الشاعر بول كلوديل الذي كتب مقالًا ضد رواية (كوريدون): «إنني لم أختر أن أكون ما أنا عليه»، فيرد عليه كلوديل برسالة يكتب فيها: «ولكنك أنت الذي تتحدث عن نفسك بصراحة، وتجعل كل إنسان يرى أفعالك، إننا لم نشهد من قبل هذه الصراحة، فلم يسبق لكاتب أن خاض في هذا الموضوع مثلما تفعل، حتى أوسكار وايلد نفسه لم يفعل ذلك».

مكتبة
t.me/t_pdf

17

الأسئلة الخطيرة فقط هي تلك التي يصوغها طفل

بعد أربعين عامًا من إسقاط الجنسية عنه ومطاردته ومنع كتبه، اقترحت جمهورية التشيك على الروائي ميلان كونديرا أن يستعيد جنسيته. يتذكر كونديرا البالغ من العمر 89 عامًا العبارة التي يقولها على لسان أحد أبطال (كتاب الضحك والنسيان): «إن نضال الإنسان ضد السلطة هو نضال للذاكرة ضد النسيان».

في الفصل الرابع من (كتاب الضحك والنسيان) احتاجت تامينا أن تلتقي مع كاتب من الإقليم يدعى بانكا، يشرح هذا الكاتب لها أن الكتاب والرواية أصبحت اليوم ثمرة وهم بشري. هذا الوهم الذي دفع كونديرا ثمنه غاليًا. مطاردة من السلطات، حظر من النشر، والأهم أنه لا يزال يكره الحديث عن سيرته الحياتية، رغم أنه يهوى سرد حكايات الآخرين. يتذكر أول رواية كتبها وضع لها عنوان (المزحة)، كان في الثلاثين من عمره حين خطا بقدميه باتجاه بناية الرقابة ليحصل على موافقة من الرقيب، قبلها واجه مشكلة في نشر مجموعته القصصية الأولى (غراميات مرحة)، حيث رفضت معظم دور النشر طباعتها ووصفها أحدهم بأنها هذيانات شاب برجوازي.

ظل على مدى سبع سنوات يذهب إلى دائرة الرقابة للسؤال عن روايته ويكون الجواب انتظر لم تصدر الأوامر، لتصدر عام 1967م وفيها يروي لنا ميلان كونديرا قصة شاب يلقى القبض عليه بتهم سياسية لأنه أرسل بطاقة

إلى صديقته كتب عليها (التفاؤل أفيون الشعوب)، حيث يعود بطل (مزحة) إلى مدينته الأولى التي يعيش بعيدًا عنها منذ خمسة عشر عامًا ليجد نفسه يسترجع لحظة القبض عليه أول مرة بتهمة الخيانة العظمى والسخرية من النظام والدولة. كانت رسالة غرامية هي التي أحدثت زلزالًا في حياته، ففي لحظة مرح كتب لحبيبته ماركريتا: «التفاؤل أفيون الشعب. العقل السليم يُعفّنه الغباء، عاش تروتسكي»، وقريبًا من أجواء محاكمة كافكا يجد بطل كونديرا نفسه محاصرًا بثلاثة محققين:

الأول: أنت ترى أنّ الأفيون هو تفاؤلنا. لقد كتبت ذلك إلى ماركريتا.

الثاني: كم أودّ أن أعرف ماذا سيكون ردّ فعل عمّالنا من الصدمة التي تفوق كلّ تصوّر إن علموا بأنّ تفاؤلهم أفيون.

الثالث: بالنسبة إلى التروتسكيين، لم يكن التفاؤل البنّاء دومًا إلاّ أفيونًا، وواضح أنك تروتسكيّ.

أجاب محتجًا: من أين جئتم بهذا الحكم؟ تعلمون أنني حزبي أصيل لكني في الوقت نفسه، شخصية مرحة تميل تلقائيًا إلى الدعابة والهزل.

ولد ميلان كونديرا في الأول من نيسان عام 1929م، ويكتب أن حياته أصبحت مثل النكات التي تلقى بمناسبة الأول من نيسان، هو الابن الوحيد لعائلة مثقفة من الطبقة الوسطى، والده متخصص في الموسيقى، ولا نعرف ما مهنة أمّه، فهو لم يذكرها كثيرًا، ظل متعلقًا بوالده عازف البيانو الشهير الذي قاده إلى دروب بارتوك، وسترافينسكي، ورحمانوف.

اضطر في سن مبكرة أن ينشغل بالسياسة، ففي التاسعة من عمره كانت بلاده تشيكوسلوفاكيا تنزلق نحو الحرب، وسيكتب فيما بعد أن العديد من أفراد عائلته زج بهم في معسكرات الاعتقال النازية بسبب ميولهم الشيوعية،

وإن البعض منهم لقوا حتفهم، عندما وقع انقلاب براغ عام 1948م كان ميلان في الثامنة عشرة من عمره وقد سحرته دروب يوتوبيا الكادحين، فانضم للحزب الشيوعي. بدأ حياته شاعرًا، ويقال إن مجموعته الشعرية الأولى (أنا لا أقرأ التشيكية) حظيت بردود فعل إيجابية، لكن كونديرا اكتشف فيما بعد وبالصدفة سارتر الفيلسوف، وقد حاول في مجموعته الشعرية الثانية أن ينزع نحو الوجودية، الأمر الذي أثار نقمة الجهات الرسمية التي قررت فصله من الحزب عام 1950م، وكانت أسباب الفصل تؤكد أنه من غير المعقول في بلد شيوعي أن يبشر الشعراء بالعدمية والوجودية. في سن السادسة والعشرين كتب قصيدة يمجد فيها بطل المقاومة التشيكي فوسيك، فاستحق عنها إعادة الاعتبار له، ليصدر قرار بإعادته إلى الحزب.

طيلة الستينيات قام كونديرا بتدريس السينما في الجامعة، وفي تلك الأثناء نشر روايته (المزحة) وهي درس عن الحب في زمن سيطرة الأيديولوجيات، وقد ترجمت إلى الفرنسية بتقديم الشاعر الفرنسي الكبير أراغون، الذي وجد فيها تصويرًا لأزمة الأحزاب اليسارية في أوروبا. في عام 1968م قرر الروس دخول براغ، لم يختر ميلان الهروب، فقد أراد الاستمرار في إيمانه بالاشتراكية وبإمكانية التغيير من الداخل، لكنه في المقابل ترك نفسه، بأن يكتب بحرية، الأمر الذي أدى إلى طرده عام 1970م من الحزب الشيوعي، وصدور قرار بمنع كتبه من التداول، بعدها أقيل من وظيفته في الجامعة. قرر أن يعمل في إحدى الصحف لتحرير باب الأبراج باسم مستعار: «أن لا يكون للمرء وجود علني أمر له محاسنه أيضًا»، في هذه الفترة ينصرف لكتابة الرواية لتصدر له روايتين كبيرتين (الحياة هي في مكان آخر) و(فالس الوداع) الذي رسخت اسمه واحدًا من روائيي الجيل الجديد. عام 1975م يسافر إلى فرنسا ليقيم بصفة لاجئ، بعد أربعة أعوام يُجرد من جنسيته التشيكية،

فيمنح عام 1979م الجنسية الفرنسية، لم يُحدث المنفى ولا الكتابة بالفرنسية تغييرًا في أسلوب كونديرا الروائي، وأقصى ما لاحظه النقاد أن رواياته باتت تحمل خصائص التقشف في اللغة والاقتصاد في الوسائل، وتجنب النزعات العاطفية، ولعل ما سمح لكونديرا بهذه النقلة، هو إصراره على إعادة كتابة ماضيه الشخصي، الأمر الذي جعله يمتنع عن إعادة طباعة أعماله القديمة التي تعود إلى فترة الخمسينيات والستينيات، فهو يعدها غير ناضجة ولا تستحق القراءة: «إن أول نص يستحق الذكر هو قصة قصيرة كتبتها في سن الثلاثين، بعنوان غراميات مرحة، من هنا بدأت حياتي ككاتب».

يتصرف كونديرا مع قصة حياته الخاصة كروائي، فينبهنا في (خفة الكائن التي لا تحتمل) إلى أن «الشخصيات الروائية لا تولد من جسد أم، بل من بضع كلمات موحية، من استعارة، من موقف أساسي»، وهو أقرب إلى تصور سارتر في الوجود والعدم، الكتاب الذي اعتبره كونديرا أشبه بالإنجيل، كان سارتر في (الكلمات) يصر على أن نسيان الطفولة والسكوت عن الأشياء التي تمّ تلقيها وتعلمها، أشبه بقانون رفض الهوية.

رواية بعد أخرى نستكشف مع كونديرا مفارقات الوجود الإنساني، ما من أحد أكثر منه موهبةً في الكشف عن الضلالات التي نعيش فيها، والأدوار التي فرضت علينا كي نلعبها في الحياة، وأكاذيبنا، واستعراضاتنا الجنسية، وحيلنا ومراوغاتنا لصد (خفة الكائن التي لا تحتمل)، ولا أحد مثله باستطاعته المزج مزجًا بارعًا وبطريقة أقرب إلى كتابة النوتة الموسيقية، بين الخيال الروائي، والمقالة الفلسفية، إن فكرته الأساسية في معظم أعماله الروائية، هي أن لا وجود للهوية، لأن مظهرنا الجسدي أمر اعتباطي، دائم التحوّل، وذاكرتنا لا يمكن الوثوق بها كثيرًا، وحتى آراءنا وأفكارنا وأذواقنا وأنماط عيشنا، إنما تصوغها الصدفة. يخبرنا كونديرا أن الإيجابي هو الذي

أدرك الطبيعة التراجيكوميدية للحياة الإنسانية، والسلبي هو ذلك الذي يسعى دومًا إلى إقناعك بالانتماء إلى شيء ما، بلد أو حزب، أو دين أو عائلة.

***

صنفت باعتبارها من «أعداء الشعب» لأنها تنتمي إلى الأقلية الألمانية، في بلاد مثل رومانيا كانت السلطات تعتقد أن هذه الأقلية مسؤولة عن فظائع النازية. هيرتا موللر المولودة في إحدى قرى رومانيا عام 1953م، تتذكر حكاية أمها التي سيقت عام 1945م إلى روسيا للعمل خمس سنوات في المزارع الشعبية لتعود عام 1950م حليقة الرأس، هزيلة يلتصق جلدها بعظامها. بعد ستين عامًا تقرر موللر أن تعيد نسج حكاية أمها من خلال روايتها (أرجوحة النفس)، وسيكون البطل رجلًا ليوبولد أوبيرغ، الذي يعتقل ضمن مجموعة من شباب القرية من أصول ألمانية ليُرحل إلى إحدى المناطق في روسيا، هناك يتعرض إلى أقسى أنواع الإذلال والتنكيل، إلا أن وصية جدته التي قالت له حين تمّ تسفيره: «إنه سيعود حتمًا إلى بلاده»، تجعله يصر على الاستمرار في الحياة ومواجهة المصاعب بإرادة قوية ورغبة في العيش بحرية.

يروي أوبيرغ تفاصيل حياته في المعسكر، وتتداخل معها حكايات رفاقه لتتحول الرواية إلى حكايات عن أيام العذاب والقتل، ونجده في لحظات اليأس ينسى وصية جدته ويتمنى لو يموت ليرتاح من عذاب الأسر اليومي. تقدّم هيرتا موللر في روايتها (أرجوحة النفس) عبر أربعة وستّين فصلًا، صورة متكاملة عن التهميش الذي يتعرض له الإنسان، وكيف يتم تحطيم الناس لمجرد الاختلاف معهم في الهوية والعرق. تتذكر أنها ملأت أربعة دفاتر مدرسية وهي تستمع لحكايات العائدين من المعسكرات الروسية التي

فيها كانت تلغى الأسماء لتتحول إلى «هو وهي»، فالبشر: «نصف الجائعين ليسوا ذكورًا ولا إناثًا، إنهم بلا جنس كالأشياء». وبطل الرواية يصر على أن يتجاوز محنته وأن ينجو من قبضة الظلم: «إنني نجوت من قبضته... إنني أتناول الحياة حرفيًا». قالت موللر إنها كتبت هذه الرواية: «تخليدًا لأصدقائي الذين قتلوا بسبب الظلم والتمييز».

لم يكن من وجود للكتب في منزل أهلها. توفي والدها وهي صغيرة بعد أن جُند في الحرب العالمية الثانية. تقول في حوار معها: «الوحيد الذي امتلك مكتبة كان أحد أعمامي، صاحب القناعة النازية. مكتبة احتوت بالتأكيد على مختلف مؤلفات الفكر النازي، فقد اتصف بكونه أيديولوجيًا قرويًا مجنونًا. حينما مات في ساحة القتال سنة 1945م، ووصل الروس الذين اقترفوا كل أنواع الفظاعة داخل قريتنا، تحولت جدتي إلى كائن مرعوب. أساؤوا التقدير، كي يميزوا بين الكتب المورِّطة من غيرها، فألقوا بها كلها في موقد، ما منحهم إمكانية التدفؤ لمدة يومين. لقد عشنا رعبًا شديدًا».

كانت موللر في الثانية عشرة من عمره عندما تولى تشاوشيسكو السلطة عام 1965م، بينما كانت تدرس الأدب الألماني والروماني في إحدى الجامعات في أوائل السبعينيات. تعرضت للضغوط من الأجهزة الأمنية للتعاون في تقديم معلومات عن زملائها: «كان أحد هذه الضغوط هو أن والدي كان يبلغ من العمر 17 عامًا عندما انضم إلى قوات الأمن الخاصة. لقد فكرت، أنا في عمره لكنني واحدة مختلفة. لا يمكنني الاعتراض على ما فعله. لكنني لن أتحول إلى مرآة له».

في سن المراهقة كتبت مجموعة قصائد، «لكن ذات يوم قلت لنفسي: هذا يكفي، كل العالم بإمكانه أن يفعل ما أقوم به ثم توقفت. ولم أعاود الأمر، إلا بعد مرور فترة طويلة». أصبحت بعد سنوات واحدة من حلقة المثقفين

المستقلين، تعرضت إلى مضايقات من الأجهزة الأمنية، وعندما أصدرت أول كتاب لها العام 1982م وكان مجموعة قصصية بعنوان (المنخفضات)، وضعت الرقابة يدها عليه ومنعته. ولم يمض عامان حتى صدرت هذه المجموعة في ألمانيا. وفي هذه القصص، تصف هيرتا الحياة البسيطة في قريتها التي عاشت فيها طفولتها، هاجمتها الصحافة الرومانية واعتبرتها خائنة، منعت من العمل في الصحافة، فاضطرت إلى العمل مترجمة في مصنع حتى العام 1979م. ولم تلبث أن صُرفت من عملها جراء رفضها التعاون مع الأجهزة الأمنية. تم تسفيرها بطريقة غير شرعية لتصل إلى ألمانيا برفقة زوجها عام 1987م، عندما سقط نظام تشاوشيسكو عام 1989م حاولت الرجوع إلى رومانيا لكن السلطات الألمانية حذرتها: «ظنوا أنني قد لا أعود حية ثانية». شاهدت محاكمة الرئيس الروماني تشاوشيسكو من على شاشة التلفزيون، تألمت لمشهد إعدامه: «بكيت طوال هذا اليوم، لا يمكنك مشاهدة شخص يُطلق عليه النار. على الرغم من أنني كنت أتمنى ذلك لمدة 20 عامًا، لم أكن أريد حقًا رؤيته».

***

منذ دخوله المدرسة يدرك جارومیل بطل (الحياة هي في مكان آخر) أن محبة أمّه تترك آثارها في كل شيء، كانت تلك المحبة مطبوعة على كل شيء في حياته، ولهذا يخترع الفتى جارومیل، من أجل الدفاع عن نفسه ذاتًا أخرى، باسم «إكزافييه» الذي بدلًا من أن يحيا حياة تمتد من الولادة إلى الموت كحبل طويل قذر، يحيا في الأحلام، عابرًا من حلم إلى آخر، كما لو كان يعبر من حياة إلى أخرى. ولن نعجب حين يخبرنا الروائي أن هذه الحرية العجيبة ناجمة عن كونه بلا أم وبلا أب، ذلك أن انعدام وجود الأبوين هو شرط الحرية الأول،

لا تبدأ الحرية حيث يُرفض الآباء أو يدفنون، بل حيث لا يكون لهم وجود، حيث يأتي الإنسان إلى العالم دون أن يدري من أين.

يصبح جارومیل الشاب الوسيم مثل كونديرا في الخمسينيات شاعرًا، «كان يكتب قصائد عن الطفولة المصطنعة، عن الحنان، عن موت وهمي، عن شيخوخة وهمية، كانت تلك ثلاث رايات زرقاء يتقدم تحتها خائفًا نحو جسد المرأة الراشدة الحقيقي على نحو هائل».

لكن صورة أمه تظل تطارده حتى في ألعابه الجنسية، فيشعر بالذنب: «حتى حين تمضي وقتك مع النساء، حين ستكون معهن في السرير، سيكون ثمة حبل في عنقك، وفي مكان ما، أبعد قليلًا، تمسك أمك بطرفه، فتشعر على إيقاع اهتزازاته بحركاتك الماجنة».

وبرغم بلوغه سن العشرين، ولسبب لا يكشف عنه كونديرا، يظل جارومیل يقبل أن تختار له أمّه ملابسه، لذا لن نندهش حين نراه بعد ذلك يوثق عشيقته الشقراء الصغيرة ويشل حركتها حين يمارس الجنس معها: «إن جوهر المشكلة إنها كانت تفلت منه، إنه لم يكن يتملكها تمامًا». كان أي ميل للاستقلالية لدى العشيقة الصغيرة يسوء جارومیل، كان يود: «أن لا تكون أبدًا في مكان آخر غير مغطس الحب ذاك، أن لا تحاول الخروج منه، ولو بالفكر، أن تكون مغمورة تحت سطح أفكار جارومیل وكلماته»، مثلما كان هو مغمورًا في أفكار أمّه وكلماتها.

في النهاية يشي جارومیل بعشيقته إلى السلطات فيتم إلقاء القبض عليها والزج بها في السجن، وهكذا سيصبح سيدها المطلق، وسيكون في النهاية، قد أخذ بثأره من أمّه «إنها له، له، له». ثم يقع الشاعر الشاب مريضًا حتى الموت، ويكتب كونديرا في نهاية الرواية مقطعًا شديد السخرية يقول فيه جارومیل لأمّه، وهو ما يزال يمسك بيدها: «أنتِ الأجمل من بينهن جميعًا،

أنتِ أكثر من أحببت». بموت جارومیل، يموت الشاعر الغنائي الذي كأنه ميلان كونديرا في شبابه، وبهذه الرواية أدار ظهره نهائيًا لعالم الخمول الفكري، وعالم الأمهات، ولن يقع في الفخ ثانية، انتهى الشعر، الثورة، الاشتراكية، التناغم مع العالم الخارجي، الحب الأمومي، كل ذلك سوف يرمى إلى سلة النفايات.

يكتب كونديرا: «بعد نشري لكتابي الأول (المزحة) الكثير من القراء اكتشفوا أن شخصيات الرواية موجودة بينهم وهم يلتقون بها في الطرقات والمترو ومقاهي الرصيف». ويضيف صاحب (الضحك والنسيان) أن دراسته للموسيقى والسينما مكنته من أن يتناول الموضوعات الأكثر قتامة بأسلوب هزلي، من (خفة الكائن) إلى (الحياة في مكان آخر) مرورًا بـ(المزحة والجهل)، ظلّت الفكاهة سمة مميزة لكتاباته، وهو يقول لمحاوره كريستيان سالمون: «إن التسلية والإمتاع كانت وسيلته لتمرير أفكار يعتقد بها، فهو يعتقد أن الرواية يجب أن تجمع بين المعنى الجادّ والأسلوب المُسلّي، على غرار ما قدّم تشارلز ديكنز في رائعته (أوقات عصيبة).

يؤكد كونديرا في كل أعماله الروائية أن العالم الذي نعيش مآسيه لا يساوي دم من ماتوا ليجعلوه مكانًا أفضل، فهدف النسيان والسخرية عند الإنسان، هو تجاوز التاريخ ثم الانصراف لما هو أهم سواء كان حياة أو فنًا أو موقفًا أخلاقيًا أو صمتًا مطبقًا.

18
عفريتٌ مرعبٌ يتسلل في أرجاء أوروبا

كان في الثلاثين من عمره حين قرر عام 1848م أن ينشر كتابًا سيصبح بعد سنوات الأكثر مبيعًا وقراءة في العالم، وسيشعل الثورات في عدد من البلدان، وسيصر أدولف هتلر بعد 90 عامًا على أن يُحرق هذا الكتاب الذي كان يسميه «الأفعى السامة» أمام عينيه في إحدى ساحات برلين، وكان البابا بيوس التاسع قد أصدر أمرًا بأن يضع الكتاب على رأس قائمة الكتب الملعونة التي كان الفاتيكان يصدر بها قوائم منع بين الحين والآخر.

قبل هذا التاريخ بعام واحد، حذر الفرنسي ألكسي توكفيل من ثورة بسبب الظلم الذي تتعرض له الطبقة العاملة: «انظروا إلى ما يجري في صفوف الطبقات العاملة.. ألا ترون أن عواطفهم تحولت من سياسية إلى اجتماعية؟ ألا ترون إنه تنتشر في صفوفهم بالتدريج آراء وأفكار، لا تؤدي إلى قلب هذه القوانين، وتلك الوزارة، أو حتى ذلك الحكم وحسب، بل إلى قلب المجتمع». كان توكفيل يستعد لنشر كتابه (النظام القديم والثورة)، والذي سيركز فيه على أن الديموقراطية تعزل الإنسان وتهبط بمستواه الخلقي، حائلة بينه وبين أن يتحمل مسؤولياته كافة. ومن هنا يتعين إضفاء طابع لامركزي على السلطة، وتحرير الصحافة وبقية المؤسسات والمشاريع إلى الحد الأقصى، وجعل القضاء مستقلًا كل الاستقلال عن الحكومة، وبعد أيام تندلع الثورة في فرنسا، والتي سميت بربيع الثورات الأوروبية، وقبل

هذا التاريخ بسنوات كتب بيار جوزف برودون الذي كان يعتبر نفسه واحدًا من مؤسسي الاشتراكية المعاصرة: «إن الملكية هي السرقة».

كان كارل ماركس ينظر إلى نفسه على أنه أديب قبل أن يكون فيلسوفًا، أو عالم اقتصاد، وقد أخبر صديقه إنجلز وهما يضعان مسودات كتابهما الشهير (البيان الشيوعي) أن الكتاب رغم طابعه السياسي والثوري، فهو كتاب ميزته أنه يقترب من الأعمال الأدبية: «علينا أن نتطلع إلى الشعراء والروائيين أكثر مما نتطلع إلى الفلاسفة والمحللين الاقتصاديين، فمع الأدباء سنبصر جيدًا دوافع الإنسان من أجل الحرية ومحاربته للظلم وسعيه إلى المساواة والعدالة».

في عام 1842م يكتب ماركس أولى مقالاته السياسية بعنوان (الشيوعية) التي اعتبرها غرامشي فيما بعد الأساس الذي بُنيت عليه الفلسفة المادية، في هذه المقالة يشرح ماركس للمرة الأولى مفهوم الشيوعية ويُعيد أصولها إلى الفيلسوف أفلاطون، في تلك السنة يعكف مع زميله إنجلز على مراجعة كتب سان سيمون وتسحرهما مقولات برودون التي كان يوجهها ضد الملكية: «ما هي الملكية؟ إنها ترفٌ مرفوضٌ».

ويرى ماركس عندئذ أن الاقتصاد أساس لكل العلوم الاجتماعية، ولا شيء يمكنه الإفلات من قوانينه، فيقرر التصدي لاشتراكية سان سيمون الطوبائية ليبتدع الاشتراكية العلمية فيكتب: «إن الفعل الذي يبني المنظومات الفلسفية في دماغ الإنسان هو نفسه الذي يبني سكك الحديد بيد العمال».

ويذهب بعيدًا فيقرر التصدي لمعلمه الأول هيغل، فينشر كتابه الشهير (نقد فلسفة هيغل في الحقوق)، حيث يقترح قلب الجدل الهيغلي لوضعه على قدميه، أي الانطلاق ليس من النظريات وإنما من ظروف الحياة الواقعية ويصوغ لأول مرة فكرة أن الوظيفة التاريخية للبروليتاريا هي قلب الرأسمالية ويكرر على خلاف هيغل أن الدولة ليست هي التي تُسيِّر التاريخ، بل التاريخ

هو الذي يُشكل الدولة، وأن الإنسان لا يتمكن من التحرر إلا بأفعاله وليس بنزوة مُحسن أو بإرادة دكتاتور متنور إذ لا يمكن للثورة أن تأتي إلا من خلال طبقة اجتماعية محررة بامتياز.

في الثامن من آب عام 1844م التقى كارل ماركس بفريدريك إنجلز في أحد مقاهي باريس، كان إنجلز يصغر ماركس بعامين من أسرة تملك مصانع للقطن بألمانيا، كانت اهتماماته اقتصادية بالدرجة الأولى. هناك دار بينهما حوار استمر عشرة أيام، كل يوم يجلسان في المقهى منذ الصباح حتى المساء يناقشان أمورًا عديدة من أهمها فلسفة هيغل وضرورة تطوير مفاهيمها عن الجدل، وآخر ما توصل إليه محبوبهما الفيلسوف الألماني فيورباخ، وقد أثمرت الحوارات بينهما الاتفاق على إصدار كتاب بعنوان (العائلة المقدسة)، تسبب صدور نسخة منه بالفرنسية بطرد ماركس من باريس وانتقاله إلى بروكسل، حيث يلحقه إنجلز إلى هناك ليستأجر منزلًا قريبًا من منزل ماركس ويبدآن العمل سوية في كتاب جديد يصدر عام 1846م بعنوان (الإيديولوجية الألمانية)، وكان قد رفضته العديد من دور النشر، فتكفل إنجلز بمصاريف الطباعة، ويفسر ماركس أهمية هذا الكتاب بقوله: «كان إنجلز قد وصل إلى النتيجة التي وصلت إليها ذاتها، وعندما جاء للاستقرار في بروكسل عام 1845م قررنا عرض الاختلاف الأساس الذي كان يفصل تصوراتنا عن تصورات الفلسفة الألمانية، أعني قطع العلاقات مع ماضينا الفلسفي الخاص في الواقع، وحدث لهذا المشروع أن تجسد بشكل نقد للفلسفة ما بعد الهيغلية».

بعد (الإيديولوجية الألمانية) يعثر ماركس على هدف جديد لنقده، هذه المرّة سيقرر الرد على كتاب (فلسفة البؤس) لبرودون في كتاب تهكمي يضع له عنوان (بؤس الفلسفة). وفي هذا الكتاب يتنبأ ماركس بزوال الطبقات المستغلة والجشعة وبزوغ عصر جديد: «هل يعني هذا أنه بعد سقوط المجتمع

القديم، ستحل هيمنة طبقية جديدة تتلخص بسلسلة سياسية جديدة؟ كلا.. فستعوض الطبقة الكادحة في خلال تطورها المجتمع القديم بشراكة ستستبعد الطبقات وصراعاتها ولن تكون هناك سلطة سياسية بمعنى الكلمة باعتبار أن السلطة السياسية هي بالذات الخلاصة الرسمية للصراعات في المجتمع المدني».

بعدها سيجتمع ماركس وإنجلز لوضع الصفحات الأولى من كتاب (البيان الشيوعي)، ورغم أن الكتاب ينسب للاثنين معًا، فان إنجلز كتب مسودته الأولى على شكل خمسة وعشرين سؤالًا وجوابًا عن الشيوعية، وأعاد ماركس كتابته كاملًا. كان (البيان الشيوعي) يطبع في لندن، وجاهزًا للنشر بالألمانية حيث تنشر الكراسة دون ذكر لأسماء المؤلفين، فقد نسب البيان إلى عصبة الشيوعيين. في شباط من نفس العام يسافر ماركس إلى باريس وهناك يلقي محاضرة يعرض فيها تاريخ الثقافة الإنسانية باعتباره تاريخًا للإيديولوجية، وللديانات والفلسفات والنظم القانونية المقنعة التي أظهرت نفسها على أنها حقائق كلية أو أزلية لسائر البشر، ويرى ماركس في محاضرته تلك أن جميع الأفكار والقيم التاريخية الرئيسة تعمل على حماية المصالح الطبقية والدفاع عنها، وتحرص على إخفاء حقيقة الممارسات الظالمة وغير الإنسانية من قبل المجتمع المدني بحق الطبقات التي تتعرض للاستغلال. يصف جاك أتالي في كتابه (ماركس أو فكر العالم) كتاب (البيان الشيوعي) بأنه عمل عبقري ونتاج قدرات إبداعية وفكرية كبيرة وسياسية أضيف لها عنصر الإلهام والتخيل، فيما يكتب إيسيا برلين: «لا يمكن لأي حركة أو قضية سياسية أخرى في العصر الحديث أن تدعي أنها أنتجت أي شيء يدانيه من حيث البلاغة أو القوة». يفسر (البيان الشيوعي) التاريخ البشري على أنه تاريخ الصراعات الطبقية التي جرت وفقًا للقوانين الجدلية الضرورية

وينتهي به كارل ماركس وإنجلز إلى أن العصر الحالي هو الوقت المحتوم لآخر الصراعات الطبقية الكبرى في التاريخ، بين الرأسماليين وطبقة العمال والشغيلة بوصفها آخر طبقة مستعبدة لم تنل حريتها: «ليس للبروليتاريين ما يخسرونه سوى أغلالهم وأمامهم عالم يكسبونه.. يا عمال العالم اتحدوا!»

***

من هو الشيوعي؟ يحدد ماركس وإنجلز في بيانهما الشيوعي معنى أن يكون الإنسان شيوعيًا: «لا يعني أن يكون له رأي مختار من بين سائر الآراء، وفقًا لمصادفات التفضيل والانتقاء والمناسبات ولا هو كذلك صفة موروثة أصيلة عند بعض الأفراد يكونون شيوعيين، كما يكون الإنسان أشقر أو أسمر، وهذا لا يعني أيضًا أن يكون لدى الإنسان عزم على مداواة جميع الآلام البشرية بعاطفة توصي لتعميم الحب على البشر، أو بنزعة إنسانية طوباوية أو حلم كريم، أو باللجوء إلى انقلاب فجائي شامل يطرأ على الأوضاع. أن يكون الإنسان شيوعيًا معناه من الناحية الجوهرية اتخاذ موقف علمي من قضايا المجتمع».مكتبة سر من قرأ

في النسخة التي صدرت بعد وفاة ماركس يضيف إنجلز ملاحظة لقراء البيان تتعلق بأهمية دراسة المادية التاريخية لفهم البيان الشيوعي: «إن الفكرة الرئيسة التي تهيمن على البيان الشيوعي هي أن الإنتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الناتج عنه يكوّنان حتمًا، وفي كل عصر، قاعدة التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر، إن التاريخ كان وسيظل تاريخ الصراع بين الطبقات».

أصبح (البيان الشيوعي) فيما بعد أول وثيقة منهجية للشيوعية العلمية، وقد لخص فيه ماركس وإنجلز مجمل المعارف الاجتماعية والاقتصادية

والتجارب العلمية، ولم تبلغ النسخ التي طبعت في الطبعة الأولى من هذا الكراس الصغير سوى بضع مئات تنقلت من يد إلى أخرى. حيث وسرعان ما تحوّل هذا الكتيب الصغير إلى منهج للفلسفة الماركسية التي أصبحت الاتجاه الفكري الأبرز في القرن العشرين، حيث امتد تأثيرها إلى كافة العناصر السياسية، فضلًا عن الثقافية كالروايات والأفلام ووسائل الإعلام، والهيئات والمؤسسات الاجتماعية. إنها الثورة الشيوعية التي يصفها ماركس وإنجلز في (البيان الشيوعي): «الثورة الشيوعية هي القطيعة الأكثر جذرية عن علاقات الملكية المتوارثة».

كان للبيان تأثير مباشر على الثورات نفسها، فقد كانت قد اندلعت فعليًا بقوة عندما نشر الكتاب، وكان لأحداث فرنسا أثرٌ في امتداد الثورة إلى ألمانيا في الشهر التالي أكبر بكثير مما كان لأي كتاب آخر أن يفعل ذلك. وقد أبدى الثوريون أقصى ما بوسعهم من أجل ضمان قراءة واسعة للبيان الشيوعي الذي كان على وشك الصدور في طبعة ثانية بحلول نيسان من نفس العام، وقد تمّ شحن 100 نسخة إلى العمال الألمان في أمستردام في آذار، ثم أرسلت 1000 نسخة إلى باريس. وفي بداية نيسان أعطى الشيوعيون في باريس نسخًا من البيان لثلاثة أو أربعة آلاف من المهاجرين الألمان العائدين إلى وطنهم للانضمام للثورة. وفي آذار 1848 قامت صحيفة المهاجرين الألمانية بإصدار الكتاب في سلسلة من المقالات. وعندما عاد ماركس إلى كولون وزع البيان هناك، وفي أوائل 1849 صدر في سلسلة مقالات في الصحيفة اليسارية (داي هورنيسه). وبدأت خطط طموحة لترجمته إلى لغات أخرى، توفرت ترجمة فرنسية منشورة عقب كومونة باريس في عام 1871م. وكانت الترجمة الوحيدة المؤكدة في عام 1848م هي الترجمة السويدية. بينما صدرت الترجمة الإنكليزية الأولى بشكل متسلسل في صحيفة (الجمهوري الأحمر) التي أصدرها اليساريون في تشرين الأول 1850، وقد ترجمته الاشتراكية

هيلين ماكفرلين التي كتبت في تقديم البيان: «إن عفريتًا مرعبًا يتسلل في أرجاء أوروبا». ومع انتعاش الاشتراكية عالميًا منذ ثمانينيات القرن 19 وما بعدها أنجزت الترجمات الهامة، بما فيها الترجمة الفرنسية التي قامت بها ابنة ماركس لورا لافارج والترجمة الإنكليزية المعتمدة التي تدخل فيها إنجلز.

يكتب لينين قائلًا: «إن البيان الشيوعي يجب أن يُترجم ويوزع بشكل واسع قدر المستطاع، لكي يتمكن العمال والقراء من تكوين فكرة عن مجمل التصورات عن مؤسسي الاشتراكية العلمية».

***

في الخامس عشر من أيار عام 1818م يولد كارل هينريخ ماركس في مقاطعة غربي ألمانيا، في تلك السنة ينشر شوبنهاور كتابة الشهير (العالم كإرادة وتمثل) وهو الكتاب الذي أثار ضجة كبرى، وما يزال من أهم ما أنتجته الفلسفة الغربية في عصرها الحديث، الأمر الذي دفع مترجمًا وباحثًا كبيرًا مثل عبد الرحمن بدوي إلى أن يخصص كتابًا عن شوبنهاور يكتب فيه: «كان حرًا كأوسع ما تكون الحرية بإزاء السلطات الثلاث، فلم يحفل بالسياسة على الإطلاق. وإن كان نصيرًا للنظام ولهذا أبغض الثورة التي قامت في ألمانيا عام 1848م، لأن فيها إخلالًا بالنظام»، وفي السنة نفسها تظهر شخصية فرانكنشتاين في الرواية التي وضعتها ماري شيللي، والتي ستؤثر كثيرًا على ماركس المراهق، مثلما أثّرت به رواية والتر سكوت (إيفانهو) التي شغلته أسئلتها عن البطل الفرد أثناء فترة شبابه. وعندما يصبح عمره أربع سنوات توفي سان سيمون أول من آمن بفكرة التطور وأن المجتمع لا يثبت على حال وهي الفكرة التي ناقشها ماركس فيما بعد من خلال نقده لمبدأ سان سيمون القاضي بأن الاشتراكية والعدالة يمكن أن تتحققا على يد مستبد مستنير،

ويُقال إنه ظل يمطر نابليون بالرسائل يناشده بأن يحقق العدالة الاجتماعية في أوروبا.

ولا نعرف أشياء كثيرة عن طفولة كارل ماركس باستثناء اللمحات التي كتبتها ابنته إيليانور، يصفونه بأنه كان غلاما قويًا، متين البنية، حيوي الذهن، وفقد أظهر منذ صباه المبكر ذكاء حادًا جدًا. وتخبرنا شقيقته الكبرى أن كارل لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره عندما كان يحاجج أباه في موضوعات الأخلاق والحرية ويناقشه عن موضوع الله، وكان الأب والابن يقضيان أوقاتًا طويلة يتناقشان حول أفكار فولتير وقصائد غوته. وفي تلك السن قرأ شكسبير، وأعجب بسيرفانتيس وحفظ مقاطع مطولة من إلياذة هوميروس، وكان والده يأمل أن يستخدم ابنه مواهبه العقلية في خدمة الناس، أما أمه فقد كانت تأمل أن يساعد الحظ ابنها فيصبح صاحب مال وفير.

يدرس ماركس الشاب القانون في جامعة بون تنفيذًا لرغبة والده، لكنه يكتشف الفلسفة التي ستكون ميدانه الأساس ومعها يقول في رسالة إلى حبيبته التي أصبحت زوجته فيما بعد جيني، إنه وجد ما يبحث عنه أخيرًا. في الفلسفة يكتشف أستاذه الأول هيغل معلم الفلسفة المثالية الألمانية، وسرعان ما ينضم إلى جماعة الهيغليين الشباب، يكتب لوالده أنه يريد أن يترك القانون، فقد أحدث هيغل انقلابًا في نفسه وهو يريد أن ينتهي من هذا القلق الذي يعيشه: «لقد قرأت شذرات من فلسفة هيغل التي كان تناغمها الديالكتيكي الغريب والحاد لا يروق لي، كنت أريد أن أغوص مرة أخرى في محيط هيغل». بعد عام يكتشف بالصدفة نصوص فيورباخ الأستاذ الذي طُرد من الجامعة لأنه انتقد هيغل بقسوة، فيما ينكب ماركس على دراسة شتى الفلسفات، يضع قواعد لدور الفيلسوف في المجتمع، هذا الفيلسوف الذي يجب عليه وهو يقول الحقيقة أن يُسهم في تغيير المجتمع.

وفي حين كان كارل ماركس يتنقل من النزعة العقلانية إلى الرومانتيكية ثم إلى الهيغلية، فإن صديقه المقبل ورفيقه في وضع أسس الفلسفة المادية، فريدريك إنجلز استطاع أن يصل إلى نفس التصورات والمفاهيم، ولكن عبر معاناة مع عائلته التي كانت ترى في الفلسفة والفكر نشاطًا عبثيًا.

ولد إنجلز في الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام 1820م في الشطر الصناعي من ألمانيا، وكان ينتسب إلى عائلة من الصناعيين الكبار، وبخلاف عائلة ماركس ذات العقلية المتحررة، فإن عائلة إنجلز كانت ذات نزعة رجعية، وقد اضطر إنجلز منذ سنوات شبابه الأولى للكفاح بضراوة ضد هذه العقلية التي لا ترى في الحياة سوى المال. وعند بلوغ إنجلز الرابعة عشرة أرسلته العائلة إلى كلية البريفيدا والتي تعتبر آنذاك من الكليات المتميزة، وشأن والد كارل ماركس، كان والد إنجلز مع اعترافه بمزايا ولده، يحس بالصدمة لطبيعته المختلفة جذريًا عن أشقائه، وكان يخشى أن تؤدي هذه الاختلافات إلى اضطراب روحه وخراب مستقبله.

ونظرًا لأن إنجلز لم يكن يجد في عائلته تفهمًا لرغباته في الدراسة والعمل والحرية الشخصية، فقد كان يحس بالعزلة وكان ينطوي على نفسه، وقد قالت امرأة عجوز كانت تقطن بالقرب من منزلهم، إنها شاهدته يسير في النهار حاملًا مصباحًا في يده قائلًا إنه يفتش مثل ديوجين عن الحقيقة.

توفي ماركس في عام 1883م بعد أن كتب كتابه الشهير (رأس المال)، ونقرأ في الطبعة التي صدرت من (البيان الشيوعي) بعد وفاة ماركس هذه السطور المؤرخة في تموز عام 1883م والتي كتبها إنجلز: «إنني مضطر وأسفاه إلى توقيع مقدمة الطبعة الحالية وحدي، إن ماركس الإنسان الذي تدين له الطبقة العاملة بأسرها أكثر مما هي مدينة لأي إنسان آخر يرقد في مقبرة هايغيت، وعلى قبره نبتت العشبة الأولى، وبعد موته لا يمكن أن يطرح

على بساط البحث - واليوم أكثر من أي يوم مضى - تعديل البيان الشيوعي أو إكماله».

أدرك إنجلز منذ البداية تفوق ماركس العبقري، ولم يطمح إلى لعب أي دور غير دور الشريك المثالي، غير أنه لم يكن مجرد مفسر لماركس، بل كان دائما معاونًا مستقلًا بأفكاره، ويملك قدرة مختلفة في دراسة أحوال المجتمعات، ونجد ماركس يكتب لإنجلز بعد عشرين عامًا من لقائهما الأول: «أتعلم أنني أولًا وقبل كل شيء أتوصل إلى الأشياء ببطء، وأنني ثانيًا أتبع خطاك على الدوام».

فيما يكتب إنجلز في وصف صديقه ماركس بأنه: «موسوعة حية، مستعد للعمل في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، مليء بصفاء الذهن، سريع في الكتابة، ونشيط نشاط شيطان».

19

أيهما أفضل أن يكون المرء محبوبًا أم مرهوب الجانب؟

وضع له قاموس اللغة الإنكليزية (أكسفورد) تعريفًا على أنه: «الشخص المتآمر وحائك الدسائس المجرد من الأخلاقيات»، فيما أصر عالم النفس إريك فروم على أن يستخدم الاسم لوصف الشخصية التي تتصف بالغرور وعدم الأمانة والاستخفاف بالدنيا والتلاعب بالناس. وقال عنه أحد المقربين منه: «لقد كرهه الناس بسبب كتابه اللعين»، فيما كتب توماس هوبز في يومياته: «لقد نظر إليه الناس الصالحون على أنه خاطئ، والأشرار على أنه أكثر منهم شرًا أو أكثر منهم مقدرة على فعل الشر، ومن ثم كرهه الجميع».

وقد أدرج بابا الفاتيكان بيوس الثامن كتب هذا الشيطان - كما وصفه - ضمن قائمة الكتب المحرمة كنسيًا، واستخدم مؤلفو العصر الإليزابيثي أمثال وليم شكسبير وكريستوفر مارلرو اسمه لتجسيد شخصية إنسان في غاية الحقارة والشر والانتهازية. وتبدأ مسرحية (يهودي مالطا) لمارلو التي قدمت على المسرح عام 1591م بافتتاحية ترويها شخصية ماكيفيل والتي يخبرنا من خلالها أنه يقدم مأساة رجل يهودي يدعى بارباس أصبح ثريًا من خلال اتباع تعاليم كاتب إيطالي يدعى «نيقولا مكيافيللي». حيث يعرض لنا مارلو في مسرحيته أنواعًا من الجشع والطموح والخيانة والاقتتال الجماعي، وبأفكار غارقة في الماكيافيللية، كان مارلو قد حصل على نسخة مترجمة للإنكليزية من كتاب (الأمير) لمكيافيللي، وأراد من خلال مسرحية

(يهودي مالطا) أن يطبق نظريات مكيافيللي التي كان شديد الإعجاب بها من خلال عمل مسرحي فنجده في نهاية المسرحية يعيد لنا الراوي «ماكيفيل» ليظهر على المسرح مخاطبًا الجمهور شارحًا لهم مساوئ السلطة وحسناتها، وكيف يجب أن تكون وما هي واجبات الحاكم، وهو يشير إلى ماكيافيللي بالاسم: «لئن كان العالم يحسب أن ماكيافيللي ميت، فإن روحه قد طارت إلى ما وراء جبال الألب. وقد يكون اسمي ممقوتًا عند بعض الناس، لكن الذين يحبونني يحمونني من ألسنتهم ويعرفون بأنني ماكيافيللي، وأنني لا أقيم وزنًا للناس، ولذلك لا أقيم وزنًا لكلامهم. إنني موضع الإعجاب عند أولئك الذين يضمرون لي أشد الكره. وعندما يذمون كتبي فإن أتباعي الصاعدين في طريق المجد يقتلونهم باسمي». ومارلو لا يكتفي بهذا بل إنه يجعل من باراباس نفسه، ناطقًا باسم ماكيافيللي، حيث يضع على لسانه جملًا وحوارات منقولة حرفيًا من كتاب (الأمير)، ولم يكن مارلو وحده، فهذا شكسبير يقول على لسان إحدى شخصيات مسرحية (زوجات وندرسون المرحات): «ماذا؟ أأنا مخادع؟ أأنا مكيافيللي؟»

ويستلهم شكسبير من كتاب (الأمير) المقترح الذي يطرحه مكيافيللي من أن الأعمال القاسية يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في تحقيق السلطة والحفاظ عليها ليضعها كحدث رئيس في مسرحيته الشهيرة (ريتشارد الثالث)، التي ندرك فيها أن هذا الأحدب - ريتشارد الثالث - الذي أسهم في الانتصار الذي حققه أخوه الملك إدوارد الرابع، يخفي في تطلعاته ونظراته، رغبته للفوز بالعرش. وفي هذا العمل يعود شكسبير إذًا إلى السلطة وأطماعها. حيث يردد ريتشارد مقولة مكيافيللي الشهيرة «الغاية تبرر الوسيلة»، ولهذا نجده في المشهد الأول يعلن عن رغبته في الزواج من أميرة ويلز خلال مشاركتها في جنازة زوجها، ويكثر من مؤامراته الشيطانية، بعد مؤامرته الأولى التي كانت

أدت إلى سجن جورج وقتله، ومؤامرته الثانية التي أدت إلى مقتل أمير ويلز، ابن هنري السادس. بيد أن ريتشارد يشعر ذات لحظة أن لورد هاستنغز لن يساعده، كما كان يأمل، بغية إيصاله إلى مبتغاه، وهكذا يأمر بقطع عنقه، ثم يستعين بالخطيب المفوه دوق باكنغهام لإقناع شعب لندن البسيط بأن العرش من حق ريتشارد، دافعًا هذا الشعب إلى التساؤل عن شرعية وصول إدوارد إلى العرش. فلا يكون من هذا الشعب إلا أن ينقلب ضد آل إدوارد مقدمًا العرش إلى ريتشارد الذي «يوافق» على اعتلاء العرش تحت اسم ريتشارد الثالث. وقد منعت مسرحية (ريتشارد الثالث) من التمثيل حيث أصدر الملك جيمس الأول قرارًا بمنع طبعها في كتاب، وبعد ما يقارب النصف قرن سيكتب برنارد شو على لسان مارتسون في مسرحية (بيجماليون): «وكان أحد المكيافليين الملعونين يحمل المصباح للشيطان برهة من الزمن».

في المقابل هناك من استمد إلهامه من كتاب (الأمير)، فقد كان نابليون يصطحب نسخة من الكتاب في معركة واترلو، ويقول كاتب سيرته إنه كان يتصفحها بين الحين والآخر حتى أن صفحات منها تهرّأت. واعترف أدولف هتلر باحتفاظه بنسخة منها، وأنه كان يضعها إلى جانب فراشه، ووصل الأمر بأن يجاهر زعماء المافيا الإيطالية بأنهم تتلمذوا على كتابات ماكيافيللي، حتى أن رجل المافيا الشهير جون جوتي قال إنه قرأ كتاب (الأمير) أكثر من خمسة وعشرين مرة. وقد كتب موسوليني في عام 1924م في (مقدمة لمكيافيللي) ليمتدح الفلورنسي مؤكدًا أن: «مذهب مكيافيللي حي اليوم أكثر مما كان قبل أربعة قرون».

وفي مقال مثير للفيلسوف الألماني أيزيا برلين يسرد عشرين تفسيرًا لكتاب (الأمير) مختلف واحد عن الآخر، ففي حين يصف برتراند رسل الكتاب بأنه «دليل لقطاع الطرق وأعضاء العصابات، نجد من يشيد بقدرة ميكافيللي على

فهم حقائق السلطة»، ويلخص برلين حالة التناقض التي عاشها ميكافيللي، فبرغم وضعه قواعد لكيفية وضع اليد على السلطة السياسية، نجده هو نفسه كان طريدًا لهذه السلطة التي جعلته يقضي سنوات طوال من حياته في عزلة وضيق حتى أنه يكتب في إحدى رسائله: «ويحي، ما أتعس حظي! لقد ولدت للشقاء والعناء، فلن أحصل على ما أريده قط».

***

في كتابها (عن الكُتّاب والكتابة) تكتب الروائية الكندية مارغريت أتوود أن شكسبير لم يكتب لعصر بعينه وإنما لكل العصور، وهو في مسرحياته يلعب دور الخالق والطاغية، وبسبب حساسية الموضوعات التي تناولها شكسبير في مسرحياته فقد تعرضت إلى المنع في العديد من البلدان.

في عصره - ولد شكسبير عام 1564م وتوفي عام 1616م - كان يُنظر إليه على أنه مجرد واحد من بين العديد من الكتاب المسرحيين والشعراء الموهوبين، ولكن منذ أواخر القرن السابع عشر كان يعتبر الكاتب المسرحي الأكثر إثارة للجدل عندما أخذت أعماله تفسر على أنها تحمل توريات سياسية وجنسية وأحيانًا عرقية، وبسبب بعض القوانين الصارمة تم حظر الأعمال الكاملة لوليام شكسبير في العديد من المدارس والمكتبات على مدار التاريخ. وقد عمدت الرقابة في بريطانيا عام 1818م بتكليف شخص وهو طبيب إنكليزي بإصدار نسخة سميت (صديق العائلة) من أعمال شكسبير، حيث تم فيها حذف أكثر من خمسين بالمئة من الصفحات، ولعل بعض الأمثلة على الحذف تثير السخرية ومنها عندما يشير هاملت إلى انتحار أوفيليا حيث استبدلت بأن موتها كان بسبب تعرضها لحادث غرق، كما تمّ حذف صفحات كثيرة من (مكبث)، وتمّ حذف كلمات مثل عاهرة وشيطان، كما

تمّ حظر (الملك لير) في المسارح البريطانية في الفترة من 1788 إلى 1820، احترامًا لجنون الملك جورج الثالث المزعوم. وتمّ حظر (مكبث) من قبل الملك جيمس لمدة خمس سنوات لأنه اعترض على ظهور الساحرات، واعتبر الحديث عن الجنس، والعنف، والسحر، من الأمور الضارة بالمجتمع البريطاني.

واتهمت مسرحية (تاجر البندقية) بأنها معادية للسامية، وتمت إزالتها من مناهج المدارس الثانوية في عدد من الولايات الأميركية، وفي عام 1931م قامت مجموعة من رجال الدين اليهود في نيويورك، برفع دعوى قضائية زاعمةً أن تخصيص المسرحية في أحد صفوف الأدب الثانوية العليا «انتهاك للحقوق المدنية» المتعلقة بأطفالهم للحصول على تعليمٍ خالٍ من التحيز الديني، وقد منعت المسرحية في ذلك التاريخ. في عام 1966م، أعلن ماو تسي تونغ عن «ثورة ثقافية»، وكان من أبرز قراراتها منع أعمال شكسبير بشكل كامل لأنها لا تلائم ثقافة الثورة كما أنها تشجع على العنف، وتؤسس لأيديولوجيا سياسية معادية حسب قرارات لجنة الثورة الثقافية، فجمعت أعمال شكسبير من معظم المدن الصينية وتمّ حرقها. واستمر الحظر حتى يوم 25 أيار عام 1977م حيث أعلن أن هذه الأعمال ستتاح لجميع المواطنين. وفي ولاية تكساس صدر عام 1950م قرار من وزارة العدل بمنع تداول وطبع مسرحيات شكسبير، ووضعت إلى جانب الكتب المحظورة والتي كانت أكثر من 12 ألف عنوان أبرزها أعمال جورج أورويل ونورمان ميلر وجون جريشام وجيمس باترسون وهنري ميللر ود. ه. لورنس، فضلًا عن رواية (عناقيد الغضب) للأميركي جون شتاينبك الحاصل على نوبل للآداب.

ومن بين المسرحيات التي حظرت في المدارس مسرحية (الليلة الثانية

عشرة) لأنها حسب قرار إدارة التربية «تشجع على المثلية الجنسية». ومنعت مسرحية (تاجر البندقية) في أونتاريو لأنها حسب قرار الولاية معادية للسامية كما تمّ منعها في ولاية ميشيغان في عام 1980م.

تمّ حظر هاملت في إثيوبيا في عام 1978م، وعادة ما يتم تقديم شكوى في المدارس الأميركية من قبل الآباء الذين يعترضون على تدريس مسرحيات شكسبير ضمن المناهج المدرسية، حيث ظلت مسرحية (روميو وجولييت) هدفًا للرقابة في المدارس العامة في أميركا لأنها تشجع على ممارسة الجنس في سن المراهقة، وتمجّد الانتحار في سن المراهقة، وتدعو إلى عصيان السلطة الأبوية.

في كل مساء يعود شكسبير إلى منزله، وبعد أن يفرغ من تناول طعام العشاء، يدخل إلى غرفة مكتبه، ثم ينظر إلى صورة ميكافيللي التي يضعها على المكتب، ويمد يده يتحسس صورة يوليوس قيصر، ليدخل بعدها إلى عوالم الملوك والمؤامرات، ويبدأ يُغذي نفسه على هذه الأفكار. ثم يبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع صور الملوك والأباطرة المعلقة في غرفة المكتب، مستفهمًا منهم عن الدوافع وراء أعمالهم. وقد حوّل شكسبير هذه الأحاديث فيما بعد إلى مسرحيات تشرح لنا جنون السلطة، وسعي الإنسان إلى السيطرة على كل شيء، وعن الحب الضائع وسط الدسائس والخيانات، وعن الشر الذي ما أن يترك له العنان حتى يسيطر على النفوس. وكان في كل هذا ينظر إلى مكيافيللي كأبرز وأشهر معلم في فلسفة السياسة.

***

ولِدَ نيقولا مكيافيللي في أيار عام 1469م وهو الابن الأكبر لبرنارد ميكافيللي وسيكتب فيما بعد: «ولدتُ فقيرًا وتعلمتُ في عمر مبكر ألا أنفق

سوى أقل القليل بدلًا من أن أعيش في ترفٍ»، ويشير كتاب سيرة ميكافيللي أن هذا الزعم ينطوي على نوع من المبالغة، صحيح أن والده لم يكن ثريًا، لكنه عاش في منزل كبير، كما أنه اقتنى مزرعة خارج فلورنسا، وكان والده يعمل موثقًا قانونيًا، وتربطه علاقات بعدد من رجال البلاط، وعُرف بشغفه باقتناء الكتب، كان يهوى الأعمال الأدبية الكلاسيكية، ويردد أمام ابنه الصغير مقولات لأفلاطون وأرسطو وشيشرون. ويبدو أن الأب المحب للقراءة كان قد قرر أن ينعم ابنه بفوائد الثقافة الإنسانية التي كانت مزدهرة في فلورنسا آنذاك، على الرغم من التكاليف المالية التي قد يتكبدها، بدأ الابن وهو في سن الرابعة يتعلم اللاتينية، وبعدها بعام كان يدرس علم الحساب، وبعد عيد ميلاده الثامن انتظم في دروس خاصة بالأدب على يد كريستوفر لاندينو، الذي اشتهر بتفسيرات لكتاب دانتي (الكوميديا الإلهية)، بعدها التحق في ستوديو فيورنتينو، وهي جامعة صغيرة. كان مكيافيللي يتمتع بصفات جسدية غير جذابة إذ كان نحيل القوام ذا شفتين رفيعتين وذقن صغير ووجنتين غائرتين وشعر أسود قصير، وكان ذكاؤه الحاد وميله إلى حياة الصخب يتناقض مع مظهره المتقشف، وقد عُرف عنه نهمه للقراءة وولعه بلعب القمار وفي الجامعة اشتهر باسم «ميكا» وهي تورية لكلمة إيطالية، تعني لطخة أو بقعة إشارة إلى الضرر الذي يحدثه لسانه اللاذع.

في الجامعة درس البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة، وكانت قصيدة الفيلسوف الروماني لوكريشيوس التي تحمل عنوان (طبيعة الأشياء)، أحد النصوص التي درسها وأثّرت به كثيرًا، وقد أعجب بالحجة الرئيسة للوكريشيوس القائلة بأنه ينبغي التخلص من الخوف والخرافات الدينية باستخدام العقل والتعمق في دراسة الآليات الخفية للطبيعة البشرية.

في الجامعة انهمك مكيافيللي في دراسة الشعر والفلسفة، وقد جمع ثلاثة من أعماله التي كتبها آنذاك في ديوان شعر مزوّد بلوحات للرسام بوتيشيللي، وفي تلك السنوات يتتلمذ على يد مارسيلو أدرياني الذي كان شديد الإعجاب بمواهب تلميذه، وتشاء الصدف أن يتولى أدرياني منصب المستشار الأول للبلاد، ويتذكّر الأستاذ تلميذه الموهوب، فيقرر أن يُعيّنه في الهيئة الاستشارية الدبلوماسية، ليجد نفسه في صيف عام 1498م موظفًا حكوميًا، وقد أثبت مهارة في وظيفته مما دفع البلاط لتعيينه رئيسًا للجنة الاستشارية، وبهذه الصفة جرى تكليفه بمهام تتعلق بالعلاقات الخارجية لفلورنسا، فذهب في مهمة إلى بلاط لويس الثاني عشر، وكانت هذه المرة الأولى التي يجري فيها حوارًا مع أحد الملوك، وقد ظل في البلاط الفرنسي ستة أشهر، وعاد إلى فلورنسا بعد أن أرسل له مساعده برقية يُخبره فيها بأنه: «إذا لم تعد أدراجك فسوف تفقد مكانك في البعثة الدبلوماسية».

وفي عام 1501م يتزوج ماريتا كورسيني التي أنجبت له ستة أبناء، ويبدو أنها احتملت خياناته المتعددة. بعدها يُرسل في مهمة إلى روما لمتابعة اختيار بابا جديد بعد وفاة البابا ألكسندر السادس، وهناك أعجب بشخصية البابا الجديد يوليوس الثاني، لكنه سرعان ما بدأ ينفر منه بسبب قراراته الخاصة بالحرب، فكتب لأحد مساعديه ملاحظة تقول إن البابا الجديد على ما يبدو قد كلفه القدر ليدمّر العالم، كانت هذه الملاحظات تؤكد اهتمام مكيافيللي بما يجري في غرف السياسة، حيث بدأ يسجل أحكامه في رسائل إلى أستاذه مارسيلو أدرياني. وبحلول عام 1510م وبعد عدة جولات في الخارج كان مكيافيللي قد توصل إلى رأي نهائي بشأن معظم رجال الدولة الذين التقاهم، لكن رأيه في البابا يوليوس الثاني ظل محيّرًا، فمن ناحية كان إعلان البابا الحرب على فرنسا يبدو استهتارًا جنونيًا بالنسبة لمكيافيللي، لكنه في الوقت

نفسه كان يأمل أن يثبت البابا أنه المنقذ لإيطاليا وليس نكبتها المنتظرة، ويبدو أن مخاوفه قد تحققت فبعد أربع سنوات زحف الجيش الإسباني باتجاه إيطاليا، لتجد فلورنسا نفسها محتلة، والنظام الجمهوري يُحل. وفي السابع من تشرين الأول عام 1511م طُرد مكيافيللي من الوظيفة وحُكم عليه بالسجن لمدة عام، ثم في شباط عام 1513م تلقى أسوأ ضربات القدر على الإطلاق، إذ اتهم بطريق الخطأ أنه شارك بمؤامرة ضد البلاط.

وبعد أن تعرّض للتعذيب، حُكم عليه بالسجن ودفع غرامة مالية كبيرة، وقد عبّر عن ذلك فيما بعد حين أهدى كتابه (الأمير) إلى عائلة مديتشي الحاكمة قائلًا: «إن خبث القدر الهائل والمعهود أطاح بي بلا رحمة»، ولم تمضِ فترة سجنه طويلًا حيث أعلنت الحكومة العفو، فخرج مكيافيللي من السجن، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته هدفها الأول تبرئة نفسه من التهم الموجهة إليه. ومع الانتهاء من كتابه (الأمير) تجددت آماله في العودة إلى موقع حكومي مؤثر، وكتب إلى صديقه فيتوري أن منتهى تطلعاته أن يجعل من نفسه: «نافعًا لحكامنا حتى إذا بدأوا بتكليفي بدحرجة حجر»، إلا أن محاولاته خابت، ونجده يتخلى عن كل أمل في العودة إلى العمل الحكومي: «إنني سأضطر لأن أظل أحيا هذه الحياة البائسة، دون أن أعثر على رجل واحد يتذكر خدمة قدمتها أو يعتقد أنني قادر على فعل أي خير»، ونجد مكيافيللي في هذه السنوات يتجه بحماس إلى الكتابة، فأنجز كتابه الشهير (المطارحات)، بعدها بدأ بكتابة تاريخ فلورنسا، وتفرغ لكتابة (فن الحرب)، وبدا أن فرصته في العودة إلى الوظيفة الحكومية قد لاحت بسبب تغيير نظام الحكم، لكن اسمه لم يذكر ضمن الأسماء التي رُشّحت للعمل في الجمهورية الجديدة، وكان في ذلك ضربة كبيرة لطموحاته، ما أدى إلى إصابته بالمرض، وقد شكا لزوجته من آلام في قلبه التي لم تمهله طويلًا، حيث توفي في الثاني

والعشرين من عام 1527م وقد كُتب على شاهدة قبره «لا يبلغ المدح شأو ذلك الاسم نيقولا مكيافيللي».

يتألف كتاب (الأمير) من ستة وعشرين فصلًا، ويبدو الكتاب محاولة من مكيافيللي لاستعراض مهاراته بوصفه محللًا سياسيًا، ونراه يصرّ منذ الصفحات الأولى على أن كتابه هذا جديد في منهجه، أراد من خلاله حسب قوله أن يقدم قوائم من الفضائل والوصايا التي على الأمير أن ينفذها ونراه يؤكد أن نهجه في السياسة يختلف عن نهج من سبقوه، فالآخرون وفق ما قاله في (الأمير) تناولوا الجمهوريات التي لم يكن لها وجود في أي مكان على وجه الأرض، لكنه على خلاف من ذلك يناقش الواقع الفعلي للأشياء، ولهذا نراه يؤكد أن الأمير الذي يسعى وراء حب رعاياه بدلًا من أن يجعلهم يخافونه، لا بد أن يفقد موقعه، وهو يرى أن على الحاكم أن يتصرّف كأسد قوي وحاسم وكثعلب ماكر ومراوغ في أحيان أخرى، وهو يصر على أن الأمير لا يسعه أن يتقيّد بدواعي المُثل الأخلاقية المعتادة، إن أراد أن يؤدي دوره أداءً سليمًا. وباختصار نرى مكيافيللي يواجه قرّاءه منذ الصفحات الأولى بنظرية تقول إن الجهود المخلصة لامتلاك ناصية المعتقدات الأخلاقية التقليدية وتطبيقها، لن تؤدي إلى ظهور حاكم مُطاع. فالأمور السياسية حسب وجهة نظر مكيافيللي تحتاج إلى أحكام خاصة بها.

ولعل أبرز فصل من فصول الكتاب، هو الذي يحاول فيه مكيافيللي أن يحدد نطاق حرية البشر في القيام بعمل. حيث يرى ميكافيللي أن الثروة كانت لها سلطات قوية على الإنسان، فهي من حين لآخر تكتسح مثل النهر كل شيء أمامها وتدمّر المؤسسات كافة التي استطاع الناس اختراعها لحماية أنفسهم وحفظ النظام، ويضع وصفًا مثيرًا للثورة بأنها مثل فاتنة متقلبة المزاج تبدّل أوضاع الملعب تمامًا فتعمل على الإبطاء في التكنيك السليم، وهو يرى

أن النجاح والفشل في الحكم لا يتمُّ اكتسابهما بحسن السلوك، بل هما شيئان يتم انتزاعهما بالقوة من بين يدي عالم لا يتسم بالعاطفة، وفي مكان آخر يرى مكيافيللي أن الناس لهم سمات ثابتة على الدوام شجاع أو جبان، فالأوضاع قد يصلح لعلاجها أسلوبُ معيّنٌ من العمل أحيانًا، وقد يصلح أسلوب آخر في أحيان أخرى، لكن لا أحد يستطيع دائما أن يتزيّا بزي واحد لأزمنة تتغير وتتبدل.

20

سعادة الإنسان تكمن في ازدياد حريته

كان في الثامنة من عمره عندما شاهد هذا المنظر الذي دفع به إلى أن يتمرد على النظام الاجتماعي والديني السائد آنذاك، كان المشهد في باحة المعبد اليهودي بأمستردام، حيث أخذ عدد من رجال الدين يطؤون بأقدامهم رجلًا كان ممدًا عند مدخل باب المعبد.

فسأل الصبي والده: ماذا فعل هذا الرجل ليتلقى هذا التعذيب والإهانة؟

قال الأب وهو يسحب ابنه خارج المعبد: «إنه أوريل أكوستا.. مفكر حر يا ولدي»، ثم أخذ الصبي يسأل والأب يجيب ويشرح لابنه كيف تم طرد أكوستا من المجمع اليهودي، لأنه كان يشكك بما جاء في التوراة، وكيف أن الحاخامات يريدون أن يستأصلوا خطايا أكوستا بالدوس عليه بأقدامهم لكي يتخلص من ذنوبه، ويُسمح له من جديد بدخول المعبد.

عندما عاد الصبي إلى البيت، حاول أن يشرح لأمه كيف تم تعذيب أوكاستا، فنصحته بأن يمسح هذه الأفكار من ذهنه، وعندما حاول أن يخبر زملاءه في المدرسة عما رآه في المعبد تلقى صفعة من الأستاذ الذي طلب منه ألا يتحدث بسوء عن الدين. بعد أيام سَيخبره والده إن أوكاستا أطلق الرصاص على نفسه، بعد أن سعى رجال الدين لمضايقته وإهانته في كل مكان.

بدأ الصبي يفكر في ذلك العالم الغريب، عالم الحمقى الذي سيسميه فيما بعد، وبدا له أن الإنسان يحاول أن يصيب الإنسان الآخر بأذى. ولاحظ كيف يكره اليهود بعضهم بعضًا، وكيف طُرد أجداده من إسبانيا بسبب كراهية المسيحيين لليهود، لذلك كتب في دفتر صغير عبارة مثيرة: «عندما أكبر، سأحاول أن أجد وسيلة أضع بها حدًا لكره الناس بعضهم بعضًا».

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1632م في أمستردام بهولندا جاء طفل لعائلة يهودية ميسورة، قالت عنه أمّه فيما بعد: «طفلي مخلوق حسن النيّة، لكن مستوى ذكائه للأسف أقل من أقرانه، وهو خامل طوال الوقت». عاش باروخ إسبينوزا في طفولته وصباه حياة عادية، فوالده ميخائيل تاجر ميسور، سعى إلى أن يتعلّم ابنه في إحدى المدارس الدينية، ويدرس الكتب المقدسة وكتبًا دينية وفلسفية، حيث كان الأب يطمح في أن يصبح ابنه حاخامًا، لكنه يخيب ظن الأب. ففي الثالثة عشرة من عمره عثر في مكتبة المدرسة على كتاب (التأملات) لرينيه ديكارت، وما أن قرأ الصفحات الأولى حتى وجد نفسه مسحورًا بأفكار الفيلسوف الفرنسي. فيما بعد سَيخبرنا أنه وجد في كتب ديكارت أجوبة لأسئلة كان يطرحها على نفسه حول أهمية العقل في حياة الإنسان: «علمني ديكارت أن أعرف معنى الجديد، ووجدت في توطيد الجديد ما يقضي بدحض القديم، لا ينفصل الجديد المعرفي عن الحاضر الذي يقضي بتحرير المعرفة من أزمتها، ويسعى إلى إطلاق الإمكانيات الإنسانية»، عندما يبلغ السابعة عشرة من عمره يقرر إسبينوزا أن يضع كتابًا عن ديكارت، ويعلن أن سلطة أفلاطون وأرسطو لا تعني له شيئًا، فهي حسب رأيه لا تلائم تقدم العلم والفلسفة: «أعلم حقيقةً أن هذه الأحكام المسبقة تمنع البشر من التفلسف، واعتقد أن من المفيد أن أقوم بفضح هذه الأحكام، وأن أخلِّص منها العقول المفكرة»، وقد جعلت

دراسته لمنهج ديكارت من المستحيل عليه قبول كل عبارات التوراة، وأيضا تفسيرات رجال الدين، حيث بدأ يفكر بعلاقة الإنسان بالدين والعلوم بطريقة تخالف ما تعرف عليه في وجهة نظر اليهود والمسيحيين التقليدية.

وقد أعلن مواقفه بطريقة صادمة لعائلته، الأمر الذي دفع شقيقته الكبرى، والتي كانت تريد أن تحرمه من إرث والده، أن تبلغ السلطات الدينية اليهودية عن «هرطقات» شقيقها، مما دفع كبير الحاخامات في أمستردام لاستمالة إسبينوزا الشاب، حيث أبدى استعداده لأن يقدم له معاشًا شهريًا ثابتًا لو أنه احتفظ بآرائه لنفسه، ولم ينشرها بين الناس، غير أن الشاب المتحمس رفض العرض، الأمر الذي دفع الحاخامات إلى إصدار قرار بمنع جميع اليهود من أن تكون لهم علاقات معه، وأن لا يقرأوا له شيئًا، وأن لا يقتربوا منه، وحاول متعصب يهودي أن يقتله، فطعنه بسكين أحدثت جرحًا عميقًا في جسده، ظل يتذكره في كل مرة يقف فيها ضد تعاليم رجال الدين. وهكذا أصبح وهو في الرابعة والعشرين من عمره منبوذًا، حيث قرر مجلس الحاخامات طرده من الطائفة اليهودية كما أصبح بلا مورد مالي بعد أن حُرِم من ميراث والده، فامتهن صقل العدسات البصرية، وهي المهنة التي ظل يمارسها حتى وفاته، واضطر أن يغادر مدينته أمستردام، وتجول في عدد من المدن، ليستقر أخيرًا في مدينة ليدن، حيث يعاوده الحنين إلى الفلسفة التي كرس لها كل حياته، وقرر أن يغير اسمه إلى بندكت، كي يبتعد عن ملاحقة رجال الدين، مثلما قرر ألا ينشر أثناء حياته سوى كتابين، الأول قام بجمعه طلبته وهو يتعلق بفلسفة ديكارت، والثاني رسالة في اللاهوت والسياسة، لم يضع اسمه الصريح عليها في بداية الأمر لخطورة ما جاء بها من أفكار.

وأصبح بمرور الزمن معروفًا في الأوساط الفلسفية، حيث عرضت عليه جامعة هيدلبرغ منصب الأستاذية، لكنه رفض المنصب وأصر على

الاستمرار بمهنة صقل العدسات، وقدم له لويس الرابع عشر معاشًا بشرط أن يهديه أحد كتبه، فرفض العرض أيضًا، وصمّم أن يستمر بحياته البسيطة التي كانت تؤمن له دخلًا متواضعًا، لكنها تساعده في التعبير عن معتقداته دون تحفظ. وذهب إليه الفيلسوف الألماني ليبنتز ليزوره في بيته الصغير، وكان شغوفًا بفلسفته بصورة مفرطة، فليبنتز يعترف أنه توصل إلى بعض الأفكار الرئيسة لفلسفته الخاصة عندما قرأ إسبينوزا، ويكتب ليبنتز وصفًا لإسبينوزا قائلًا: «التقيت الأستاذ، كان رجلًا متواضعًا يعيش في مستوى الكفاف، لا يملك سوى مكتبة كبيرة وأدوات يصقل بها العدسات، زاهد في الملذات، كان بإمكانه أن يملك كل الوسائل التي تكفل له ثراء هائلًا، لكنه تركها بمحض إرادته، فقد كرس حياته للبحث وراء شيء مختلف».

ولما كان إسبينوزا قد ولد ضعيف البنية، وكان في أواخر حياته مجبرًا على استنشاق الغبار من صقل العدسات، ونظرًا لأن العمل الزائد قد أجهده، فقد أصيب بالسل، وتوفي في سن الخامسة والأربعين.

***

في العام 1644م كتب الشاعر الإنكليزي جون ميلتون كتيبًا صغيرًا بعنوان (خطاب جون ميلتون إلى البرلمان الإنكليزي حول حرية الطباعة دون رقابة)، والمقال يعد أول وثيقة حقيقية للدفاع عن حرية النشر. يكتب ميلتون: «القضاء على كتاب جيد يعادل قتل إنسان تقريبًا، بل هو أسوأ أيضًا بشكل ما، لأن من يقتل رجلًا يقتل كائنًا مفكرًا صَوّره الله، لكن من يقضي على كتاب جيد يقتل الفكر ذاته - أكاد أجزم - على جوهر تلك الصورة الإلهية». صدر كتيب جون ميلتون بهدف معارضة قرار البرلمان الإنكليزي عام 1643م بتجديد الرقابة على المطبوعات، وفيه نجد للمرة الأولى حديثًا

صريحًا عن قضية حرية التعبير، وكان ميلتون في الكتاب يسعى لفضح الأساقفة ومعهم القائمون على إدارة الكنيسة باعتبارهم نموذجًا سلبيًا يريد قمع حرية الفكر. كان ميلتون قد سافر عام 1638م إلى إيطاليا ليلتقي غاليليو العجوز، سجين محكمة التفتيش، وطالب آنذاك بإلغاء محاكم التفتيش واتهم الرهبان «الشرهين الجهلة»، بأنهم يقفون في وجه تقدم أوروبا. ويذهب ميلتون في محاججته بعيدًا حين يقول إنه ليس من المناسب حتى منع طباعة ونشر الكتب التي قد تبدو أحيانًا مضادة لمصلحة الدولة أو الكنيسة، لأن الرقابة قد ترتكب الخطأ، إذ تجازف مثلًا بأن تجد نفسها في مواجهة أفكار تكون من القوة والجدة والرفعة، بحيث قد تبدو في نظر الرقابة مناهضة للمبادئ الأخلاقية أو الدينية، ثم يتبيّن العكس. ويعطي ميلتون مثالًا عن محاكمة غاليليو: «هذه المحاكمة ندّدت بالعالِم وأجبرته على التراجع عن أفكاره، لكن ها هو اليوم بعد سنوات قليلة يعتبر أحد كبار العلماء الذين أنجبتهم البشرية، وها هي أفكاره تعتبر صحيحة وثابتة علميًا»، ويذكر ميلتون كيف أن محاكم التفتيش لم تحاكم فكر غاليليو بقدر ما حاكمت جرأته وتطلّعه إلى المستقبل، وقوته الثورية، ورغم أن ميلتون خسر معركته في ذلك الوقت وصدر قرار بمنع الكتيب الخاص بحرية الطباعة، إلا أن الأفكار التي طرحها وجدت صداها في باريس حيث ترجم ميرابو خطيب الثورة الفرنسية كتاب ميلتون ونشره عشية الثورة الفرنسية، واستخدمته كتائب المقاومة الإيطالية ضد الفاشية في فضح نظام موسوليني، حيث ترجم الكتاب إلى الإيطالية ووزعت منه عشرات آلاف النسخ.

كتب الناقد الإنكليزي الشهير ريتشاردز في مديح جون ميلتون: «لكي تكون شاعرًا عظيمًا، ينبغي أن تكون رجلًا عظيمًا». وطوال حياته التي استمرت ستة وستين عامًا ظل جون ميلتون مقاتلًا شرسًا في الخطوط الأمامية من معركة الحرية الإنسانية، فقد كرس ميلتون المولود في التاسع

من كانون الأول عام 1608م حياته للعدالة، وجرب أن يجعل من الشعر وسيلة من أجل الدعوة إلى الحق. كان ابنًا لأحد رجال القانون، عاش طفولة مرفهة، أُرسِل إلى مدرسة دينية، لكنه اكتشف منذ الصغر ميلًا إلى الأدب وقراءة النصوص الكلاسيكية، يكتب في يومياته: «كنت منذ سنواتي الأولى بفضل عناية أبي، دائم الاطلاع على اللغات وبعض العلوم التي تسمح بها، لقد وجهني أبي منذ حداثة صباي الباكرة لدراسة الآداب الإنسانية التي كنت استوعبها بلهفة عظيمة». في سن السادسة عشرة من عمره التحق بجامعة كيمبردج ومن هناك يعلن لأساتذته أنه يرفض «المعلومات التافهة الحمقاء»، التي يحاول الأساتذة حشرها في عقول الطلبة والتي تسبب «جوعًا في الروح». في تلك السنوات بدأت تجاربه الأولى في الشعر، ورغم أن أباه أراد له أن يصبح قسًا، إلا أن ميلتون رفض الأمر لأنه يريد «التحليق في سماء الأحلام، وإشباع رغبته في أن يسمع نفسه وهو يفكر ويتأمل»، وكان يطمح أن يكتب ملحمة شبيهة بملحمة دانتي (الكوميديا الإلهية)، فسافر إلى إيطاليا وهناك يُغرق نفسه في شعر دانتي وبترارك، لكنه ما أن يسمع أنباء التوتر السياسي في بلده حتى يسرع بالعودة إلى لندن، ووجد أن النزاع بين الملك آرثر والبرلمان قد اشتد، وكان معظم النواب يطالبون بإجراء إصلاحات سياسية واجتماعية، ووجد ميلتون نفسه ينضم إلى معسكر الإصلاحيين الذي تغلب وقضى على الملكية بإعدام الملك شارل الأول عام 1649م. وخلال فترة حكم كرومويل راح ميلتون يكتب مقالات تدعو إلى الإصلاح الديني والسياسي وتطالب بحرية الفكر، وفي تلك المقالات أكد ميلتون أن القوة تكمن دائمًا في الشعب، ويضيف أن الشعب يودع ثقته إلى حاكم يختاره وفي حالة انحراف الحاكم فإن الشعب مخول أن يسحب ثقته من ذلك الحاكم. وفي عام 1651م كان ميلتون يشرف على أهم جريدة حكومية وأصدر كتابًا بعنوان (دفاع عن الشعب الإنكليزي)، وفيه يوجه هجومه ضد «الصرافين

الذين يدنسون معبد الدين، رجال فرض عليهم أن يكونوا رعاة القطيع، فأباحوا لأنفسهم أن يصبحوا ذئابه، وبدلًا من أن يطعموا شعبهم، غدوا يعيشون على دماء هذا الشعب».

وقد حظي الكتاب باهتمام من القراء حيث طبع خمس عشرة طبعة خلال عام واحد. في تلك السنوات بدأ بصره يضعف بسبب انهماكه في القراءة والكتابة. وبعد وفاة كروميل تم القضاء على الحكم الجمهوري وسرعان ما تولى شارل الثاني العرش، وألقي القبض على ميلتون حيث أودع السجن وحكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم، بعدها استطاع أحد الشعراء من أنصار الملكية أن يتوسط ليطلق سراحه. يذهب إلى بيته يعيش في عزلة مطلقة، فقد رأى وطنه ينهار من جديد. وفي هذه السنوات تفرغ لإكمال ملحمته (الفردوس المفقود) وهو في الخمسين من عمره، ففي هذه السنوات فقد بصره وبعدها زوجته وابنه الوحيد، وبسبب هذه المآسي توقف ليسأل نفسه لماذا أصيب بكل هذه الكوارث وهو الإنسان الملتزم المؤمن بقضية شعبه، ولهذا يذهب العديد من الباحثين إلى القول إن ميلتون كتب (الفردوس المفقود) في محاولة للرد على شكوكه لحظة في إنسانيته، والتعبير عن قدرة الإنسان الكبيرة على صنع الخير.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

يجمع مؤرخو الفلسفة على أن إسبينوزا هو فيلسوف التنوير الأول، قبل أن تظهر حركة التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر، فهو الذي عاش قبل مئة عام من ظهور فولتير وروسو، كان قد واجه رجال الدين وسلطة الدولة في ظروف أشد صعوبة وخطورة. لقد تجرّأ إسبينوزا على نفي الطابع الخارق للمقدسات، في وقت كان فيه رجال الدين يسيطرون على أوروبا، ومع ذلك

تجرّأ هذا الرجل المنبوذ من قومه لأن يقول بوضوح إن الكتاب المقدس له طابع تاريخي وبشري أيضًا، ويُصر على نفي المعجزات، ولا يعترف إلا بما يمليه العقل على الإنسان. كل ذلك في كتاب لم يتجرأ ناشره وكاتبه على وضع أسمائهم الحقيقية عليه، كتاب مثّل ثورة في تاريخ الفكر البشري، ثورة دشنت العصور الحديثة ومهّدت لها، وقد ظهر تأثيره البارز على الفيلسوف الإنكليزي جون لوك وخصوصًا في كتابه (مقال عن العقل البشري) الذي أكد فيه إيثار العقل على الوحي عند التعارض بينهما، وكان إسبينوزا قد أكد في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة) الذي صدر عام 1670م أن مهمة الفيلسوف هي في محاربة ما أسماه «الخوف الخرافي»، لأنه يسلب الإنسان وجوده الحقيقي الذي يليق به في الحياة، ولهذا يواجه إسبينوزا المؤسسات الدينية مطالبًا بمجتمع إنساني حر، والدعوة إلى إله حقيقي يتآلف مع المعرفة والتسامح ولا يروّع أحدًا، وبتقصير المسافة بين المتدين العاقل والفيلسوف عن طريق دين يصوغه الفلاسفة، دين يأخذ بمبادئ الأخلاق ويرى الله مرجعًا للفضيلة والإحسان، لا مرجعًا للحساب والعقاب.

كان إسبينوزا في الثامنة والثلاثين من عمره عندما خاض معركته الكبيرة في تحرير العقل من الخرافات، وتحديد العلاقة بين الدين والسياسة، أو بين رجال الدين ورجال الحكم. ويضع إسبينوزا هدفًا أوليًا لكتابه يؤكد فيه أن حرية الفكر لا تتعارض مع الإيمان الصحيح فـ «إيمان يقوم على البحث الحر خير من إيمان يقوم على العادات والتقاليد الموروثة»، والغرض الثاني من الكتاب هو أن حرية التفكير شرط لتحقيق الأمن الداخلي في البلدان، فالدولة حسب مفهوم إسبينوزا تضع التشريع للأفعال لا للأقوال أو الأفكار، فللمواطن أن يعبد الله بالطريقة التي يراها تناسبه، وله الحرية في أن يتصوره كما يريد.

وفي (رسالة في اللاهوت والسياسة) يضع إسبينوزا العقل في مرتبة متقدمة ويكفل له التحرر من كل سلطة، ونجده يخضع لحكم العقل حتى الكتب المقدسة إذ اعتبرها شبيهة بالوثائق التاريخية، وبسبب إيمانه الشديد بالعقل نجده ينكر الخوارق والمعجزات التي جاءت بالتوراة والإنجيل. وبسبب هذه الآراء الصادمة لوحِق إسبينوزا في حياته ومماته، حيث تمّ حرق كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة) ومنِع من الطبع، واضطر الناشرون أن يغيروا اسم الكتاب ومؤلفه ليعيدوا طبعه بسبب إقبال الشباب عليه، ولم يقف سخط السلطات الدينية على إسبينوزا في حياته، بل استمر بعد مماته، ففي عام 1880م اقترح أن يقام له تمثال في مدينته أمستردام، فاحتج المجمع اليهودي ومعه الكنيسة على المشروع وألقى أحد رجال الدين خطبة أكد فيها أن كارثة ستصيب المدينة لو وضع التمثال بسبب غضب الله وسخطه.

لقد كان إسبينوزا يعتقد أن ليس ثمة رضا، ولا أمان دائمًا في الثروة والشهرة، أو التعلق في حب أي شيء زائل، فالخير هو في تحريك العقل بالاتجاه الصحيح. يصر إسبينوزا على أن يجمع ما لا تقبل به الفلسفة، ولا يقبل بالفلسفة في مصطلح واحد هو «الخرافة»، وهو يقيم فكرة الخرافة على مبدأين أساسيين يوضحهما بقوله: «يولد البشر جميعًا جاهلين بأسباب الظواهر التي يتعاملون معها، وتحكم البشر جميعًا رغبة في البحث عن المفيد، ويخترق الحاجة المفيدة عقل قاصر يلقي بالإنسان في أوهام متعددة، منها أن البشر ليس بمقدورهم أن يديروا أمورهم وفق خطة واعية». وقد أصرّ إسبينوزا على أن الخرافة تفسد الأديان، لأن الدين ليس خرافة، قابلًا من الدين الحقيقي قيمهُ التي تعلي شأن الحياة، ونراه يصر على إرجاع الخرافة الدينية إلى الجهل بقوانين الطبيعة وإلى أغراض سياسية، إذ أن كل خطاب ديني حسب رأي إسبينوزا هو خطاب سياسي، غايته الطاعة والخضوع، ويرى إسبينوزا

أن الدين الذي يتأسس على الجهل والعبودية ينطوي على حالات كثيرة من التعسف والإرهاب، بسبب إصرار رجال الدين على أنهم يحتكرون الحقيقة لوحدهم، ونراه يؤكد على أن ثنائية الجهل والإرهاب الديني تمنع الفيلسوف عن التفلسف، وتقمع كل العقول الحرة التي تتطلع إلى المعرفة، ولهذا يمثل الدفاع عن الفلسفة عند إسبينوزا دفاعًا عن حرية التعبير، وهو أيضًا يتحول إلى إقامة دولة تنقض الخرافة بالفلسفة، وتستبدل الوعظ الديني، بتسامح المعرفة. وينتهي إسبينوزا إلى أمرين ضروريين: الأول أهمية تحرير الإنسان من سلطة رجال الدين، والثاني العمل على تحرير الدولة من السلطة الدينية.

21
أولئك الباحثون عن الأفكار الغريبة والأنباء العجيبة

«من يريد إقناع الآخرين يجب أن يكون مستعدًا لتحويل كلماته لأفعال». كانت هذه الكلمات تعيش معها، منذ أن سمعتها أول مرّة من رفيق رحلتها في الحياة والفلسفة جان بول سارتر. آمنت سيمون دي بوفوار أن الإنسان حر في اختيار مشروعه الذي يتطلع إلى تحقيقه، والذي من خلاله يحقق وجوده ويثبت حريته. وبما أن حرية الإنسان هي أساس كل القيم، فهي أيضًا مصدر القانون والواجب والحق.

وعلى أساس هذه القضية الرئيسة استطاعت سيمون دي بوفوار أن تتناول قضية المرأة التي كرست لها كتابًا يعد من أهم مؤلفاتها وأحبها إلى نفسها، هو كتاب (الجنس الآخر)، الذي صدرت طبعته الأولى في فرنسا عام 1949م، وأثار عاصفة من الاحتجاجات، وبسببه انهالت على سيمون دي بوفوار كتابات تصفها بأبشع الأوصاف، ووضع الفاتيكان الكتاب ضمن قائمة الكتب المحرمة، وكتب ألبير كامو مقالًا اعتبر فيه الكتاب رسالة سخرية صوّرت الرجل الفرنسي بشكل سيء، وقال الكاتب الشهير فرانسوا مورياك: «لقد وصلنا فعلًا إلى حدود الوضاعة»، كما هاجمه الحزب الشيوعي الفرنسي الذي اعتبره «إهانة للمرأة العاملة». في حين وصفت فرانسوا ساغان الكتاب الذي قرأته عندما كان عمرها 15 عامًا، بأنه واحد من الكتب العظيمة القليلة في زمننا، وفي عرضها للكتاب ذكرت المجلة

الشهيرة (أتلانتيك) أن الكتاب يتلاءم جدًا مع الوجودية المثيرة للاشمئزاز، إلا أن الكتاب حقق نجاحًا هائلًا في الأسبوع الأول لصدوره حيث نفدت جميع النسخ المطبوعة والتي تجاوزت الخمسة وعشرين ألف نسخة، وعندما صدرت ترجمته الإنكليزية بيعت منه مليونا نسخة، كما تصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في اليابان لمدة سنة كاملة، وأصبح الكتاب المرجع الأساسي لرائدات تحرير المرأة في أوروبا وأميركا.

عند صدور (الجنس الآخر) كان عمر سيمون دي بوفوار سبعة وثلاثين عامًا، وكانت هذه المرّة الأولى التي تتجرأ فيها كاتبة على المطالبة ليس فقط ببعض الحقوق ولبعض النساء وإنما طالبت بمساواة المرأة كليًا بالرجل وإن كلمتها المشهورة: «لا يولد المرء امرأة بل يصبح كذلك» تحولت إلى أيقونة لحركة الدفاع عن حقوق المرأة.

كانت سيمون دي بوفوار المولودة عام 1908م، ابنة لعائلة ميسورة الحال، والدها أرستقراطي يعشق البرجوازية حسب تعبيرها، أما والدتها فامرأة متدينة، أعطت لابنتها تربية جادة وصارمة وثقافة دينية وشعورًا حادًا بالواجب «لا يعرف المماطلات والتنازلات». كانت لها شقيقة واحدة، وصديقة واحدة أيضًا، في البيت لم تجد حولها سوى الملل، فاشتّد إحساسها بالوحدة وذات يوم قالت لأمها: «هل يمكن أن تسير الحياة كما تسير الآن؟ ملل وراءه ملل»، بعد سنوات تقرأ الجملة المثيرة لفيلسوف الوجودية الأول كيركجارد: «علينا أن نعيش حياتنا مهما كانت تعيسة أو مفرحة، لأنها محسوبة علينا»، منذ تلك اللحظة قررت أن تعيش حياتها، لأنها «لن تعيش سواها»، واكتشفت أنها تستطيع أيضًا أن تصنع حياتها بنفسها. تكتب في (مغامرة الإنسان): «إذا لم أكن أكثر من بدن، ومجرد مكان تحت الشمس واللحظة التي تقيس أنفاسي، فهأنذا قد تحررت من جميع الهموم والمخاوف، والخسارات.

لا شيء يثير انفعالي، لا شيء يهمني. إني لن أتعلق إلا بتلك الدقيقة التي تملأ حياتي».

تصر سيمون دي بوفوار في كتابها (الجنس الآخر) على أنها لا تتحدث عن المرأة إلا من خلال ظروف ومواقف محددة، وبذلك فهي تخبرنا في كتابها (قوة الأشياء) أن: «وضع القضية عندي يختلف تمامًا عن وضعه في التفكير السائد، فعندي أن الأنوثة ليست طبيعة ثابتة، بل هي مواقف خلقتها حضارات ابتداءً من بعض المعطيات الفسيولوجية، ولقد وضعت في كتابي (الجنس الآخر) كيف أن النساء كن أحوج من الرجال لما يشد أزرهّن ويصلب عودهّن ليجعل منهن مغامِرات».

يقع كتاب (الجنس الآخر) في 1000 صفحة، ويعتمد على وثائق علمية وتاريخية وفلسفية تدل على سعة إطلاع سيمون دي بوفوار، فهي تدرس المرأة من ناحية تكوينها البيولوجي والعضوي والنفسي، حيث ترفض سيمون دي بوفوار الحديث عن المرأة باعتبارها فكرة عامة على نحو ما ترفض قناعاتها الوجودية الحديث عن الإنسانية على نحو عام، وإنما تتمسك بالموقف الفردي الخاص بها وبتجربتها الشخصية، وإنكار سيمون دي بوفوار الحديث عن المرأة عمومًا لا يعني أنه لا يوجد إناث. وإنما تقصد من كل هذا إلى القول بأنه ليس هناك طبيعة إنسانية تحدد من قبل شخصية الإنسان وعلى هذا النحو أيضًا، ليس هناك أنوثة خالدة تفرض على النساء شخصية معينة، وإنما تقول كما تقول الفلسفة الوجودية. ونجدها في القسم الثاني من (الجنس الآخر) تكتب: «إن الإنسان يكون هذا الشخص أو غيره بما يؤسسه ويفعله بحسب مشروعه الصادر عن حرية. لا تولد المرأة امرأة وإنما هي تصير كذلك، وليس هناك أي قدر يشكل أنثى الإنسان في داخل المجتمع من الناحية البيولوجية أو السيكولوجية أو الاقتصادية، وإنما الحضارة في مجموعها هي التي أنتجت

هذا الكائن الوسط بين الذكر والخصي الذي يوصف بالأنوثة». ولعل السبب فيما ترى سيمون دي بوفوار، أن النساء قد عشن دائمًا في عالم من صنع الرجال، عالم جاهز مغلق، ولم يحدث أن اتّحدت النساء في صف واحد مقابل الرجال، لم يحدث أن كوّنّ جبهة أو وحدة تجعل لهن كيانًا يمكن أن ينطبق عليه قول «نحن»، لم ينجحن في أن يكون لهن وجود أصيل يمكن أن يتصف بأنه ذات على نحو ما يوصف وجود الرجل في أكثر الحضارات، بل كن دائمًا موضوعًا، ولم تلتق إرادة النساء أو مشروعاتهن على نحو ما تلتقي إرادة طبقة من طبقات المجتمع أو طائفة فيه، فليس وضعهن مثل وضع طبقة العمال مثلًا في مقابل أصحاب العمل، ذلك لأن لكل امرأة وضعًا نسبيًا مختلفًا لأنه مقرون بالرجل دائمًا، ومن هنا فقد أصبحت قضية المرأة قضية شائكة، لكن سيمون دي بوفوار تصر على أن المرأة ستأخذ موقعها الحقيقي في المجتمع: «إنه من السهل أن نتصور عالمًا تتساوى فيه المرأة بالرجل، تتربى تربية وتتحمل مسؤوليتها وتحصل على حقوقها، وتصل إلى منزلة من الحرية والوعي بحيث لا تعود ترى في الرجل نصف إله، بل رفيقًا وصديقًا، وتكون معه ما تسميه علاقة (الزوج الإنساني)».

***

في شهر كانون الثاني من عام 1898م نشر إعلان في صحيفة (المؤيد) أن الصحيفة سوف تبدأ خلال الشهر القادم بنشر كتاب بعنوان (تحرير المرأة) للكاتب قاسم أمين، ولم تمض أيام حتى تلقت الصحيفة تهديدًا ووعيدًا أرسله عدد من رجال الدين يحذرون فيه من نشر الرذيلة وإشاعة الفجور من خلال كتابات تسيء للإسلام. بعدها قررت الصحيفة أن تعتذر عن النشر، ولم يكن أمام المؤلف سوى المجازفة بنشر الكتاب على نفقته الخاصة، ونجده

يكتب في الصفحة الأولى: «سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة»، ولكن عند صدور الكتاب لم يُتهم بأنه بدعة، بل اعتبر صاحبه خارج على الدين ويجب القصاص منه، ولأن المؤلف كان يشعر أن كتابه سيجلب له المشاكل فقد كتب في المقدمة قائلًا: «هذه الحقيقة شغلت فكري مدة طويلة، كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها».

كان قاسم أمين المولود في الأول من كانون الأول عام 1863م، من أوائل المصريين الذين حصلوا على شهادة الحقوق، وهو في الثامنة عشرة من عمره، وبين عام 1881م العام الذي تخرج فيه من الجامعة، وبين صدور كتابه (تحرير المرأة) عام 1889م مر بأحداث كثيرة أبرزها حصوله على بعثة دراسية في فرنسا، ودخوله سلك القضاء وهو في الثانية والعشرين، والأهم تعرفه على جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وصداقته للزعيم المصري سعد زغلول. في تلك السنوات كان ينشر المقالات في عدد من الصحف والمجلات، وبسبب جرأة البعض منها كان ينشرها بأسماء مستعارة يخاطب بها المواطن العربي: «إني أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث في حال النساء المصريات، وأنا على يقين أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها، وهي ضرورة الإصلاح فيها، هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة، وكنت خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها، حتى إذا تجردت عن كل ما يختلط بها من الخطأ، استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر مني، وزاحمت غيرها، وتغلبت عليه، وصارت تشغلني بورودها، وتنبهني على مزاياها، وتذكرني بالحاجة إليها، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر».

واعتبر قاسم أمين أن الموقف من قضية المرأة وإنسانيتها يعطي صورة واضحة عن مستوى تطور المجتمع وتطور الأخلاق والآداب في الأمة

فقد قدم كتابه (تحرير المرأة) بالقول: «إن حال المرأة في الهيئة الاجتماعية يتبع حال الآداب في الأمة»، وهو يؤكد إن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها كتابه هي أن المجتمع المصري يعيش في دائرة من الانحطاط العام: انحطاط فكري وعقلي وخلقي واقتصادي وسياسي، أدى إلى ضمور الحس الوطني والركون إلى التخلف ولا يمكن للمجتمع أن يتقدم إلا بالخروج من هذه الدائرة. ويرى قاسم أمين أن الاستبداد والفساد الإداري والسياسي، هو الحاضنة التي تحافظ على الانحطاط وتعيد إنتاجه، كما أن الاستبداد ليس قاصرًا على النظم السياسية والإدارية وإنما هو أحد الركائز الجوهرية في بنية الوعي والعقل والثقافة السائدة التي تصوغ للناس طرائق حياتهم وسلوكهم وتشكل عاداتهم وتقاليدهم، تلك العادات والتقاليد الموروثة التي يحافظون عليها إلى درجة التقديس، ويرى أنه كسر لهذه الحلقة المفرغة، التي تنتج وتعيد إنتاج التخلف والانحطاط، لا بد من تغيير وضع المرأة في المجتمع، هذا المجتمع الذي ينظر إليها باعتبارها عورة وعندما تكبر يغلفها في حجابين الأول: نقاب سميك لا يظهر سوى عينيها والثاني بيت مغلق الأبواب لا تغادره إلا في حراسة الرجل، وهذا المجتمع الذي يسلب المرأة إرادتها واستقلالها ويغلق عليها الأبواب ويرفض تعليمها، كان يطلب منها أن تكون زوجة تطيع زوجها وأمًا تربي أبناءها، ولأن القسمة كانت ظالمة فقد عجزت «المرأة - الأسيرة» التي دفنها المجتمع في غياهب الجهل عن صياغة مجتمع متحضر. فالزوجة المصرية كما يقول قاسم أمين «مهما كانت تعرف عن زوجها فإنها لا تعرف عنه سوى إنه طويل أو قصير، أبيض أو أسمر، أما قيمة زوجها العقلية وسيرته ودقة أحاسيسه وأعماله، وكل ما تصاغ منه شخصيته، ويصير به إلى أن يكون محترمًا محبوبًا ممدوحًا في أمته فهذا لا يصل إلى عقلها شيء منه. وإن وصل فلا يؤثر في منزلته في نفسها وعلى هذا يكون أول من يجهل الزوج زوجته، فكيف يظن إنها تحبه، نرى نساءنا يمدحن رجالًا لا

يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفًا لنا، ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجال بقدر عقلها».

ولكن من الذي وضع المرأة في هذه المنزلة الدنيا في المجتمع؟ يجيب قاسم أمين: «سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا إنهن أعوان إبليس، فلا تسمع إلا ذمًا لخصالهن، وتنقيصًا لعقلهن وتحذيرًا من مكرهن. هل صنعنا شيئًا لتحسين حال المرأة؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها؟ أيجوز أن نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الأنعام؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا في ظلمات من الجهل، بعضها فوق بعض، لا يعرفن فيها شيئًا مما يمر حولهن؟ أليس بينهن أمهاتنا، وبناتنا، وأخواتنا وزوجاتنا؟». ومن أخطر القضايا التي ناقشها قاسم أمين في كتاب (تحرير المرأة) مسألة الحجاب، صحيح إنه لم يكن ضد الحجاب التقليدي ولم يطالب بإلغائه: «ربما يتوهم ناظر أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن الحقيقة غير ذلك. فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلًا من أصول الآداب التي يلزم التمسك به»، لكنه يناقش ثلاثة أنواع من الحجاب ساهمت في تخلّف المرأة وأهدرت شخصيتها. أولها النقاب الذي لا يظهر من المرأة سوى عينيها ويمتد على جسدها مثل خيمة، ويخفي شخصيتها تمامًا بحيث لا يمكن التعرف من خلاله على شخصية المرأة، ويرى قاسم أمين أن هذا النقاب ساهم في انتشار الرذيلة بحيث تستطيع المرأة الجاهلة أن تفعل من ورائه ما تشاء طالما أن شخصيتها غير معروفة، أما الحجاب الآخر فهو حجب النساء في البيوت، ومنعهن من الخروج أما الحجاب الثالث فهو حجاب السلوك والتصرفات بحيث لا تتصرف المرأة في شؤون حياتها إلا من خلال رجل وصي عليها فتظل قاصرًا مدى حياتها.

***

ذات مساء من شهر نيسان وبعد مرور أسابيع قليلة على صدور كتاب (تحرير المرأة)، كان قاسم أمين عائدًا إلى بيته، فوجد عددًا من الرجال يقفون بالقرب من الباب، توقع إن الأمر يتعلق باستشارة قانونية، وما أن اقترب من الرجال، حتى تقدم واحدًا منهم وهو يقول له:

- قاسم بك، جئت أسال عن السيدة زوجتك.

- وبماذا تحتاجها؟

- أريدها أن تخرج معي في نزهة.

وقبل أن يرد قاسم أمين، بادر رجل آخر إلى القول:

- ألست تدعو إلى سفور المرأة واختلاطها بالرجال ومساواتها بهم؟

فيما تحدث آخر بعصبية:

- ألست أنت المنادي بخلع الحجاب؟

ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي يتعرض لها قاسم أمين بعد صدور كتابه (تحرير المرأة)، فقد أفردت معظم الصحف المصرية صفحاتها للرد على كتابه واتهمه البعض بأنه «زنديق، وكافر، متساهل في عرضه وشرفه»، وطالب البعض بمحاكمته وحرق كتابه في الساحات العامة، وصدر قرار من دار المطبوعات تطالب بعدم إعادة طبع الكتاب وسحب النسخ المتبقية من المكتبات وأكشاك بيع الكتب. وكتب محمد فريد وجدي يقول: «هل المرأة مساوية للرجل في سائر الحيثيات؟ فالجواب لا، وهل لدينا دليل حسي على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيفما يشاء، وإذا كانت المرأة مساوية للرجل من الجهة الجسمية والعقلية، فلماذا خضعت كل الألوف المؤلفة من الأعوام لسلطان

الرجل». فيما أصدر الخديوي عباس قرارًا بمنع قاسم أمين من العمل في دوائر الحكومة عقابًا على آرائه «الفاجرة»، ويفرد الزعيم المصري مصطفى كامل صفحات جريدته (اللواء) لأقسى حملة ضد كتاب قاسم أمين تشكك بوطنيته وبانتمائه للإسلام، ولم يقتصر الأمر على الصحف المصرية وحدها، بل انتقلت إلى الصحف والمجلات العربية. ففي العراق يهاجم محمد رضا الشبيبي دعوة قاسم أمين وخصوصًا في مسألة النقاب فيكتب:

صوني جمالك بالبراقع، إنها

ستر الحسان ومظهر الحسنات

ولم يكد يصل كتاب قاسم أمين إلى بغداد وتناقلته الأيدي وأخذ يطلع عليه الجمهور حتى ثارت ثائرة رجال الدين وأسرع الشيخ سعيد النقشبندي يرد عليه برسالة نارية عنوانها (السيف البارق في عنق المارق)، وخيل للشاعر جميل صدقي الزهاوي أن الفرصة قد سنحت له لينشر أفكاره التحررية، فأخذ يروج لكتاب قاسم أمين، بل إنه نشر في جريدة (المؤيد) المصرية مقالة جاء فيها: «أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة ويستبدلها بغيرها كسقط المتاع رادًا إلى حضنها أطفالها الذين هم نتائج شهوته. وربما كانت المرأة الشرسة هي السبب لهذا الفراق... ولكن ما حيلة المرأة الوديعة إذا منيت برجل شرس الأخلاق؟ لماذا لم يجز المسلمون أن تطلقه لتنجو من شراسته، وقد قال تعإلى في كتابه المبين بعد آية الطلاق (ولهن مثل الذي عليهن). أشاعت بعض الصحف أن جماعة من النساء المظلومات شرعن يرتددن فرارًا من معاشرة أزواجهن. فلا يلومن المسلمون إلا أنفسهم فهن مضطرات إلى الردة، ما حيلة المضطر إلا ركوبها». وبعد أن وصل امر المقال إلى بغداد، طافت في الشوارع جماهير يتقدمها عدد من رجال الدين تطالب

بعزل الزهاوي من وظيفته في مدرسة الحقوق، واتخاذ الإجراءات الشديدة ضده فنزل الوالي ناظم باشا عند رغبتها وعزله من مدرسة الحقوق.

في العام 1900م ينشر قاسم أمين كتابه الثاني (المرأة الجديدة)، وقد ضمنه حججًا وتوضيحات جديدة لآرائه السابقة، وتحليلًا اجتماعيًا لواقع المجتمعات الشرقية وموقع المرأة فيها، وقدم دراسة لتطور نضالات المرأة في العالم من أجل حقوقها وأكد في كتاب (المرأة الجديدة) أن الأوروبيين قبل عصر التنوير كانوا يرون رأينا في النساء: «النقص في الدين والعقل وقالوا فيهن ذوات الشعر الطويل والفكر القصير»، ثم ذكر أحوال المرأة الجديدة في أوروبا والتي حصلت على الكثير من الحقوق من خلال التعليم والاختلاط والمشاركة في العمل والمسؤولية.

في الثالث والعشرين من نيسان عام 1908م توفي قاسم أمين بالسكتة القلبية، وقبلها بأشهر كان قد تعرض إلى هجمة جديدة قادها ضد رجال الدين بسبب مقال نشره في جريدة (المؤيد) طالب فيه بأن تأخذ المرأة مكانتها في مجال العمل وتقف إلى جانب الرجل في بناء المجتمع الجديد، وقبل وفاته كان قد صدر ضده أربعين كتابًا اتهمه أصحابها بنشر الفساد والفجور والتآمر على البلاد. أربعون كتابًا كان أشهرها (الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من تدليس)، وكتاب (السنّة والكتاب في حكم التربية الحجاب)، وكتاب (الدفع المبين في الرد على قاسم أمين). في رثائه سيكتب أحمد لطفي السيد: «سوف يقف شخص واحد وسط هذا المجتمع، ليحاول نزع واحد من الحواجز.. حاجز المرأة عن المجتمع».

عندما توفيت سيمون دي بوفوار عام 1986م، قالت الفيلسوفة إليزابيث بادنتر: «يا نساء العالم، أنتن مدينات بكل شيء لسيمون». بهذه الكلمة ودعت

مؤلفة (الجنس الآخر) الذي أحدث دويًا كبيرًا في الأوساط الأدبية في كل مكان وحرض المرأة على المطالبة بكل حقوقها لأنها «عالم آخر» وترفض أن تكون جزءًا تابعًا لعالم الرجل.

22

حين يولد الاستبداد السّياسي من الاستبداد الدّيني

في التاسع من حزيران عام 1900م نشرت جريدة (المؤيد) في القاهرة الحلقة الأولى من سلسلة مقالات تحت عنوان (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بقلم الرحالة «ك»، يخبرنا صاحبها في المقدمة التي وضعها فيما بعد للمقالات التي جمعها في كتاب: «في زيارتي هذه لمصر، نشرت في أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوان الاستبداد: ما هو الاستبداد وما تأثيره على الدين، على العلم، على التربية، على الأخلاق، على المجد، على المال؟... إلى غير ذلك. ثم في زيارتي الثانية لمصر أحببت تكليف بعض الشبيبة، فوسعت تلك المباحث خصوصًا في الاجتماعيات كالتربية والأخلاق وأضفت إليها طرائق التخلص من الاستبداد ونشرت ذلك في كتاب سميته (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)». وكان قبل هذا قد قدم للمقالات التي نشرها بصحيفة (المؤيد) بالعبارة التالية: «هي كلمات حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، فقد تذهب غدًا بالأوتاد»، كانت المقالات جديدة في أسلوبها، واضحة في مهاجمتها للسلطات التي اتهمها الكاتب بالاستبداد، وبدأ قراء الصحيفة يتساءلون عن شخصية الرحالة هذا، ومن يكون، في الوقت الذي أصدرت السلطات في الأستانة قرارًا بالبحث عن كاتبها حيث أشارت أصابع الاتهام إلى جمال الدين الأفغاني بأنه يقف وراء هذه الكتابات «المغرضة».

كان صاحب المقالات قد وصل إلى القاهرة هاربًا من مدينته حلب بعد أن حكم عليه بالإعدام. وكانت تهمة عبد الرحمن الكواكبي التآمر على والي حلب جميل باشا الذي تنتبه إلى أن كتابات الكواكبي في الصحف كانت تثير الناس ضده، بل إن الكواكبي كان يكتب استغاثات الناس من الظلم الذي يمارسه الوالي ضده، ولهذا كان لا بد من إلقاء القبض عليه، وتقديمه للمحكمة التي لم تجد أدلة تدين بها الكواكبي فقررت إطلاق سراحه، ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟ فها هو الوالي الجديد عارف باشا يجد أن الكواكبي افتتح مكتبًا للمحاماة مهمته الدفاع عن المظلومين ضد ممارسات الوالي وكبار أعيان حلب، ولم يكن أمام الوالي سوى غلق مكتب المحاماة وإصدار أمر بإلقاء القبض على الكواكبي بتهمة تشكيل تنظيم معادي لسلطة الآستانة، ولكي تكون التهمة ثابتة، استطاعت الشرطة وهي تفتش مكتب الكواكبي أن تدس له ملفًا على شكل خطابات زعموا من خلاله أن الكواكبي كان يرسل هذه الخطابات إلى سفراء الدول الأجنبية يحرضهم على السلطان ويطالب باستقلال البلدان العربية.

كان في الخامسة من عمره حين توفيت والدته، فانتقل للعيش في بيت خالته في إنطاكيا، هناك شَغف بالتاريخ وسير القدماء حيث وجد في بيت خالته مكتبة كبيرة تضم العيد من المجلدات التي تحكي تاريخ بلاد العرب، حفظ المعلقات السبعة وهو لم يتجاوز العاشرة، وكان طموحه أن يصبح شاعرًا يكتب قصائد في الشجاعة مثل عنترة بن شداد، إلا أن الصبي الذي ولد في حلب عام 1853م، كان عليه أن يعود إلى مدينته الأولى ليدخل المدرسة الثانوية تحت إشراف والده أمين الفتوى بحلب، وفي تلك السنوات تفرغ لقراءة كتب السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وتعلّم اللغات الفارسية والتركية، بعد أن أنهى دراسته قرر عبد الرحمن الكواكبي أن يعمل بالصحافة فعين محررًا في صحيفة (الفرات)، بعدها أنشأ صحيفة أسماها

(الشهباء)، لم تستمر هذه الصحيفة طويلًا، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كما يقول الكواكبي نفسه «تخاف من القلم خوفها من النار»، بعدها أصدر صحيفة بعنوان (الاعتدال) وأيضًا لم تستمر طويلًا بسبب الافتتاحيات التي كان يكتبها الكواكبي.

بعد أن تعطّلت صحيفتا (الشهباء) و (الاعتدال)، اتجه لدراسة الحقوق، ليفتتح مكتبًا للمحاماة، كان يستقبل فيه الجميع من سائر الفئات ويساعدهم ويحصل على حقوقهم، حتى اشتهر في جميع أنحاء حلب بلقب «أبي الضعفاء».

تقلد عبد الرحمن الكواكبي عدة مناصب في ولاية حلب، حيث عمل صحفيًا وقاضيًا ومحاميًا وتاجرًا ورئيسًا للبلدية، وفي كل الوظائف التي عمل فيها الكواكبي كان يرى الاستبداد والطغيان ينتشر من حوله، إن الولاة والحكام يستغلون الشعب، والشعب بالنسبة لهم مجرد دافع ضرائب، لا أهمية له، ولهذا كانت السلطة: «تنشر الرشوة وتخترق القانون وتتجاهل الحقوق، وتفسد الأخلاق، وتطارد الأحرار، وتسجن الثائرين». استمر بالكتابة ضد السلطة التي كانت في نظره تمثل الاستبداد، وعندما لم يستطع تحمل ما وصل إليه الأمر من مضايقات في حلب، سافر إلى آسيا حيث زار الهند والصين وسواحل شرقي آسيا وأفريقيا وإلى مصر التي وصلها عام 1899م، وقد كانت الفترة التي عاشها في مصر برغم قصرها أخصب فترات حياته وفيها أصدر كتابيه الشهيرين (أم القرى) و (طبائع الاستبداد)، وفيهما يبين الكواكبي الأسباب التي أدت إلى تدهور البلاد العربية ويلخصها بثلاثة:

1. أسباب دينية حيث يصر رجال الدين على نشر الخرافات ودفع الناس إلى الإيمان بالقضاء والقدر.
2. أسباب اجتماعية حيث اليأس يسيطر على نفوس الناس، والخوف من طلب الحقوق، وإهمال الثورة على الظالم.

3. أسباب سياسية حيث فقدان الحرية بجميع أنواعها، وغياب الديمقراطية.

وفي إسطنبول التي وصلها وهو في الثلاثين من عمره، عثر على كتاب مونتسكيو (روح الشرائع) مترجمًا إلى اللغة التركية، يسحره الكتاب فيقرر أن يقرأ كتب السياسة والفلسفة: «كنت قبل قراءة (روح الشرائع) أحاول أن أبحث مع نفسي كيف يمكن أن أقدم للقراء كتابًا يساعدهم على فهم الشيء الكثير عن الاستبداد والحرية والنظم السياسية»، يعود إلى حلب وأول شيء يفعله تطبيق ما جاء في كتاب مونتسكيو، أن يضع تصرفات الحكام: «تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتهم محاسبة لا تسامح فيها».

***

مثلما ظهر كتاب (طبائع الاستبداد) من غير اسم المؤلف الحقيقي، فإن عام 1748م شهد ظهور كتاب في جنيف بعنوان (روح الشرائع) خاليًا من اسم المؤلف، وبعد سنوات سيكتب السيد شارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتيسكيو، أنه منذ كان طالبًا قرر أن يبحث عن روح القوانين ونجده يكتب في يومياته: «لقد بدأت العمل في هذا الكتاب مرّات كثيرة، ومرّات كثيرة هجرته، ألف مرّة ألقيت الأوراق التي كتبتها للرياح، كنت أشعر كل يوم بأنه سقط في يدي، وكنت أُلاحق هدفي دون خطة مرسومة، لم أكن أعرف القواعد ولا الشذوذ في القاعدة، ولم أكن أعثر على الحقيقة إلا لأضيعها، ولكن عندما اكتشفت مبادئي، أقبل نحوي كل ما كنت أبحث عنه».

ولد شارل لويس دي سيكوندا، عام 1689م بمدينة بوردو غربي فرنسا لعائلة تعمل في تجارة الأراضي، كان طفلًا مشاغبًا كما تصفه أمّه التي كانت ابنة أحد تجار بريطانيا، قرر والِداه أن يدخل مدرسة تشرف عليها

جماعة الخطابين، وهي جماعة ذات نزعات متحررة تجديدية، تعنى بتدريس أصول الخطابة والبلاغة والتاريخ. في التاسعة عشرة من عمره يحصل على شهادة في القانون ليعين مدرسًا بأكاديمية بوردو، بعدها يسافر إلى باريس وهناك يبدأ تأليف كتابه (رسائل فارسية) الذي صدر عام 1721م وفيه يدرس العبادات الشرقية ويقارنها بالتقاليد الغربية، وفي نفس العام يصدر له كتاب بعنوان (ملحوظات عن الثروة وأسبابها) ويعد هذا الكتاب بمثابة مقدمة لكتابة الضخم (روح الشرائع)، بعدها يعود إلى مدينته بوردو حيث يدخل البرلمان. وفي عام 1725م ينتخب رئيسًا لبرلمان بوردو، وفي خطبة الافتتاح يهاجم الاتجار بالمناصب القضائية والسياسية، كما سخر من جهل القضاة وطالب بأن يطبق القانون على الناس من دون تفرقة، وكانت لكلمات مونتسكيو وكتاباته عن سوء القضاء، أثر كبير في الدعوة إلى إصلاح القضاء الفرنسي، في تلك السنوات عقد صداقات مع فولتير وديدرو، لكنه لم يكن معجبًا بأفكار جان جاك روسو، كما أجرى اتصالات مع الفيلسوف الإنكليزي ديفيد هيوم، وبعث برسائل إلى العالم الكبير إسحاق نيوتن يناقشه في قانون الجاذبية. كما أجرى محاورات مع الإنكليزي جون لوك، حيث كان لهذه المحاورات أكبر الأثر في خلق مبدأ جديد من مبادئ الديمقراطية الإنكليزية، وهو مبدأ فصل السلطات الذي أخذت به فيما بعد كل دساتير العالم. يتفرغ بين الأعوام 1734م -1748م لتأليف كتابه الشهير (روح الشرائع)، بعدها يتفرغ لكتابة يومياته التي صدرت بعد وفاته عام 1755م بعنوان (أفكاري).

بعد خمسة وثلاثين عامًا على وفاة مونتسكيو وأمام قلعة سجن الباستيل التي اقتحمتها الجماهير الثائرة، يقف جان بول مارا أحد أركان الثورة الفرنسية وهو يلوح بكتاب (روح الشرائع) مشيدًا بالكاتب الذي اعتبره الصاعق الذي فجّر الثورة قائلًا إن مونتسكيو «احترم الآراء التي تؤمّن

سلامة المجتمع، ولم يهاجم قط إلا الأحكام المسبقة الضارة. لكنه لكي يطهّر الأرض منها، لم يتخذ على الإطلاق نبرة المصلح الواثق من نفسه».

يتناول مونتسكيو في (روح الشرائع) فكرة اختلاف الأنظمة السياسية باختلاف القوميات حيث يقسم كتابه إلى واحد وثلاثين بابًا تشمل عدة دراسات تفصيلية في مختلف مجالات العلوم السياسية مثل علوم تطوير الأجناس البشرية والاجتماع السياسي والبيئي والجغرافيا السياسية والسلوك السياسي إلى جانب الدراسات القانونية: «لقد وضعت المبادئ، ورأيت الأحوال الجزئية تنحني أمامها، وكأنها تنحني تلقائيًا، ورأيت تواريخ جميع الأمم لا تعدو أن تكون نتائج لها، ورأيت كل قانون جزئي مرتبطًا بقانون آخر أو تابعًا لقانون آخر أكثر عمومية». ونجد مونتسكيو وهو يكتب (روح الشرائع) يسعى لفتح حوار مع عدد كبير من المفكرين ومؤلفاتهم وأبرزها كتاب (الجمهورية) لأفلاطون و(السياسة) لأرسطو و(الأعمال الأخلاقية) لبلوتارخس و(الأمير) لميكافيللي و(اليوتوبيا) لتوماس مور وكتاب (المواطن) لهوبز و(بحث عن الحكومة المدنية) لجون لوك و(قانون الأمم) لبوفندرون، إضافة إلى مؤلفات من الهند والصين، ويكتب مونتسكيو في المقدمة إن كتابه: «ليس توجيه النقد اللاذع للأنظمة القائمة لدى مختلف الأقوام، وإنما شرحها وتفسيرها»، ويصر مونتسكيو على أن الملكية الدستورية أفضل أشكال الحكم، ولهذا نجده في الكتاب يسخر من الحكم المطلق لأنه: «مضاد لكل ما يمتّ إلى الإنسان والإنسانية بصلة من الصلات».

ورأى مونتسكيو أن القوانين هي أساس تنظيم المجتمع وتوزيع الحقوق والواجبات على الأفراد، ونجده يعطي تعريفًا اجتماعيًا للقوانين باعتبارها ظواهر اجتماعية مكتسبة تقوم على البيئة الجغرافية والمحيط والظروف والعوامل الأخلاقية، وإن القوانين تستمد أسسها من طبيعة الناس ومن

بيئتهم الاجتماعية، فلأول مرّة نجد مفكرًا يؤكد على أن القوانين هي ظواهر اجتماعية تتفاعل فيها عناصر مختلفة كالطبيعة والمناخ والأخلاق والظروف الاجتماعية. يكتب في القسم الأول من الكتاب أن «القوانين في أوسع معانيها عبارة عن علاقات ضرورية تشتق من طبيعة الأشياء، ولكل الموجودات قوانينها بهذا المعنى» والقوانين بنظر مونتسكيو ليست إلا علاقات بين قوى متفاعلة يؤثر بعضها في بعضها، ويتأثر بعضها ببعض، وهذه القوى على نوعين فيزيائية ومعنوية أو أخلاقية، فالطبيعة ومبادئ الحكومات والتعليم والضرائب والمناخ وعادات الأمة وتقاليدها وعدد السكان والدين السائد، كل تلك القوى تتفاعل، والقوانين ليست سوى تلك العلاقات التي تنتج عن ذلك التفاعل بشكل ضروري، ويسخر مونتسكيو من الفلاسفة الذين أخضعوا القوانين والظواهر الطبيعية التي تسود العالم إلى قدرية عمياء، إذ كيف: «نتصور أن تخلق هذه القدرية موجودات مفكرة».

بعد أن يحدد لنا مونتسكيو طبيعة القوانين يقدم في الفصول التالية خريطة لأنظمة الحكم والتي يقسمها إلى ثلاثة: أنظمة مستبدة وأنظمة ملكية وأنظمة جمهورية، ونجده يناقش الشرائع التي يقوم عليها كل نظام من هذه الأنظمة: «إن النظام المستبد هو شكل تنحدر إليه كل أشكال الحكم إذا تطرّق إليها الفساد، والحكم الملكي هو الذي يتولى الحكم فيه شخص واحد وفق قوانين واضحة لا يتعداها، أما الطغيان فهو يقوم على شخص واحد يحكم بلا قانون ولا قاعدة إلا أهواءه وعواطفه، والحكم الجمهوري هو أن يحكم الشعب أو من يمثلونه وفق قواعد نيابية خاصة وتلك هي الديموقراطية» وفي فقرة أخرى يحدد المسؤولية القانونية لهذه الأنواع من الحكم: «القوانين تحت الحكم الجمهوري تعني التمسك بواجب المواطن الشريف، أي بتضحية المصالح الفردية إزاء المصالح العامة، أما القوانين في الحكم الملكي فأساسها

الشرف وثقة الشعب في ملكه، أما قوانين حكم الطغيان فهي الخوف والرهبة لأن الرعايا ليسوا أحرارًا بل عبيدًا أذلاء للطاغية الذي يبقى حكمه مرتكزًا على هذه الرهبة من جبروته وسلطانه . فيما يفرد فصلًا خاصًا يعالج فيه موضوعة الحرية السياسية التي يؤكد أن وجودها دليل على أن النظام معتدل، فهو يعترف بأن الحرية هي «حق الإنسان في أن يفعل كل ما تسمح له به الشرائع». بعدها نجده وفي الفصول الأخرى من الكتاب يناقش تأثير الأخلاق في القوانين، والتجارة، واستخدام النقود، والعلاقة بين زيادة عدد السكان والقوانين، ثم علاقة الدين بالدولة ويكتب في هذا الفصل هذه العبارة المؤثرة: «تفسد الأنظمة عندما تنتزع بالتدريج صلاحيات الهيئات، لتمضي إلى استبدادية فرد واحد».

استقبل كتاب مونتسكيو عند ظهوره بنجاح كبير حيث تكتب المجلة الأدبية الفرنسية إن مونتسكيو: «أدار رؤوس الفرنسيين جميعًا»، وظهرت خلال العام الأول اثنتان وعشرون طبعة وكتب عنه فولتير: «لقد أضاع الجنس البشري صكوك ملكيته، فعثر السيد مونتسكيو عليها، وردها إليه»، إلا أن رجال الدين وجدوا فيه إساءة لنظام الحكم الذي وضعته الكتب المقدسة، فيما أدرجته العديد من الجامعات بين قائمة الكتب المحظورة، وعندما توفي مونتسكيو بعد أن فقد بصره نهائيًا، كان مجده قد غدا مجدًا أوروبيًا وكتابه يترجم إلى معظم اللغات الأوروبية.

***

لم يحدث خلاف على تاريخ وفاة عبد الرحمن الكواكبي، لكن الخلاف حدث حول ظروف الوفاة وملابساتها، حيث يعتقد بعض المقربين منه أنه مات مسمومًا بعملية دبرها السلطان العثماني عبد الحميد، بعد أن رأى في

كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) محاولة لإثارة البلدان العربية ضد السلطة العثمانية فيكتب المفكر محمد علي كرد وكان من المقربين للكواكبي أن: «السلطان عبد الحميد لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الكواكبي ضحيتها»، ومن هنا سرت الإشاعة أن الكواكبي مات مسمومًا بسبب دعوته إلى إقامة نظام حكم عربي وإسلامي بعيدًا عن هيمنة العثمانيين، وهو الأمر الذي أكد عليه في كتابه أم القرى، وتناوله بالتفصيل في كتابه الأشهر (طبائع الاستبداد).

في المقدمة التي وضعها الكواكبي لكتابه نجد أن فكرة (طبائع الاستبداد) لم تكن وليدة لحظات وإنما كانت تراوده منذ ثلاثين عامًا، فالكواكبي يعتقد أن سبب انحطاط الشرق وأصل الداء المستشري فيه هو الاستبداد السياسي، وأن العلاج يكمن في نظام دستوري، وهو يبدأ كتابه بطرح سؤال: ما هو الاستبداد؟

إن الاستبداد هو: «صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية ولا عقاب» أما سبب الاستبداد فيوضحه الكواكبي بأن تكون الحكومة: مطلقة العنان، لا يقيدها قانون ولا إرادة أمّة، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك، لكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى «والحكومات في نظر الكواكبي تميل إلى الاستبداد لا يمنعها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها»، أما المستبد فهو: «إنسان مستعد بالفطرة للخير والشر، فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر.. مستعدة لأن تقول لا أريد الشر.. مستعدة لأن تتبع القول بالعمل».

والحكومة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى أصغر موظف، ويؤكد الكواكبي أن علاج الاستبداد هو الحرية، ولهذا نجده

يكرر كلمة الحرية في كل صفحة من صفحات الكتاب يؤكد لنا الكواكبي أن غرضه من نشر هذا الكتاب، هو خوض معركته الشخصية ضد الاستبداد الذي كان يسم تلك الحقبة من الحكم التركي للبلاد العربية. وهو يجد أن الحكام عمدوا إلى تشجيع روح التقليد الأعمى الغاشمة والاستسلام لفكرة الآخرة من أجل تدعيم سلطتهم المطلقة. إن «الحكام المستبدين لم يكتفوا في عملهم الشرير بتأييد الانحراف عن الدين الصحيح، بل أفسدوا المجتمع بكامله»، فـ «الدولة العادلة التي فيها يحقق البشر غايتهم من الوجود هي تلك التي يعيش الفرد فيها حرًا، ويخدم المجتمع بحرية، وتسهر الحكومة على هذه الحرية، وتكون الحكومة نفسها خاضعة لرقابة الشعب»، وهو يحدد الدولة المستبدة بأنها: «تتعدى على حقوق المواطنين، وتبقيهم جهلاء، كي تبقيهم خانعين، وتنكر عليهم حقهم في القيام بدور فعال في الحياة، نتفهم، آخر الأمر، العلاقة الروحية بين الحكام والمحكومين، كما بين المواطنين أنفسهم، وتشوّه كيان الفرد الخلقي بالقضاء على الشجاعة والنزاهة وشعور الانتماء الديني والقومي على السواء». والمستبد يسعى لأن يجعل من الدين أداة لخدمته ويضفي على نفسه صفة القدسية التي لا تعطي الحق للمواطن بمحاسبته على اعتبار أن ما يقرره نابع من إرادة سماوية: «إنَّه ما من مستبدٍّ سياسيّ إلى الآن إلا ويتَّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقامَ ذي علاقة مع الله. ولا أقلَّ من أنْ يتَّخذ بطانة من خَدَمَةِ الدِّين يعينونه على ظلم النَّاس باسم الله، وأقلُّ ما يعينون به الاستبداد، تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضًا، فتتهاتر قوَّة الأمّة ويذهب ريحها، فيخلو الجوّ للاستبداد ليبيض ويُفرِّخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات، لا يُؤيِّدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم، وإفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب».

ما هو الحل؟ يتذكر الكواكبي عند طرحه هذا السؤال كتاب مونتسكيو (روح الشرائع) فيستمد منه الفصل الأخير الذي يضع له عنوان (الاستبداد والتخلّص منه): وفيه يؤكد على ضرورة الاستفادة من التاريخ الطبيعي، حيث نجد الكواكبي يستعرض مراحل تطور عيش الإنسان من دور الافتراس إلى دور الترقي وفيه: «جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار، فقرر بعض قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب. وحصحص فيها الحق اليقين فأصبحت تعد من المقررات الاجتماعية عند الأمم الشرقية، ولا يعارض ذلك كون هذه الأمم لا تزال منقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شيعًا، لأن اختلافهم هو في تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية».

في الرابع من حزيران عام 1902م يتعرض الكواكبي إلى أزمة صحية لم تمهله طويلًا حيث يتوفى مساء اليوم نفسه. وفي اليوم الثاني ما أن ينتشر خبر وفاة الكواكبي حتى يأمر السلطان عبد الحميد مندوبه في مصر أن يذهب إلى بيت الكواكبي فورًا ويصادر جميع الأوراق الموجودة على مكتبه ويرسلها إلى الآستانة، وكانت المفاجأة أن الصفحات التي وجدت على مكتبه كانت تضم العبارة التالية: «يا قوم: وقاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مُبتلون بداء التقليد والتبعية في كلِّ فكرٍ وعمل، وبداء الحرص على كلِّ عتيق كأنَّكم خُلِقتم للماضي لا للحاضر: تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي أن تدركوا أنَّ حاضركم نتيجة ماضيكم، ومع ذلك أراكم تقلِّدون أجدادكم في الوساوس والخرافات والأمور السافلات فقط، ولا تقلِّدونهم في محامدهم! أين الدين؟ أين التربية؟ أين الإحساس؟ أين الغيرة؟ أين الجسارة؟ أين الثبات؟ أين الرابطة؟ أين المنعة؟ أين الشهامة؟ أين النخوة؟ أين الفضيلة؟ أين المواساة؟ هل تسمعون؟ أم أنتم صُمٌّ لاهون».

23

انذر حياتك للحقيقة، فإن عالمًا جديدًا يبدأ

في منتصف ليلة من ليالي شهر حزيران من عام 1762م، حاصرت قوة من الشرطة قصر إحدى الأميرات، التي سارعت إلى إيقاظ ضيفها تطلب منه الرحيل من الباب الخلفي، قبل أن تدهم القوة العسكرية القصر، فخرج متخفيًا بلباس أحد الطهاة. كان البرلمان الفرنسي قد أصدر مرسومًا بتاريخ 9 حزيران عام 1762م بالقبض على جان جاك روسو بتهمة الإلحاد وتخريب عقول الفرنسيين. وفي الحادي عشر من حزيران، صدر قرار بإحراق كتاب روسو (أميل أو التربية) أمام بناية العدل في باريس، وبعد أيام قررت مدينة جنيف السويسرية إحراق الكتاب نفسه.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، ففي الثامن والعشرين من حزيران عام 1762م نشر رئيس أساقفة باريس بيانًا يبيّن فيه للعامة من الناس خطورة هذا الرجل وضرورة حرقه مع كتبه، وبيّن رئيس الأساقفة في رسالته النقاط التي يخالف فيها جان جاك روسو الكتاب المقدس، فرد عليه روسو بخطاب يقول فيها: «إني أتّخذ من عقلي قاعدة أبني على أساسها اعتقادي؛ إني أرفض سلطان البشر ولا أخضع لما يعتقدونه إلا بقدر ما أرى فيه من حقيقة».

لم يهتم الناس بخطاب روسو، وخصوصًا بعد أن ظهرت مقالة عنيفة هاجم صاحبها كتاب روسو. ورغم أنها كُتبت باسم مستعار إلا أن البعض عزاها إلى فولتير لما بينهما من خصومة أثارت الرأي العام ضد روسو، فقرّر

سكان مدينة مونبليه أن يحاصروا البيت الذي يسكنه هذا المارق ليرموه بالحجارة، فهرب متخفيًا إلى جزيرة سان بيير، وهناك طاردته لعنة كتابه (أميل) حيث صدر بعد شهرين قرار بطرده. يتوجه بعدها إلى ستراسبورغ ليمكث فيها أشهرًا قليلة انتهى فيها من كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) الذي رأى فيه أن الحرية والمساواة هما معًا المبدآن الجديران بأن يكونا أهم مكونات أي نظام سياسي. في (العقد الاجتماعي) يؤكد روسو أن الدولة يمكن أن تكون أداة للحرية إذا كانت لرعاياها جميعًا السيادة نفسها، لأنه حينئذ يمكن القول إن الناس يحكمون أنفسهم حقًا، ولاحظ روسو أنه فقط عندما يشارك كل المواطنين في العملية التشريعية، يستطيعون معًا منع استخدام السلطة التي قد يسعى البعض إلى استغلالها. وقد أثار الفصل الأخير من (العقد الاجتماعي) الذي تناول الدين حفيظة الكنيسة ضده، ذلك أن إدانته للمسيحية التي وصفها بأنها تناسب الحكومات المستبدة جعلت حياته في خطر، فاضطر بعد الانتهاء من الكتاب أن يغادر إلى إنكلترا، فقد كانت عيون السلطات تطارده ولم يستطع أن يعيش في سلام. فقبل دعوة صديقه الفيلسوف الإنكليزي دافيد هيوم لقضاء بعض الوقت عنده، وهناك يتفرغ لكتابة مذكراته (اعترافات).

لم يسجل تاريخ الفكر الإنساني حياة أكثر غرابة وتناقضًا من حياة جان جاك روسو، الذي ترك لنا سيرة حياة مليئة بالأحزان والمآسي، والهزيمة والانتصار. وقد قُدّر لهذه الحياة أن تترك انطباعات عميقة على نموه الفكري والثقافي. ولد جان جاك روسو في الثامن والعشرين من حزيران عام 1713م في جنيف لأبوين فقيرين، فَقد أمّه بعد ولادته. يكتب في اعترافاته: «وُلدت سقيمًا عليلًا، وقد كلّفت أمي حياتها، فكانت ولادتي فاتحة مصائبي وشقائي». كان والده يعمل في النهار مُصلحًا للساعات وفي الليل معلمًا للرقص، تخلى

عن ابنه روسو عندما كان في الثامنة من عمره وتركه في بيت خاله الذي حاول أن يُدخِله ديرًا ليصبح كاهنًا. لم تمضِ أيامه في الدير هادئة، فقد اُتهم بسرقة إحدى السيدات ليطرد من الدير، ويعود إلى خاله الذي سيرسله هذه المرة للعمل عند أحد الكتَبة العموميين، فيطرده بعد يومين، فيذهب به خاله إلى صاحب ورشة شديد القسوة غليظ القلب، ما دفع روسو إلى تعلم الغش والكذب والسرقة، إلى درجة أنه بدأ يتمرد، ويخرج مع أصدقائه إلى خارج المدينة للبحث عن الحرية، ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل، فيشبعه صاحب الورشة ضربًا. كان التشرد والحرمان واليُتم طابع حياة روسو، ما عمّق أحاسيسه، وجعله يشعر بالظلم: «لقد علمتني ذكرى التبدل الذي أصابني في حياتي الفرق بين تبعية الابن للأسرة وبين الخضوع الذليل للآخرين». إلا أن لحظات من السعادة كان يشعر بها، وهو يتفرغ لقراءة الكتب التي كانت تحتفظ بها أمه. ففي السابعة من عمره حاول والده أن يمرنه على المطالعة، فكان يطلب منه أن يقرأ بصوت عالٍ قصصًا كانت والدته قد قرأتها. يكتب في الاعترافات: «والدي يقول لي بخجل، وقد سمع أصوات السنونو تحيي الصباح: لنذهب الآن إلى النوم، إني طفل أكثر منك». وحينما انتهيا من قراءة جميع القصص الموجودة في البيت، أخذ يقرأ ما في مكتبة جده، حيث عثر على كتاب (مسخ الكائنات) لأوفيد وبعض مسرحيات موليير، إلا أن الكتب التي سحرته كانت مؤلفات المؤرخ بلوتارك: «عندما كنت في السادسة من عمري وقع في يدي بلوتارك، فحفظته عن ظهر قلبي، وكنت قد قرأت كل رواية فيه فكبدني ذلك ذرف سيل من دموعي قبل أن أبلغ السن التي يُقبل فيها القلب على مثل هذه الكتب، ونشأ فيّ تذوق لظواهر البطولة ونزوات العاطفة وأخذ ينمو ويشتد منذ ذلك الحين، حتى أدى بي في النهاية إلى النفور من كل شيء لا يلائم تخيلاتي». إن الطفل روسو الذي فقد أمّه، وهجره أبوه، وجد لنفسه ملاذًا من الحياة في الكتب: «وجدت نفسي أقدر

على التعامل مع الكائنات الخيالية التي أحاطتني بها الكتب من التعامل مع أولئك الذين أراهم في العالم». عاش جان جاك روسو 65 عامًا، وصفها رومان رولان في كتابه (آراء روسو الحية) بالشعور بالغربة عن العالم: «كان يرى نفسه غريبًا بين الناس، وأنه لم يكن يشعر بأنه على ما يرام في قلب الأسرة الإنسانية، ولم يكن يرى أقرانه مخلوقين على شاكلته، لذلك كان في وسعه أن يفهم معنى الشعور بالغربة والضياع الذي يحس به إنسان غريب آخر في المجتمع وهو الطفل».

في سنواته الأخيرة اضطر إلى ممارسة مهنته القديمة «ناسخ نوتات موسيقية» لكي يتمكن من العيش؛ وكان قد سكن في غرفة متواضعة حيث كان بعض الأصدقاء يأتون لزيارته. وقد وصف أحد الأصدقاء وهو برناردان دي سان بيير صديقه روسو قائلًا: «كان جاك رجلًا نحيفًا، معتدل القامة، وكانت إحدى كتفيه تبدو أكثر انخفاضًا من الأخرى، إما لعاهة طبيعية وإما للوضع الذي كان يتخذه وهو يكتب، وإما، أخيرًا، لأن السنين كانت قد حنت ظهره وهو حينذاك في سن الرابعة والستين. مع ذلك، كانت بنيته متناسقة. كان أسمر اللون، وردي الوجنتين، جميل الفم، قاني الأنف، مستدير الجبين، عالي الجبهة، ناري العينين. كانت تقاطيع وجهه التي تنحدر من المنخرين نحو طرفي الفم والتي تتميز بها السيماء تعبر عن حساسية بالغة يخالطها شيء من الألم... كان إلى جانبه بيانو صغير من الطراز القديم ينقر عليه من حين إلى آخر بعض الألحان، وكان كل أثاث غرفته يتألف من فراشين قطنيين، ومن بعض البسط، وخزانة صغيرة ذات أدراج، ومنضدة، وبعض الكراسي... كان هناك كناري يغرد في قفص معلق بالسقف، وعصافير دوري تأتي فتأكل الخبز المنشور على النوافذ المفتوحة من ناحية الشارع، وكانت تنمو على نوافذ المدخل في صناديق خشبية وأوانٍ خزفية مزروعات شتى نابتة كما يطيب للطبيعة أن تبذرها».

في أغلب الأحيان كان روسو، بعد أن ينتهي من عمله، يذهب برفقة برناردان دي سان بيير يتنزه في غابات سان كلو. ففي ذلك الوقت كتب روسو (تأملات متنزه منفرد).

ساءت حالته الصحية منذ عودته إلى باريس، فقدّم له الماركيز دي جير أرادان، وهو أحد المعجبين به، مسكنًا في قصره، حيث حلّ روسو مع تيريز. كان يبدو أن الإفادة من هدوء الريف، وطيب الهواء، وجمال الطبيعة قد حسّنت صحته، والغريب أن الحياة تصالحه بعد سنوات من العداء والقطيعة، فيبتسم له الحظ خلال الشهور الأخيرة من حياته. ذلك الرجل التعس الذي ظنَّ أن الحياة ستنتصر عليه لم يعلم أنه قد قهر الحاضر والمستقبل، ففي السنوات الأخيرة من حياته ظهرت ست طبعات من مجموعة مؤلفاته وعشر طبعات من روايته (هيلويز الجديدة)، وفي سنة 1871م نشر الجزء الأول من (الاعترافات). إلا أن هذه السعادة لم تدم طويلًا. ففي صباح الخميس، الثاني من تموز عام 1778م، خرج كعادته لجمع النباتات، لكنه شعر بضيق في صدره فسقط على الأرض، فأصيب بجرح في رأسه ليموت بعدها بساعات، وقد شخّص الأطباء حالته بأنها انفجار في شرايين المخ. وبعد وفاته زار قبره الملايين من الفرنسيين، من بينهم الملكة وجميع الأمراء. ووجد قادة الثورة الفرنسية في كتبه دليلًا للحكم، وفي إحدى الخطب الثورية يعلن روبسبير: «هذه الثورة كان رائدها شخص واحد اسمه جان جاك روسو، وستظل مدينة له مدى الحياة». وقد قرّرت حكومة الثورة الفرنسية سنة 1794م نقل رفات روسو باحتفال رسمي إلى البانتيون «مقبرة العظماء»، حيث كانت رفات عدوه ڤولتير قد نقلت منذ ثلاثة أعوام.

كان الاحتفال بنقل رفات روسو في ذلك العهد ذا دلالة سياسية كبرى. مشى الموكب من قصر التويلري إلى البانتيون مؤلفًا من فئات ترمز كل فئة

منها إلى كتاب من كتب روسو؛ كان أمام أعضاء الحكومة حاجب يحمل (العقد الاجتماعي)، وكانت أمهات مع أولادهن يرمزون إلى كتاب (إميل)، وموسيقيون يعزفون ألحانًا من أوبريت (عُراف القرية)، وأطباق من الثمر وباقات من الزهور ترمز إلى حب الطبيعة، ومجموعة من سكان مدينة جنيف تُذكر بالمدينة التي رأى روسو فيها النور.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

عندما وصف أرسطو العمل الفلسفي بأنه أفضل أشكال المعارضة، فلربما كان يفكر بما حصل لسقراط، وبالظروف الصعبة التي رافقت حياة أفلاطون الذي ينتسب لأسرة أرستقراطية وكان رجلًا غنيًا، هوايته شراء النصوص الفلسفية النادرة، حتى أنه كان يدفع أموالًا طائلة، وهو الأمر الذي أثار عليه نقمة السلطات التي وجدت في هذه الهواية خطرًا، لأن أصحابها يحاولون الحفاظ على كتب ممنوعة خربت عقول الشباب. كان أرسطو نفسه يمتلك مخطوطات نادرة، لكن تجميع هذه الكتب يعد فقط المظهر الخارجي للعمل الفلسفي. فالفلاسفة عُدّوا منذ البداية «محرضي أفكار»، حتى القراءة هذا النشاط القديم للفلاسفة، اعتبرته السلطات لونًا من ألوان التحريض أي إعادة ترتيب أفكار الناس. وبسبب هذا النشاط سقط الكثير من الفلاسفة، فطُردوا أو نفوا أو أُعدموا بسبب الاتهام بالزندقة. يكتب هيغل إن الفلسفة منذ بداياتها كانت شكلًا من أشكال الاستفزاز، فسقراط مثلًا كان بمثابة استفزاز علني للجميع، السلطة والمجتمع ورجال الدين، وحين اتهم بالتجديف وحكم عليه لم يدافع عن نفسه متذللًا، ولكنه اتهم المحكمة بعدم الكفاءة، واستطاع تلميذه ديوجين أن يحوّل الفلسفة السقراطية إلى بيان احتجاجي.

لم يكن لديوجين بيت، وإنما كان ينام كيفما اتفق، مرة هنا وأخرى هناك، وتقول الروايات إنه عاش فترة طويلة في برميل، ويقال إنه كان يمسك في يده «فانوس» ويخرج به في ضوء النهار، وعندما يسأله المارة، وهم يضحكون ويسخرون: «عن أي شيء تبحث؟» كان جوابه: «إنني أبحث عن إنسان!». ولد ديوجين الكلبي سنة 413 ق. م. في مدينة سينوب التركية، وعندما سُئل لماذا يحب تسميته كلبًا، أجاب: «أنا أصرخ على أولئك الذين يخافون، وأضع أسناني في الأوغاد». يعتقد ديوجين أن البشر يعيشون بشكل مصطنع ومنافٍ للطبيعة، بينما الكلب يعيش في الحاضر دون قلق، وأن الكلاب تعرف غريزيًّا من هو الصديق ومن هو العدو، على عكس البشر الذين يخدعون الآخرين أو يُخدعون. كان يقول: «الكلاب تعض أعداءها، أما أنا فأقوم بلدغ الناس لإنقاذهم من أوهامهم».

كان يؤمن أن الحكمة لا تتحقق إلا بالحرية. كان جريء الفكر، مستقل الرأي، ساخرًا من المجتمع، مزدريًا للثروات والمناصب، مناديًا بالحياة الطبيعة، حافي القدمين، لا يضع على جسده سوى معطف قديم، وقد اختار أن يسكن في برميل. ويقال إنه شاهد يومًا طفلًا يشرب الماء من راحة يده، فكسر إنائه وقال: «هذا الطفل يعلّمني أنني ما زلت أحتفظ بما يفيض من حاجتي». كان يؤمن أن السعادة تكمن في إشباع الحاجات الأساسية فقط، وفي ضبط النفس لكيلا ترغب في المزيد، ونبذ ما وراء ذلك مثل المال والرفاهية والحياة الأسرية التقليدية، لأنها لا تجعل الإنسان أفضل من الناحية الأخلاقية. كما كان يصر على نبذ زخارف الحضارة المقيّدة لحرية الإنسان، أما المجتمع المثالي بنظر ديوجين فهو المجتمع الحر، وأما هدف الفيلسوف في الحياة فهو أن يصدم الناس. لقد أيقن ديوجين أن التفكير الفلسفي يؤدي إلى الحياة الصالحة، وقد كانت معظم أفكاره الفلسفية ذات طابع يؤمن بالفردية،

وأن الإنسان يجب عليه أن يتبع ضميره وليس ما تمليه عليه القوانين حينما يتعارض ما تفرضه قوانين المدينة مع العدل.

وتتحدث بعض كتب تاريخ الفلسفة عن أن الإسكندر الأكبر وهو يتجه صوب الشرق في واحدة من غزواته مرَّ بأثينا، فأثار انتباهه ديوجين القابع في برميله. اقترب منه، فسأله عما يبحث، فقال ديوجين للإسكندر: «أنا أبحث عن عظام أبيك، لكني لا أستطيع التمييز بينها وبين عظام العبيد». ثم سأله الإسكندر: «هل تعيش في هذا البرميل فقط لكي تلفت انتباه الناس وإعجابهم بك؟» قال ديوجين: «وهل فعلًا تريد أنت فتح بلاد فارس وتوحيد كل بلاد الإغريق، أم تفعل ذلك فقط لتنال الإعجاب؟!» أعجب الإسكندر بكلام ديوجين، ثم أخبره أن يطلب منه ما يشاء ليلبيه له. فأجابه ديوجين بهدوء: «أريد منك شيئًا واحدًا؛ إنك الآن تقف أمامي وتحجب عني أشعة الشمس.. لذا لا تحرمني من الشيء الوحيد الذي لا تستطيع منحي إياه.. لا تحجب شمسي بظلك!» كان ديوجين يشعر بأن المهمة الملقاة على عاتقه هي أن يتجول عبر العالم بوصفه «طبيب النفوس»، مستبعدًا المعايير الزائفة من التداول عن نقده الشديد لها، ومبددًا أوهام الناس ومعلمًا إياهم طريق الفضيلة والحرية والحقيقة. هناك روايات متضاربة عن موت ديوجين. ويزعم بعض مؤرخي الفلسفة أن ديوجين وهو يحتضر سُئل عن الكيفية التي يرغب فيها لدفنه بعد موته، فأجاب أن يُترك خارج أسوار أثينا حتى تتغذى الحيوانات البرية على جسده. وعندما سُئل هل يدرك فظاعة ما يقول، قال: «لا، على الإطلاق، طالما أنكم ستزودونني بعصا لمطاردة الحيوانات التي تريد أن تنهش جسدي!» فسخر منه الحاضرون وهم يقولون كيف لك استخدام العصا وأنت ميت؟ أجاب: «إذا كنت لا أستطيع استخدام العصا، فلماذا يجب أن أهتم بما يحدث لي بعد موتي؟»

«ولد الإنسان حرًا، وهو يرسف في الأغلال في كل مكان، فكيف حصل هذا التغير؟ إني أجهل ذلك. ما الذي يمكن أن يجعله شرعيًا؟ أعتقد أنني أستطيع أن أجيب على هذا السؤال». هذه الأسطر المشهورة التي يستهل بها جان جاك روسو كتابه (العقد الاجتماعي)، والذي يعد واحدًا من أهم الكتب السياسية التي صدرت في تاريخ البشرية، وقد كان الكتاب ثمرة عشر سنوات تفرّغ فيها روسو لدراسة الشرائع والقوانين التي تحكم البلدان. يكتب في اعترافاته: «إن من بين الكتب المختلفة التي كنت أشتغل في إعدادها كتابًا كنت أفكر فيه منذ زمن طويل، وأشغل نفسي به في شغف كبير، وكنت أريد أن أقضي في إعداده كل حياتي، كما كنت أعتقد أنه سيتوج شهرتي، ذلك هو كتاب النظم السياسية، لقد راودتني فكرة ذلك الكتاب منذ ثلاثة عشر عامًا».

كان روسو قد قرر تأليف كتاب ضخم عن النظم السياسية على غرار كتاب (روح القوانين) لمونتسكيو يجمع فيه إلى جانب الدراسات النظرية والفلسفية مشاهداته وملاحظاته عن نظم الحكم في البلدان التي زارها. غير أن روسو وجد نفسه عام 1761م أمام مشروع كبير قد لا تكفي سنوات حياته الباقية لتحقيقه، ففضّل إخراج الجزء الذي كتبه من كتاب النظم السياسية تحت عنوان (العقد الاجتماعي) عام 1762م. يقول: «ولما كنت قد عدلت عن إخراج هذا المؤلف، فقد صممت على اختيار ما يمكن فصله منه وعلى حرق الأجزاء الباقية، ولما بدأت العمل في هذا الكتاب بنشاط، بدون أن أتوقف عن تأليف كتاب (أميل) في نفس الوقت، استطعت أن أنتهي من كتاب (العقد الاجتماعي) في مدة أقل من عامين».

لقد كان تفكير روسو منشغلًا في البحث عن أسباب التحوّل في المجتمعات من حالة المساواة والحرية الطبيعية إلى حالة اللامساواة التي

يعيشها الإنسان في المجتمع المدني: «أريد أن أبحث فيما إذا كان يمكن أن تكون في النظام المدني قاعدة ما للإرادة شرعية وأكيدة، وذلك بتناول البشر كما هم والقوانين كما يمكنها أن تكون». يؤكد روسو أن الالتزام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم على أساس القوة، فلا حق للأقوى: «أي حق هو هذا الحق الذي يزول بزوال القوة؟ إذا كان يجب على المرء أن يطيع بالقوة، فلا حاجة لأن يطيع بالواجب». ولا يقوم الواجب الاجتماعي على أساس سلطة الأب الطبيعية، ولا على سلطة لرئيس «طبيعي» مزعوم، مولود لكي يتولى القيادة. فهذه أطروحات نزعة الحاكم المطلق. إن الأساس الشرعي للالتزام كما يصوّره روسو موجود في الاتفاق المعقود بين أعضاء المجتمع. وهو أشبه بالميثاق الاجتماعي الذي لا يمكن أن يكون شرعيًا إلا إذا كان قائمًا على رضى الجميع، وصيغة هذا الميثاق يحددها روسو بالعبارة التالية: «كل واحد منا يضع مع غيره شخصه وكل قوته تحت القيادة العليا للإدارة العامة، ونلتقي كهيئة، كل عضو كجزء لا ينفصل عن الكل». وهذا يعني أن كل فرد في المجتمع يتخلى كليًا ومن دون تحفظ عن كل حقوقه للجماعة. كل واحد يلتزم حيال الجميع، وإذ يعطي كل واحد نفسه للجميع، فإنه لا يعطيها لأحد. وكل واحد يكتسب حقًا مساويًا لحق الآخر. فكل فرد يربح معادل ما يخسر. وهكذا نرى أن الالتزام كما يراه روسو يستمد وجوده من أن كل فرد يكون مرتبطًا بالمجموع، لكن دون أن يكون راضخًا لأحد، ومن أن كل واحد يتواجد مع الجميع ولا يرضخ مع ذلك إلا لنفسه، ويظل حرًا كما كان من قبل».

والواقع أن الشرط الأساس في العقد الاجتماعي هو الشرط نفسه بالنسبة للجميع، فكل المواطنين يلتزمون بالشروط نفسها ويجب أن يتمتعوا بالحقوق نفسها. وبالتالي فإن الحاكم لا يحق له أبدًا أن يحمّل أحد الرعايا

أكثر من غيره: «إن الدولة بالنسبة إلى أعضائها هي سيدة على كل ممتلكاتهم بالعقد الاجتماعي، الذي يستخدم في الدولة كقاعدة لكل الحقوق، ولكن الدولة لا تجرّد الأفراد مع ذلك من ممتلكاتهم، بل على النقيض تكفل لهم شرعية حيازتهم لها. الملكية الحقيقية: الملكية - الحق، التي حلت محل الملكية - الواقع في حالة الطبيعة». قد يظن البعض أنها نظرية خيالية، لكن روسو يرى أن العقد الاجتماعي في ذاته وبذاته مقدس، ولعل البعض يسأل كيف ينظر روسو إلى الدين؟ يكتب في الجزء الأخير من (العقد الاجتماعي): «يجب أن تكون عقائد الدين المدني بسيطة، قليلة العدد، مبنية بدقة، بلا شروح ولا تعليقات، وجود الله القوي، العاقل، المنعم، الإيمان بقداسة العقد الاجتماعي والقوانين، هذه هي العقائد الإيجابية، أما العقائد السلبية فإنني أحصرها في عقيدة واحدة، هي عدم التسامح، فهي تدخل في عداد العبادات التي حذفناها». هذه الكلمات ما إن ظهرت إلى النور عام 1762م حتى اعتبر روسو خطرًا على النظام الملكي الفرنسي، واعتبرته السلطة والكنيسة مجرمًا ومحرضًا على الفتنة بسبب إساءته للدين وتعديه على سلطة الملك.

بعد أحد عشر عامًا على وفاة جان جاك روسو تندلع الثورة الفرنسية ويقف جميع قادتها من برناس إلى دانتون ومارا ومانون رولاند وروبسبير ليقرأوا مقتطفات من كتاب (العقد الاجتماعي) على الجماهير التي زحفت إلى القصر الملكي. لقد أشاد الجميع بتعاليمه وقرروا أن يطلقوا عليه لقب «مؤدب الجنس البشري»، وأقيم تمثال لجان جاك روسو وضع في قاعة الجمعية الوطنية. وفي ألمانيا يكتب إيمانويل كانط: «مرّ عليّ وقت كنت فيه أتصور مفاخرًا بأن المعرفة هي فخر الإنسانية، فأرمق الجهلة بكثير من الازدراء. وكان روسو هو الذي أزال الغشاوة عن عيني، فتلاشى ذلك التيه الخادع وتعلمت أن أمجد الإنسان». في مقابل هذا الإطراء نجد فيلسوفًا مثل

برتراند راسل يصف كتاب (العقد الاجتماعي) بأنه «يخدم الديموقراطية من طرف اللسان»، ويستشهد راسل بنابليون بونابرت الذي يقال إنه كان يقرأ كل مساء صفحات من كتاب (العقد الاجتماعي)، ويؤكد راسل أن نابليون استطاع أن يستفيد من أفكار روسو عن سيادة الشعب وعن الإرادة العامة، ليقيم حكومته المطلقة بعد أن حصل على تأييد الأمة له فكان استبداده علميًا.

24

السعي لاكتشاف السر.. لأننا نريد أن نكون بشرًا

لم يعرف سببًا للانقطاع عن الكتابة، منذ خمس سنوات وهو يعيش حالة من التردد، فما إن قامت ثورة 1952م حتى شعر بأن رغبة الكتابة قُتلت داخله، فالهدف الذي كان يكتب رواياته من أجله هو نقد المجتمع وتحريض الناس للوقوف بوجه الظلم، وهاهي الثورة تتحقق وستتولى تحقيق ما كان ينادي به في رواياته: «كان السؤال الذي يلح عليّ: ما جدوى الكتابة؟ ولما طالت فترة التوقف أصبحت كالتائه، واستقرّ في وجداني أنني انتهيت كروائي، ولم يعد عندي ما أقدمه للناس».

كان نجيب محفوظ يشعر بأنه أمضى حياته وهو يتجه نحو نقطة يتمكن معها من كتابة رواية عن مفهومه للدين والعلم، فهو الآن في الثانية والأربعين من عمره (عام 1953م) - ولد نجيب محفوظ في 11 أيلول عام 1911م - وكان قبل أشهر قد نشر مقالًا عن فكرة الألوهية في الفلسفة الحديثة، وفيه يقول: «شعر الفلاسفة المحدثون، كغيرهم من المفكرين في أي عصر آخر، بأننا نستطيع أن نعرف القليل عن الله، لكننا لا نستطيع أن نعرف عنه كل شيء، فثمة طرق نستطيع أن نعرف فيها الله وأخرى لا نستطيع أن نعرفه فيها».

كان نجيب محفوظ ينوي عام 1930م الحصول على شهادة الماجستير في الفلسفة، وأخذ ينشر مقالات في (المجلة الجديدة) التي كان يصدرها آنذاك

سلامة موسى، يرى فيها أن الإنسان يمكن أن ينتصر على الفقر بالعلم، ولهذا قرّر أن يناقش في رواياته التي كتبها فيما بعد قضايا علمية كان الاقتراب منها أمرًا محفوفًا بالمخاطر. وفي ثلاثيّته الشهيرة - بين القصرين، قصر الشوق، السكرية - يسلط الضوء على أزمة الإنسان الوجودية ورؤية أبطال الرواية إلى الكون، وشكوك البعض منهم تجاه المعتقدات المتداولة آنذاك: «وجَّهني سلامة موسى إلى شيئين مهمين؛ هما العلم والاشتراكية، ومنذ دخلا مخّي لم يخرجا منه حتى الآن».

وفي مقال ينشره نجيب محفوظ في (المجلة الجديدة) عام 1930م بعنوان (احتضار معتقدات وتولد معتقدات) يشير إلى أن المدنيات القديمة قامت على معتقدات ترسخت في وجدان شعوبها، لأنها كانت بمأمن في نفوسهم من النقد والبحث اللذين يولّدان الشك والريبة، غير أن الوضع الحالي أصابه تغيير بتسليط ضوء العقل على تلك المبادئ التي قامت بها تلك المعتقدات القديمة. ولذلك فإن العصر الحالي يعاني فيه الناس من الاضطراب والتخبط الفكري والمعرفي، لأنهم يشهدون عصر احتضار معتقدات وتولد معتقدات. ولذلك فالمقياس الذي علينا أن نتشبث به هو العقل والتطور العقلي، لأنه سيجعلنا نتوجه إلى الطريق الأصوب، وإذا كانت الفلسفة تطرح الأسئلة، فبإمكاننا أن نقول إن الأدب يحاول طرح إجاباتها، وتشكيل زوايا لرؤية تفاعل الشخصيات مع تلك الأسئلة، وكذلك محاولاتها للحل في المعالجة الفنية. وهو ما يقوم به الأديب ذو الخلفية الفلسفية على وجه التحديد.

في الجزء الثاني من الثلاثية - قصر الشوق - يرصد نجيب محفوظ القادم من الفلسفة إلى الرواية، ما حصل لكمال عبد الجواد وهو يتعرف على أحدث النظريات العلمية:

«قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته... وكان بعض أصحابه قد وجّهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر في البلاغ الأسبوعي بقلم الأديب الناشئ كمال أحمد عبد الجواد، ومع أنّ أحدًا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو (أصل الإنسان)... فإنهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد... وقال بهدوء مصطنع: لك مقال في هذه المجلة، أليس كذلك؟

رفع كمال عينيه عن المجلة، ثم قال بلهجة لم يمكنها الإفصاح عن اضطرابه: بلى، خطر لي أن أكتب موضوعًا تثبيتًا لمعلوماتي وتشجيعًا لنفسي على مواصلة الدرس.

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع: لا عيب في ذلك ... ماذا أردت بهذه المقالة؟ اقرأها واشرحها لي، فقد غمض عليّ مرامك ...

-إنه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إنني أشرح فيه نظرية علمية...

-ماذا تقول في هذه النظرية؟ لقد لفتت نظري عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية، أو شيئًا من هذا القبيل، أحق هذا؟...

- هذا ما تقرره هذه النظرية...

علا صوت السيد وهو يتساءل في انزعاج: وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!...

قال بصوت خافت: دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن سيدنا آدم...

هتف الرجل غاضبًا: لقد كفر داروين ووقع في حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قردًا أو أي حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر».

يكرّر نجيب محفوظ في معظم رواياته علاقته مع العلم والفلسفة. وقد كان يؤمن أن الفكر الفلسفي وحده يستطيع النفاذ والنظر إلى مشكلة الألوهية والخلق، فهو يرى أنّ العلم هو الصورة الوحيدة للمعرفة البشرية، وكان يرفض اعتبار اللاهوت أو الفلسفة الميتافيزيقية ميادين للمعرفة، فالعالم الذي يصفه العلم هو العالم الوحيد الموجود، وهو يرى أن مسائل الدين والأخلاق يجب أن تخضع لمعايير العلم. يتذكر نجيب محفوظ أنه نشر عام 1933م مقالًا عن عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي أوغست كونت الذي أيقن في السنوات الأخيرة من حياته أن فلسفته تنطوي على أسس لعقيدة جديدة للبشرية، وأنها هي وحدها الملائمة في نظره لعقل البشر في عصر علمي، فالأديان التقليدية تقتضي قبول معتقدات لاهوتيّة غير علميّة. لكنّ المؤسف أن كونت في السنوات الأخيرة من حياته أصيب بعلّة ذهنية اعتقد فيها أنه يبشّر بديانة جديدة ، ولم يكتف بالدعوة إلى عقيدته الجديدة، وإنما اتجه إلى وضع طقوس خاصة لها، وكان يؤمن بأنه النبي الحقيقي لعقيدته الجديدة، وبأنّ زوجته هي القديسة الحامية لهذا الدين، يكتب كونت: «إذا كانت الأصولية المسيحية قد انهارت فهذا لا يعني أن الدين قد انهار، وإنما يعني أننا بحاجة إلى بلورة مفهوم جديد للدين: أي مفهوم كوني واسع يشمل البشرية بأسرها، مفهوم قائم على الحب وتجاوز الأنانيات الشخصية والمصالح العابرة للبشر».

كان أوغست كونت المولود عام 1798م مفكرًا متشعب الاهتمامات والاختصاصات. فقد كتب في فلسفة العلوم الفيزيائية والكيميائية والرياضية، وكتب في السياسة وعلم الاجتماع، وكتب في الدين والقضايا الروحية والميتافيزيقية. وقد أمضى كونت نصف حياته العلمية في دراسة القوانين التي تتحكم بظواهر الكون ومادته، ونصفها الآخر في بلورة النظرية الأخلاقية والدينية للبشرية.

في عام 1959م تجري مجلة الجيل حوارًا مع نجيب محفوظ، يقول فيه عن رواية (أولاد حارتنا): «إنها قصة من نوع جديد لم أكتب مثله من قبل، لذلك أنا متهيب جدًا، متهيب جدًا».

مكتبة
t.me/t_pdf

***

في الساعة الخامسة والربع من مساء يوم الرابع عشر من تشرين الأول عام 1994م كان نجيب محفوظ كعادته يخرج من بيته ليذهب إلى ندوته الأسبوعية حيث يلتقي ببعض الأصدقاء. كان صديقه الدكتور فتحي هاشم ينتظره أمام باب العمارة التي يسكن فيها. تقدّم نجيب محفوظ نحو السيارة وما إن جلس في المقعد الأمامي حتى اقترب منه أحد الأشخاص فتوهّم أنه أحد القرّاء أو المعجبين، لكنّ الشاب الغريب باغته وغرز سكينًا في رقبته. يتذكر نجيب محفوظ الحادث فيكتب في صحيفة الأهرام يصفها: «إنني لم أرَ الشاب الذي اعتدى عليّ، لم أرَ وجهه.. الذي حدث هو أنني وأنا أهمّ بركوب السيارة لأذهب إلى موعدي مع أصدقائي، وجدت شخصًا يقفز بعيدًا، وكنت قد شعرت قبلها بثوانٍ معدودة وكأنّ وحشًا قد أنشب أظافره في عنقي.. وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث».

الشاب الذي طعن نجيب محفوظ يُدعى محمد ناجي يعمل في إصلاح الأجهزة الإلكترونية، حاصل على شهادة متوسطة. في حوار معه أجراه الكاتب محمد سلماوي قال إنه «اتجه إلى الله» قبل حادثة اغتيال نجيب محفوظ بأربع سنوات: «قرأت كتبًا كثيرة خاصة بالجماعة الإسلامية إلى أن قابلوني». واعترف الشاب لسلماوي بأنه لم يقرأ شيئًا لمحفوظ، وعقّب قائلًا: «أستغفر الله». وشدّد أنه لم يكن يحتاج إلى قراءة أعمال محفوظ، وأنه حاول اغتيال محفوظ لأنه «ينفّذ أوامر أمير الجماعة التي صدرت بناءً على فتاوى الشيخ عمر عبد الرحمن».

وذكر سلماوي في كتابه (في حضرة نجيب محفوظ) أنه أبلغ الشاب بأن محفوظ سامحه على جريمته فقال: «هذا لا يعنيني، ولا يغير من الأمر شيئًا، لقد هاجم نجيب محفوظ الإسلام في كتبه لذا أُهدر دمه، وقد شرّفتني الجماعة بأن عهدت إليّ بتنفيذ الحكم فيه فأطعت الأمر».

في نيسان من العام 1959م يعود نجيب محفوظ إلى الكتابة بعد توقفٍ دام أكثر من خمس سنوات، كانت صحيفة الأهرام قد قدمت له عرضًا مغريًا بنشر إحدى رواياته متسلسلة على صفحات الجريدة. ويذكر نجيب محفوظ أنه أعطى الرواية إلى مدير تحرير الصحيفة حمدي الجمال الذي قرأها وأعجب بها ودفعها للنشر، ويبدو أن مدير التحرير لم ينتبه إلى الموضوع الرئيس الذي تناقشه الرواية، حيث اعتبرها رواية عادية تدور أحداثها في إحدى الحارات المصرية.

في الرابع عشر من أيلول 1959م تنشر صحيفة الأهرام في الصفحة الأولى خبرًا يقول: «اتفقت الأهرام مع نجيب محفوظ كاتب القصة الكبير، على أن تنشر له تباعًا قصته الجديدة الطويلة. إن نجيب محفوظ هو الكاتب الذي استطاع أن يصوّر الحياة المصرية تصوير فنان مقتدر مبدع، لذلك فإن قصصه كانت حدثًا أدبيًا بارزًا في تاريخ النهضة الفكرية في السنوات الأخيرة. ولقد وقّعت الأهرام مع نجيب محفوظ عقدًا يصبح للأهرام بمقتضاه حق النشر الصحفي لقصته الجديدة مقابل ألف جنيه». وبعد أربعة أيام، تعود الأهرام لتنشر في الصفحة الأولى هذا العنوان: «الأهرام تبدأ في نشر قصة نجيب محفوظ يوم الاثنين القادم»، وبدأ نشر الرواية يوم الاثنين الحادي والعشرين من أيلول بعنوان: (أولاد حارتنا).

تُنشر الرواية وتمرّ الحلقات الأولى من دون أن ينتبه لها أحد، حتى كتب أحد النقاد في صحيفة الجمهورية المصرية مقالًا يشير فيه إلى أن نجيب محفوظ

يتناول قضية الخلق في (أولاد حارتنا). بعد نشر المقال بدأت بعض الجهات الدينية بمطالبة النيابة العامة بالتدخل لوقف النشر، ودخل الأزهر على الخط حيث اعتبرها بعض المشايخ تتضمن كفرًا صريحًا، وأن الشخصيات في الرواية ترمز إلى الأنبياء، ووصلت رسائل الشكوى والاحتجاجات إلى رئاسة الجمهورية التي طلبت إيضاحًا من رئيس التحرير آنذاك محمد حسنين هيكل. ويذكر هيكل في حواره الذي أجراه معه يوسف القعيد ونشر في كتاب بعنوان (هيكل يتذكر.. عبد الناصر والمثقفين): «بعد الضجة التي حدثت، أخذتُ (أولاد حارتنا) وقرأتها، وأدركت مغزى تحذير نجيب محفوظ لعلي الجمال، إلا أن رأيي استقر على المواصلة بالنشر، ولم أكن أتخيّل أن تصل الضجة حولها إلى بعض الجهات الدينية الكبرى التي طالبت الرئاسة بوقف النشر حتى لا تحدث مصادمات بين الحكومة والإسلاميين». وفي كتاب (صفحات مجهولة من حياة نجيب محفوظ) يخبرنا رجاء النقاش أن جمال عبد الناصر اتصل بهيكل وكان قد قرأ بعض الحلقات ليسأل هيكل عن الضجة المثارة، ويدافع هيكل عن نجيب محفوظ وينصح الرئيس بأن لا يمنع الرواية، لأنّ مثل هكذا قرار سيضع الدولة تحت رحمة الإسلاميين، ووافق عبد الناصر لكنه اقترح على هيكل أن يسرع في النشر ويجعله يوميًا حتى تنتهي حلقات الرواية وتنتهي معها الأزمة. ويكلف عبد الناصر مندوبًا من الرئاسة أن يبلغ نجيب محفوظ بأن الرواية لن تنشر في كتاب. يقول نجيب محفوظ: «بعد أن انتهت الأهرام من نشر (أولاد حارتنا) اتصل بي الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية وقال لي من الصعب السماح بطبع هذه الرواية، لأنها سوف تثير ضجة كبيرة». وتجتمع لجنة الدفاع عن الإسلام برئاسة محمد الغزالي وهو من الشخصيات القيادية في حركة الإخوان المسلمين وتهاجم اللجنة رواية (أولاد حارتنا) هجومًا عنيفًا، حيث أكّد البيان أن الرواية تعبث بتاريخ الديانات وتدعو إلى الإلحاد.

ترصد (أولاد حارتنا) قصة الكون من خلال حارة مصرية، حيث يستدعي نجيب محفوظ العالم منذ بدء الخليقة وظهور الخلافات الأولى بين قابيل وهابيل، مرورًا بخروج آدم من الجنة وبداية الآلام والصراعات التي ارتبطت بأحفاده منذ خروج أبيهم من الجنة وحتى الآن. كما تستدعي الرواية قصص الأنبياء المختلفة وأدوارهم في تحقيق العدل الإنساني ضد الفتوات الذين استحكموا في عباد الله الغلابة، وأذاقوهم ويلات القمع والقهر والمهانة. لقد نقل محفوظ قصة الكون منذ بدء الخليقة، بمحاكاة تسجيلية دقيقة ورائعة وجذابة إلى حارته التي استطاع باقتدار كاتب كبير أن يمسك بأدق تفاصيلها ويحرك شخوصها كيفما يريد.

يقول نجيب محفوظ لرجاء النقاش إنه: «يريد الكشف عن الهدف الأساسي للبشرية، وهو البحث عن سر الكون، وحتى تستطيع البشرية الكشف عن هذا السر، تحتاج إلى التفرغ له والاستعداد، وهي لن تتمكن من هذا إلا بعد القضاء على استغلال الأغنياء للفقراء، والصراع بين الناس من أجل لقمة العيش. فالرواية تصور هذا الصراع المرير الذي تزعّمه الأنبياء والرسل دفاعًا عن الفقراء وتهيئة العيش السعيد للناس أجمعين حتى يتفرغوا للبحث الأعظم، ولكن ما أن تنتهي الرسالة حتى يعود الأغنياء فيقبضون على زمام الأمور، وتعود المعركة من جديد للوصول إلى العدل والرفاهية للجميع، ثم تدخّل «العلم» بعد انتهاء الرسالات ليقوم بنفس الغاية وهي إسعاد الناس، ولكنّ المستغلين سخّروا العلم لمصلحتهم أيضًا، وقتلوا رمزه في القصة، إلا أن شخصًا آخر استطاع الهروب بسرّ الاختراعات العلمية الحديثة ليعاود الكفاح من أجل إنهاء الصراع بسبب لقمة العيش والتفرغ لمعرفة سر الحياة».

قرأ نجيب محفوظ عام 1934م مسرحية جورج برنارد شو الشهيرة

(العودة إلى ميتوشالح) وكتب عنها مراجعة نقدية، حيث يشير محفوظ إلى أنها تتناول شوق الإنسان إلى العدل من خلال استعادة قصة آدم وحواء وما جرى لهما بعد أن أغرتهما الحية ليطردا من الجنة. يكتب برنارد شو على لسان حواء: «الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى أن يعيش بالخبز فقط، يوجد شيء آخر لا ندري حتى الآن ما هو، ولكننا سنكشف عنه في يوم من الأيام، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو النزاع أو القتال». بعدها تتوإلى الأحداث في مسرحية برنارد شو حيث نجد إصرار الإنسان على أن يحقق حلمه بأن يعيش طويلًا ليصبح مثل «ميتوشالح» وهو أحد شخصيات العهد القديم، جدّ النبي نوح، وقد امتدّ به العمر حتى 969 عامًا. وتنتهي أحداث المسرحية في عام 2160م عندما ينجح العلم في ذلك.

يشير نجيب محفوظ إلى حلم البشرية في حياة ممتدة، معتبرًا أنّ رجال السياسة ذوي النفوس المظلمة يموتون دائمًا ولمّا يبلغوا سنّ الرشد، فيجب أن تمتدّ بهم الحياة ليبلغوا الحكمة، وربما يستفيدون من تجارب الماضي. ونجد نجيب محفوظ يترجم مقاطع مطولة من حوار المسرحية تلقي فقط الضوء على الأفكار الرئيسة للنص، منها الحوار الذي يدور حول الخلود: «كان آدم وحواء معلّقَيْن بين قدرين مخيفين: انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في حياة أبدية، وعندما لم يطيقا واحدًا منهما الآخر، قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة أمدها ألف عام، ويعهدا بعملهما إلى زوج جديد».

كان برنارد شو قد نشر (العودة إلى ميتوشالح) عام 1922م، وهي عبارة عن خمس مسرحيات قصيرة ترتبط أحداثها الواحدة بالأخرى، والتي يقول فيها إن هناك ما يسميه «قوة الحياة» وهذا التعبير نادى به الفيلسوف الفرنسي برغسون أيضًا. وبرنارد شو يؤمن أن العقل كامن في المادة، والأخلاق والإنسانية والخير كامنة كلها في العقل، والخير أكبر من الشر في هذه الدنيا.

ونجد مفردات عند برنارد شو مثل ديانة التطور، وشهوة التطور، والديانة البيولوجية، وإرادة الإنسان. ولهذا نجد برنارد شو يسخر من الكنيسة لأنه يعتقد أنها سرقت الدين الحقيقي وزيفته، وأرادت أن تروّج لدين خاص بها، دين يستغل الضعفاء ويمنح بركاته للأقوياء والظالمين. ولهذا أوصى بألا يصلى عليه في الكنيسة من قبل القساوسة، وأن يُحرق جثمانه. يكتب في (المسيح ليس مسيحيًا): «إن الأمة اليقظة يجب أن تنقح ديانتها مرة كل عام على الأقل».

***

في (أولاد حارتنا) يتناول نجيب محفوظ موضوعًا يتعلق بتاريخ البشرية من حيث هو تاريخ النجاة والخلاص الإنساني، منذ اللحظة الأولى لخلق آدم وحواء ثم طردهما من الجنة، ومرورًا بظهور الرسل والأنبياء، وانتهاءً بسيطرة الفلسفة على العقل البشري، والبحث لها عن مكان تنافس به الأديان. ولكي يقرّب نجيب محفوظ موضوعه إلى القراء، فقد نقل الأحداث في الرواية من بُعدها الأسطوري والتاريخي إلى حي من أحياء القاهرة، حيث تدور الأحداث في «حارة» تقع بين أطراف العاصمة القاهرة وجبل المقطم، ففي الصحراء التي يصفها نجيب محفوظ بـ «الخلاء الخرب»، هناك يقيم «الجبلاوي» بيتًا كبيرًا وأملاكًا شاسعة يريد أن يهبها لأبنائه وذريتهم بعد وفاته، لكنه في لحظة غضب يطرد اثنين من أولاده مع عوائلهم: إدريس (إبليس) لأنه رفض أن يمنح أبوه الوقف إلى أخيه الأصغر أدهم (آدم)، وأدهم لمحاولته الاطلاع على الأوراق الخاصة بأملاك والده التي يحافظ الجبلاوي على سريتها. ويحاول الجبلاوي أن يستردّ أحد أبناء أدهم وهو همام (هابيل) ليعيش معه في البيت الكبير، لكن محاولته تفشل بعد مقتل همّام بيد

شقيقه قدري (قابيل) الذي يشعر بالغيرة، وعلى إثر ذلك يعتزل الجبلاوي في البيت الكبير، ويكلف وكيل أعماله بالإشراف على الأملاك.

ونجده لا يحرك ساكنًا عندما يتصرف هذا الوكيل بالأملاك على هواه، لتسقط «الحارة» في البؤس ويشتد فيها الظلم، بسبب سيطرة الفتوات الذين يتحولون إلى أدوات لتنفيذ تعليمات وكيل الجبلاوي. ومن حين لآخر ينهض رجل ليدافع عن المظلومين ويحاول تحريرهم من أحوالهم البائسة، فيظهر «جبل» (موسى) حيث يحصل بالقوة على جزء من أرباح أملاك الجبلاوي، وكذلك «رفاعة» (عيسى) الذي يرفض اللجوء إلى القوة ولا يهتم بأملاك الجبلاوي، لأنه يسعى إلى تحرير الناس من الطمع والشهوة، لكن التفات الناس حوله يجعل الفتوات يشعرون بخطره فيقررون قتله، وأيضًا «قاسم» (محمد) الذي ينجح في تحطيم نفوذ الفتوات، ويتمكن من السيطرة على بعض الأملاك ليوزع أرباحها على الناس بالتساوي. لكن الذي يحدث بعد موته وموت أصحابه هو عودة سيطرة الفتوات ومعهم وكيل الجبلاوي على الحارة، وانتشار الظلم والبؤس من جديد.

ونجد أن أهالي الحارة سرعان ما ينسون تعاليم روادهم الكبار. فبعد سنوات يظهر الساحر عرفه (العلم) ليحتل مركز الأحداث، وفي الرواية يخبرنا نجيب محفوظ أن عرفة مجهول الأب، لا أحد يعرف من أين جاء، وإلى أي جماعة ينتمي. فهو يمثّل العلم والتطور الذي لا ينتمي لدين أو وطن. ونجد عرفة يواصل الصراع الذي بدأه من قبل جبل ورفاعة وقاسم مع الفتوات، لكي يوفر لأبناء الحارة حياة تليق بهم. وهو يثير الشك حول وجود الجبلاوي على قيد الحياة، ولكي يثبت هذا الأمر يتسلل إلى بيت الجبلاوي من أجل أن يكتشف السر، لكنه يتورط في قتل الخادم ويهرب، فيجد نفسه مطاردًا من فتوات الحارة. وحين يقرر إنقاذ نفسه لم يجد غير

الزجاجة السحرية التي اخترعها لكي يلقيها عليهم. والزجاجة تضم سلاحًا متفجرًا يفوق الأسلحة التي يملكها فتوات الحارة، ويتمكن وكيل الجبلاوي من الحصول على الكراسة السحرية الخاصة بصنع الزجاجة حيث يتمكن من خلالها التخلص من الفتوات، ليصبح عرفه هو الفتوة الجديد. ويكتشف عرفة أن الوكيل يستغله فيقرر الهرب، لكن أتباع وكيل الجبلاوي يلقون القبض عليه ويقتلونه. وتنتشر شائعات في الحارة تتهم عرفة بأنه قتل الجبلاوي الكبير، وأن سلاحه جعل من وكيل القصر طاغية لا يقهر. إلا أن موت عرفة يشيع الأمل عند سكان الحارة، فقد تمكن شقيقه حنش من النجاة وإنقاذ كراسة عرفة السحرية. ويبدأ شباب الحارة بالبحث عن حنش لتعلم السحر منه وهم يرددون: لا أمل لنا إلا في سحر عرفة.

في حوار مع مجلة (أخبار الأدب) أجراه الكاتب محمد شعير ونُشر عام 2000م، يقول نجيب محفوظ إنه يعتبر (أولاد حارتنا) إعادة كتابة للثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية)، ويؤكد أنهما «رواية واحدة».

25
حين تتحول الحياة إلى رواية ملعونة

قال المسؤول عن الرقابة وهو يشاهد كتاب (ثلاث نظريات في الجنس) لسيغموند فرويد: «لا يمكن أن أسمح بكتابات تتحدث عن أشياء تحدث في غرف النوم». تكتب الروائية الإنكليزية فرجينيا وولف: «اقفل مكتباتك إن أردت. لكن لا توجد بوابة، ولا قفل، ولا برغي بإمكانه تقييد حرية عقلي».

كانت فرجينيا وولف قد واجهت التعنت عندما اعتبر البعض كتابها (غرفة تخص المرء وحده) يتحدى قيم المجتمع، حيث كتب الروائي والناقد أرنولد بينيت مجموعة مقالات للرد على وولف ساخرًا منها بعبارة «الرجال متفوقون فكريًّا على النساء»، الأمر الذي دفعها إلى كتابة رد قالت فيه: «ما تحتاجه النساء ليس التعليم فقط، إذ ينبغي أن تتمتع النساء بحرية التجربة وأن يختلفن عن الرجال بدون خوف ويعبرن عن اختلافاتهن بحرية التجربة، كما ينبغي تشجيع النشاط الفكري بما يعزز دائمًا وجود نساء يفكرن ويبتكرن ويتخيلن ويبدعن بحرية مثلما يفعل الرجال، وبدون خشية من السخرية منهن والعطف عليهن».

قبل صدور روايتها (أورلاندو) في خريف عام 1928م، كانت فرجينيا وولف قد خاضت معركة للدفاع عن الروائية رادكليف هول، التي استُقبلت روايتها (بئر العزلة) عام 1928م بغضب شديد في بريطانيا وأمريكا، ومنعت من التداول لأنها تتحدث عن المثلية الجنسية بشكل صريح وواضح. في تلك

الأيام حاول وزير الداخلية البريطاني ويليام جوينسون هيكز أن يلزم جميع البريطانيين باتباع الأخلاق الفاضلة بالقوة، وطُرحت في ذلك الحين مسألة حرية الكتابة. كانت فرجينيا وولف قد قررت أن تدلي بشهادتها لصالح رواية رادكليف هول أمام المحكمة، قبل أيام من نشر روايتها (أورنولدو)، وستتهم وولف أيضًا بأنها تقف إلى جانب قضية المثلية الجنسية. وفي محاضرة لها عام 1928م تعلن وولف أن: «الكتّاب ينتجون الأدب، ولا يمكنهم إنتاج أدب عظيم ما لم تتحرر عقولهم. يتمتع العقل الحر بإمكانية الوصول إلى جميع المعارف والتكهنات المتعلقة بعمره، ولا شيء يضيق عليه مثل المحرمات».

كانت فرجينيا وولف تريد أن تتحدث عن حرية الكاتب وعن ازدرائها للرقابة، ورغم أنها وجدت رواية (بئر العزلة) «كتابًا باهتًا» لكنها كانت على استعداد للدفاع عن حق رادكليف هول في التعبير عن آرائها. سيرفض القاضي شهادة فرجينيا وولف والروائي إي. إم. فورستر، معلنًا أن الكتّاب لا يستطيعون الإدلاء بشهاداتهم كخبراء في الفحش، وأن شهادتهم مقبولة فقط في الفن.

رواية رادكليف هول التي مُنعت في بريطانيا ستجد لها سوقًا رائجة في أمريكا، حيث استطاعت إحدى دور النشر أن تبيع منها أكثر من مئة ألف نسخة. لكن دار النشر ستواجه حملة غاضبة من المحافظين، مما دفع شرطة نيويورك إلى أن تصادر أكثر من ألف نسخة، الأمر الذي دفع عددًا من الكتّاب وعلى رأسهم إرنست همنغواي، وشيروود أندرسون، وإف سكوت فيتزجيرالد إلى إصدار بيان يدافع عن حرية النشر. وقد كتب همنغواي مقالًا يتحدث فيه عن العدالة الاجتماعية، ويحتجّ فيه على هيمنة الرقابة على النتاج الأدبي. وبعد سلسلة من المعارك الأدبية والقانونية، أصدرت محكمة نيويورك

في التاسع عشر من آب عام 1929م قرارًا قالت فيه إن رواية رادكليف هول (بئر العزلة) وإن تناولت المؤلفة فيها «مشكلة اجتماعية حساسة» لكنها لم تنتهك القانون، وبالتالي تستحق التداول الحر لروايتها.

في الثانية والأربعين من عمرها نشرت رادكليف هول (بئر العزلة) وكانت قبل هذا التاريخ قد أصدرت روايتين وعددًا من دواوين الشعر التي لم تنل إقبال الجمهور، إلا أن روايتها هذه طارت من رفوف المكتبات، ونفدت طبعتها الأولى في أسابيع قليلة.

ولدت مارغريت أنطونيا رادكليف هول في الثاني عشر من آب عام 1880م في بورنماوث، وهي مدينة في مقاطعة دورست في بريطانيا، لأب ينتمي إلى إحدى العوائل الثرية، أكمل تعليمه في أكسفورد، لكنه عاش حياته عاطلًا بسبب الثروة التي هبطت عليه بعد رحيل والده الطبيب المشهور ورئيس الجمعية الطبية البريطانية. وكانت أمها أرملة أمريكية تعاني من تقلبات في المزاج، حاولت أن تتخلص من جنينها «مارغريت» من خلال عملية إجهاض لم تنجح. توفي والدها وهي في الثانية، فتزوجت أمها من أستاذ موسيقى كثيرًا ما كان يعلن أن هذه الطفلة علامة شؤم. كرهت مارغريت والدتها التي ظلت تردد أنها لم تكن ترغب في الإنجاب. في المرحلة الثانوية أنجزت روايتها الأولى التي لم تجد لها ناشرًا، حيث تعاني بطلة الرواية من أم متسلطة وأب غائب طوال الوقت، فتقرر ذات يوم أن تتخلص من أمها.

عندما كبرت هول واكتسبت المزيد من الاستقلالية، أدركت أن لديها ما يكفي من أموال الميراث من والدها للعيش دون عمل أو زواج. فبدأت تفعل ما يحلو لها، مثل ارتداء الأزياء الرجالية كالبنطلونات والقبعات. وصفت نفسها بأنها «مخلوق مقلوب على رأسه»، وعشقت كتابات عالم

النفس البريطاني هافلوك الذي قالت إنها كتبت روايتها بفعل تأثير كتاباته. كما سحرتها شخصية الروائية جورج إليوت التي كانت تدين حق النساء اللواتي تزوجن وأنجبن وقرأن كتبًا تافهة.

تتناول رواية (بئر العزلة) حكاية الفتاة ستيفن جوردن التي ولدت لعائلة من الطبقة الأرستقراطية في إنكلترا، وقد أصرّ والدها أن يطلق عليها اسم الابن الذي كان يتمنى أن تلده زوجته. ستثير الطفلة دهشة أمها التي وجدتها مخلوقًا غريبًا يمتلك كتفين عريضتين ورجلين رفيعتين. عندما بلغت ستيفن السادسة من عمرها كرهت صفة الفتاة، وقررت أن تجبر أمها على أن تقصّ شعرها مثل الأولاد. تمنت لو أنها خُلقت ولدًا، ووقعت في غرام خادمة البيت وأصيبت بانهيار عندما وجدت الخادمة تقبل رجلًا.

كان والد ستيفن مهتمًا بقراءة كتب كارل هاينريش أورلش الذي كان من أوائل من ناقشوا موضوعة «المثلية الجنسية». وقد تعرض أورلش للمحاكمة والسجن، ومُنعت كتبه من التداول في العديد من البلدان الأوروبية، لكن هذا لم يمنعه من مواصلة الكتابة في هذا الموضوع الحساس. وقد كتب قبل وفاته: «حتى يوم مماتي سأفكر في الماضي بفخر على أنني وجدت الشجاعة لأخوض معركة ضد هاجس الخوف والتمييز». أما والدة ستيفن فظلت تسخر منها طوال الوقت لأنها مصرة على أن تتشبه بالأولاد.

ترتبط ستيفن بعلاقة حب مع مارتن هالام، الذي ما إن صارحها بحبه حتى قررت أن تهرب منه. يتوفى الأب بعد أن يتعرض إلى حادث، وكان قبلها يريد أن يقنع الأم بحالة ابنتها. أخذت ستيفن تقلّد الرجال في كل شيء، فترتدي الملابس مثلهم، وتحاول أن تتقرب للفتيات. قررت أن تقدّم تجربتها إلى القراء من خلال رواية ستلقى نجاحًا كبيرًا، وأثناء الحرب العالمية الثانية تنضم ستيفن إلى الوحدات الإدارية في الجيش، واستحقت أن تنال

وسامًا لشجاعتها. تعود ستيفن إلى هوايتها في الكتابة مما يجعل صديقتها المقربة منها تشعر بالملل لأن ستيفن لا تستطيع أن تعيش حياة طبيعية.

بعد وفاة رادكليف هول قامت صديقتها بجمع أعمالها الأدبية، لكنها واجهت صعوبة حيث طلبت وزارة الداخلية البريطانية من هيئة الرقابة تقريرًا عن مؤلفات هول، فكان القرار أن أي ناشر يعاود طباعة كتب «المرأة المنحرفة» سيلاحق قضائيًا. بعد ثلاث سنوات، أي في عام 1949م، استطاع أحد الناشرين أن يرفع الحظر عن رواية (بئر العزلة) فصدرت طبعة خاصة منها، لتترجم إلى أكثر من خمس عشرة لغة، وتحتل قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا. بعد ذلك تقرر هيئة الإذاعة البريطانية عام 1974م أن تقدّم الرواية للمستمعين من خلال برنامجها الإذاعي (كتاب عند النوم).

في الحادي عشر من تشرين الأول عام 1927م، تصدر فرجينيا وولف روايتها (أورلاندو) - صدرت بالعربية عن دار المدى بترجمة توفيق الأسدي - وتهديها فرجينيا وولف إلى إحدى صديقاتها التي جعلتها شخصية متحولة تبدأ حياتها فتى، وتنتهي امرأة. وكان زوج فرجينيا لينارد قد قرأ المخطوطة النهائية لـ (أورلاندو) وأُعجب بالرواية كثيرًا، ووجدها تمثل خطوة جديدة في عمل وولف الروائي. دهشت فرجينيا حين وجدت زوجها متحمسًا بشكل كبير، فهي شخصيًا كانت تجد في (أورلاندو) الكثير من العيوب. كانت تقول إنها بعد أن قرأت مارسيل بروست أخذت ترى أن كل ما تكتبه يبدو هزيلًا ولا قيمة له. كانت تعتقد أن (أورلاندو) رواية لا قيمة لها بين رواياتها الأخرى. لكن (أورلاندو) ستحظى باهتمام القراء، وقد ساعدت رواية (بئر العزلة) لرادكليف هول على انتشار رواية فرجينيا وولف، حيث اكتشف الكثير من القراء أن وولف كاتبة روائية كلاسيكية يجب قراءة رواياتها بإمعان ومتعة. كان القراء قد أصابتهم الحيرة قبل ثلاث سنوات وهم يقرأون

رواية (السيدة دالاوي)، حيث وصفها البعض بأنها راوية متحذلقة ثقافيًا، أو أن رواية صعبة. فيما رواية (أورلاندو) رواية سهلة ومؤنسة ومباشرة في طرح الحكاية، كما كتب إي. إم. فورستر الذي وصفها بأنها عمل بلغ مرتبة الكمال فنيًّا، لكنه وجد موضوع المثلية شيئًا تشمئز منه النفس.

في سيرتها الذاتية التي كتبها ابن شقيقتها كوينتين بيل - ترجمها إلى العربية عطا عبد الوهاب - يخبرنا أن فرجينيا وولف تعرفت عام 1922م على بيتا ساكفيل زوجة هارولد نكلسون، وأن بيتا وقعت في غرام فرجينيا من النظرة الأولى. كانت تغار عليها، وأحبتها كما لو كان رجل يحبها. ويؤكد بيل أن العلاقة كانت من طرف واحد، لكن فرجينيا وولف كانت تكتب في يومياتها بحماس عن علاقتها ببيتا، هذه العلاقة التي كانت أساس رواية (أورلاندو). فبطل الرواية شاب وسيم يقع في غرام امرأة سرعان ما تهجره، ليعتكف في منزله الريفي، وتمر أحداث الرواية سريعة فنراه يقضي ليلة مع إحدى الراقصات، ثم يصاب بغيبوبة لعدة أيام يظل فيها فاقد الوعي، لكنه ما إن يصحو يجد نفسه وقد تحول إلى امرأة. وتعيش الليدي أورلاندو عبر القرون وتقابل العظماء والأدباء، وتتزوج من بحار لتستقر في المنزل كامرأة. اعتبر النقاد أن (أورلاندو) أشبه بسيرة ذاتية لفرجينيا وولف لأنها تخلد الحب الذي تحمله لبيتا.

كانت فرجينيا وولف قد كتبت عام 1903م رسالة إلى إحدى صديقاتها تقول فيها: «شعوري الحالي هو أن هذا العالم الغامض الشبيه بالحلم، الخالي من الحب أو القلب أو العاطفة أو الجنس، هو العالم الذي أعبأ به حقًا وأجده ممتعًا. فمع أن هذه الأشياء هي أحلام بنظرك، وأنا لا أستطيع التعبير عنها بكفاية أبدًا، فهي بنظري حقيقية تمامًا». بعد عام على هذه الرسالة يتوفى والدها السير لزلي ستيفن لتجد نفسها قد تحررت، وسقطت عنها العديد من

القيود والمحظورات، كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وكان موضوع الجنس يشغلها ويحتل الصدارة في المناقشات مع أختها فانسيا. تقول: «لقد كان التحدث عن الجنس ينفذ إلى أحاديثنا، ولم تكن الكلمات الشاذة من الكلمات المحرمة في قاموسنا اللغوي. كنا نناقش هذه الموضوعات بنفس الحماس الذي كنا نناقش به طبيعة الخير والشر». لكنها ستكتب بعد ذلك: «تضجرني العلاقات الجنسية أكثر مما كانت في الماضي»، وتسأل نفسها: «هل أنا أتكلف الاحتشام؟»

كانت فرجينيا وولف في السادسة عشر من عمرها عندما تعرفت على ولتر هيدلام، والذي كان أول رجل في حياتها العاطفية، وكان يكبرها بأربعة وعشرين عامًا. ولم توافق شقيقتها على هذه العلاقة، وكانت تقول لفرجينيا احذري من زير النساء هذا الذي يطارد الفتيات الصغيرات. بعدها تتعرف على إدوارد هيلتون الذي كان ينوي الزواج منها، لكنه لم يعجبها، وكانت تنزعج من إلحاح أهلها بالزواج. تكتب في إحدى رسائلها: «ليتهم يكفون عن قولهم لي بأن أتزوج. هل هي الطبيعة البشرية وقد أخذت تتكشف فجأة؟ أنا أسمّي هذا شيئًا مقرفًا». في تلك السنوات توجّه اهتمام وولف إلى الفتيات، لم يكن الرجال يشغلونها كعشاق، كانت كل عواطفها باتجاه صديقتها فيوليت.

ويشير بيل في كتابه إلى أن الرجل الوحيد الذي شعرت فرجينيا نحوه بانجذاب هو زوج شقيقتها كلايف بيل (والد مؤلف سيرتها)، وكانت وولف ترتاح لكلايف حيث قضت معه أمسيات جميلة وهما يتحدثان عن الأدب والمجتمع، وأنها اكتشفت فيه فتنة باهرة كما كتبت في إحدى رسائلها إلى فيوليت، وأن كلايف اكتشف فيها رفيقة باهرة، ساحرة، منعشة. لكن هذه العلاقة كما يقول كونتين لم تدم طويلًا، فبعد سنوات ستتهم فرجينيا

زوج شقيقتها بأنه: «كطير الوقواق يضع بيضه في أعشاش طيور أخرى». لقد اكتشفت فرجينيا أنها لم تكن مغرمة بكلايف، وأنها إن كانت مغرمة بأحد فهي مغرمة بشقيقتها فانيسا. كانت تتبادل الرسائل معها كل يوم، وكانت هذه الرسائل أشبه بخطابات غرام، وقد تمنّت أن تجد وسيلة لكي تفصل شقيقتها عن زوجها. كتبت عام 1907م تقول: «سيمضي بعض الوقت قبل أن أستطيع فصله عنها».

في العام 1909م يتقدم ليتون ستراشي للزواج من فرجينيا وولف، وسرعان ما توافق عليه لشعورها بالندم تجاه شقيقتها، لكن ليتون سرعان ما يتراجع فقد اكتشف أنها تكره الجنس ولا تزال تحتفظ بعذريتها وقد وصفها بأنها «جبانة جنسيًا».

وجدت فرجينيا وولف أنها قد بلغت الثلاثين من عمرها وما تزال عانسًا، في تلك الفترة تتعرف على لينارد وولف الذي طلب الزواج منها. الأمر الذي أثار غضبها فردت عليه بقسوة. قالت في رسالة إليه: «أشعر بالغضب من قوة رغبتك. وأنا مضطربة إلى درجة تثير الخوف. كما قلت لك بقسوة: لا أشعر بأي انجذاب جسدي نحوك. مع ذلك يغمرني اهتمامك بي». كان جسدها ميتًا وقالت: «لا أتذكر أبدًا أي متعة لجسدي»، لكنها ستوافق في النهاية حيث أعلن عن ارتباطهما في التاسع والعشرين من أيار عام 1912م، وسيلعب لينارد عدة أدوار في حياة فرجينيا، فهو الأب والأم والوصي عليها. رفضا الإنجاب خوفًا على صحة فرجينيا، وطلبت منه أن ينام كل واحد منهما في غرفة منفصلة لئلا يضايقها صوته. كتبت في إحدى رسائلها إلى شقيقتها: «أشعر أنني لست هذا الشيء أو غيره، لست رجلًا ولا امرأة. ماذا أفعل إذًا؟». أطلقت على نفسها اسم بيلي، تكتبت في يومياتها: «لو أستطيع مصادقة النساء، يا لها من متعة أن تكون العلاقة سرية وخاصة مقارنة بتلك

مع الرجال». ووجدت نفسها في الكتابة: «الكتابة وحدها تركب وجودي ولا شيء يجعله كاملًا إلا إذا كتبت». قرأت كتب فرويد عندما قررت هي وزوجها طباعتها في المطبعة التي يمتلكانها، وفي عام 1938م تلتقي فرويد في لندن حين ذهبت هي وزوجها للقاء به. ويخبرنا بول روزان في كتابه (الأسس الثقافية للتحليل النفسي) - ترجماه إلى العربية سارة اللحيدان ويوسف الصمعان - أن فرويد في ذلك اللقاء قدّم زهرة نرجس إلى فرجينيا. وتقدّم لنا فرجينيا وولف في يومياتها وصفًا دقيقًا لفرويد: «كان يجلس في مكتبة كبيرة، حوله تماثيل صغيرة مرتبة بدقة فوق طاولة كبيرة ولامعة. جلسنا على الكراسي كالمرضى، أمام رجل كبير بالسن منكمش وينظر بعينين رقيقتين، بالكاد تصدر منه حركات متشنجة، ولكنه في وضعية تأهب دائمة. وحول هتلر قال بأنه لو عاش متأخرًا بجيل سيكون للسم مفعوله. وعن شهرة كتبه يقول: كنت سيء الصيت أكثر من كوني مشهورًا، لم أجنِ ٥٠ جنيهًا من كتابي الأول. كان حوارًا صعبًا، ساعدتنا ابنته وابنه مارتن بإمكانيات جبارة كشعلة مضيئة. لدى مغادرتنا كان يحدثنا عن موقفنا وما نحن فاعلين أمام الحرب الإنكليزية».

في اللقاء تحدثت فرجينيا وزوجها عن كتب فرويد، كان زوجها معجبًا بكتاب فرويد (علم النفس في الحياة اليومية)، واعترفت فرجينيا أنها أقل اطلاعًا على كتب علم النفس، وتخبرنا في يومياتها أنها بعد لقائها بفرويد خصصت وقتًا كبيرًا لقراءة معظم أعماله. وكان فرويد مهتمًا بقراءة الأدب، وكانت فرجينيا وولف حريصة على أن تهديه بعضًا من كتبها. وقد أخبرها فرويد أنه قرأ روايتها (الفنار) التي صدرت عام 1927م، لكنه توقف كثيرًا عند روايتها (السيدة دالاواي) وأثارته روايتها (أورلاندو) لما فيها من أحاسيس دفينة.

عندما صدرت رواية (أورلاندو) أرسلت فرجينيا رسالة حب إلى بيتا مع حزمة تحتوي على نسخة من الكتاب المطبوع ومعه المخطوطة الأصلية، مُجلدة ومحفورة عليها الأحرف الأولى من اسم بيتا.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

الفهرس

مقدمة 5

1- أيها الإنسان لست إلهًا! 11

2- للذين يدركون جيداً معنى الحياة 23

3- كان يريد أن ينثر الشك في كل الاتجاهات 35

4- الرجل الذي جعل الكون يصرخ من الألم 45

5- لكنّ الطُّغاة ذهبوا، وبقيت الكتب 55

6- إننا نناقش: كيف ينبغي أن يعيش الإنسان 67

7- هل أنا أناقض نفسي.. حسنًا جدًا، إنني أناقض نفسي 77

8- تعلّموا أن الدهشة أصل الأشياء 89

9- كل شيء يتدهور في أيدي البشر 101

10- من يظن أن الإنسان يستطيع أن يفلت من المحبطات؟ 111

11- ليس بالسياسة وحدها يحيا الإنسان 121

12- الحقيقة تستحق أن يُسعى في طلبها 131

13- علينا أن نعيش، وندع غيرنا يعيش 141

14- الفيلسوف الذي وجد نفسه بين وحوش ضارية 151

15- عندما لا نستطيع الهرب من خطوات الزمن 163
16- لم أختر أن أكون ما أنا عليه 175
17- الأسئلة الخطيرة فقط هي تلك التي يصوغها طفل 185
18- عفريتٌ مرعبٌ يتسلل في أرجاء أوروبا 195
19- أيهما أفضل أن يكون المرء محبوبًا أم مرهوب الجانب؟ 205
20- سعادة الإنسان تكمن في ازدياد حريته 217
21- أولئك الباحثون عن الأفكار الغريبة والأنباء العجيبة 227
22- حين يولد الاستبداد السّياسي من الاستبداد الدِّيني 239
23- انذر حياتك للحقيقة، فإن عالمًا جديدًا يبدأ 251
24- السعي لاكتشاف السر.. لأننا نريد أن نكون بشرًا 263
25- حين تتحول الحياة إلى رواية ملعونة..... 275

مكتبة
t.me/t_pdf

كتب ملعونة

ثلاثية الجنس.. الدين.. السياسة

" كتب ملعونة " يتحدث عن اللعنة التي يسببها الشغف بالورق، وينضم إلى أشقائه السابقين الذين ظهروا خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وهم "في صحبة الكتب" و "دعونا نتفلسف" و "سؤال الحب" و"غوايات القراءة" وهو يضيف إلى تجاربهم في الأدب، والفلسفة، تجربة أخرى مع الكتب، وإذا كانت الكتب السابقة حاولت أن تسلط الضوء على حكايات لأدباء وفلاسفة مع الورق، فإنها حاولت أيضًا أن تبين للقارئ أن التأمل في الكتب لا يغني عن حب القراءة، وهذا الكتاب الذي يواصل الرحلة نفسها يحاول أن يقدم للقراء حكايات جديدة مع الكتب.

هذا الكتاب محاولة جديدة لقراءة هذه الكتب التي ساهمت في تغيير مجرى الأحداث في العالم سواء في مجال السياسة والإقتصاد والدين والفكر العلمي منذ المعركة التي خاضها سقراط حول الحرية والعدل، إلى آلاف الكتب التي أحرقت في الساحات ومنعت من التداول على مر العصور

telegram @t_pdf

ISBN 978-1-947836-58-7
9 781947 836587

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

أثر